

عندما لا تمطر السماء

ثلاثة أسئلة لا يطرحها أحدٌ جهرًا

فيليپ يانسي

عندما لا تمطر السماء

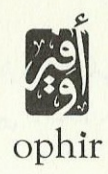
ثلاثة أسئلة لا يطرحها أحدٌ جهرًا

هلِ الله ظالم؟ أهو صامت؟ أهو مختبئ؟

فيليب يانسي

ترجمة

سعيد فارس باز



ophir

الإهداء إلى أخي الذي ما يزال خائبًا

Originally published in the U.S.A. under the title:
«**Disappointment With God**».
Copyright © **1988 by Philip Yancey**.
Published by permission of Zondervan, Grand Rapids, Michigan.

عندما لا تمطر السماء

الطبعة العربية الأولى ٢٠٠٩

أوفير للطباعة والنشر
ص.ب. ٣٠٦٢، عمان ١١١٨١، الاردن
هاتف: ٧٦٨ ٥٦٦٥ ٦ ٩٦٢+
فاكس: ٧٦٨ ٥٦٣٩ ٦ ٩٦٢+

Email: info@ophir.com.jo
www.ophir.com.jo

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/١/٣٥٧

ISBN 978-90-5950-071-6

المحتويات

مقدِّمة 11

الكتاب الأوَّل: الله وراء الظِّلال

القسم الأوَّل- سماء الصَّمت

1. غلطةٌ مُميتة 23
2. كلُّ شيءٍ تلاشى 31
3. الأسئلةُ التي لا يطرحها أحدٌ جهرًا 41
4. ماذا لو؟ 49
5. المصدر 57

القسم الثاني- إجراءُ الاتِّصال: الآب

6. مغامرةٌ محفوفةٌ بالمخاطر 63
7. الأب 69
8. ضوءُ شمسٍ غيرُ مُخفَّف 75
9. لحظةٌ مُشرِقة 83

١٠. النارُ والكلمة ٨٩
١١. المُحِبُّ المجروح ٩٥
١٢. أروعُ من أن يكونَ صحيحًا ١٠٣

القسم الثالث- الاقترابُ الأقرب: الابن

١٣. التنازُل ١١١
١٤. آمالٌ كبار ١١٧
١٥. التحفُّظُ الإلَهيُّ ١٢٥
١٦. المعجزةُ المؤجَّلة ١٣٣
١٧. التقدُّم ١٣٩

القسم الرابع- الانتِداب: الروح

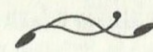
١٨. تسليمُ الأمانة ١٤٩
١٩. تغيُّراتٌ في الريح ١٥٥
٢٠. التأوُّجُ (بلوغُ الذروة) ١٦٣

الكتاب الثاني: الرؤية في الظلام

٢١. مُقاطَعٌ ١٧٥

٢٢. المشكلةُ الوحيدة ١٨٣
٢٣. دَورٌ في الكون ١٩١
٢٤. هلِ اللهُ ظالمٌ؟ ٢٠١
٢٥. لماذا يُحجِمُ اللهُ عنِ التفسيرِ ٢١٥
٢٦. هلِ اللهُ صامتٌ؟ ٢٣١
٢٧. لماذا يُحجِمُ اللهُ عنِ التدخُّلِ ٢٤٥
٢٨. هلِ اللهُ مُختبِئٌ؟ ٢٦٣
٢٩. لماذا ماتَ أيُّوبُ سعيدًا؟ ٢٧٣
٣٠. رهانانِ ومَثَلان ٢٨٣
المراجع ٢٩٣

مقدِّمة



بعدما باشرتُ العمل في مشروع هذا الكتاب، تلقَّيتُ مخابرات هاتفيَّة من بضعة أشخاصٍ في كنيستي كانوا قد سمعوا به. وجَّهَ المُتَّصلون إليَّ أسئلةً فحواها: "أصحيحٌ أنَّك تكتب كتابًا عن خيبة الأمل بالله؟ إن كان نعم، فعندي ما أقوله لك. لم يسبق أن أطلعتُ أحدًا على الأمر. ولكنِّي شهدتُ في حياتي المسيحيَّة أوقات خيبةٍ مُرَّة". وقد قابلتُ بعضًا من أُولئك المتَّصلين، فساعدتني قصصُهم على تحديد وجهة هذا الكتاب.

لقد تبيَّن لي أنَّ لدى الكثيرين هوَّةً سحيقة بين ما يتوقَّعونه من إيمانهم المسيحيّ وما يختبرونه فعلًا. فمن وجبةٍ ثابتة من الكتب والعظات والشهادات الشخصيَّة، جميعُها تعد بالانتصار والنجاح، يتعلَّمون أن يتوقَّعوا رؤية أدلَّة عجيبة على عمل الله في حياتهم. وإن لم تَلُح لهم أدلَّةٌ كهذه، يشعرون بالخيبة والخيانة، والذنب غالبًا. كما قالت لي إحداهنَّ: "ظللتُ أسمع التعبير (العلاقة الشخصيَّة بيسوع المسيح). ولكنَّني وجدتُ، لخيبتي، أنَّها تختلف عن أيَّة علاقة شخصيَّة أُخرى. فأنا لم أرَ الله قطُّ، ولا سمعتُه، ولا لمستُه، ولم أختبر أكثر مقوِّمات العلاقة جوهريَّةً. فإمَّا أنَّ هناك خطبًا ما في ما قيل لي، وإمَّا أنَّ الخَطب فيَّ أنا!"

تحصل الخيبة حين يُقصِّر الاختبار الفعليُّ لشيءٍ ما تقصيرًا كبيرًا عمَّا نتوقَّعه.

لهذا السبب يستكشف القسم الأوَّل من هذا المؤلَّف الكتابَ المقدَّس حتى نرى ما يمكننا أن نتوقَّعه من الله بحقّ. وقد تردَّدتُ في الانطلاق من هناك، لعلمي أنَّ بعض الأشخاص، ولا سيَّما خائبي الآمال، قلَّما يتحمَّلون ما يقوله الكتاب المقدَّس. ولكنْ أيُّ مكانٍ للانطلاق أفضل من السماح لله بأن يتكلَّم بنفسه؟ وقد حاولتُ التحرُّر من المفاهيم المسبَّقة وقراءة الكتاب المقدَّس كما لو كان قصَّةً ذات "حبكة". فإذا بي أندهش ممَّا وجدتُ هناك. إذ كانت القصَّة مختلفةً تمامًا عمَّا قيل لي مُعظَم حياتي.

وفي الواقع أنَّني عقدتُ عزمي على كتابة كتابين مختلفين، وباشرتُ ذلك. إنَّما انتهى بي الأمر إلى ضمِّ الكتابين في مجلَّدٍ واحد. والكتاب الثاني ينتقل إلى قضايا أكثر عمليَّةً وواقعيَّة، ويُطبِّق الأفكار التي تحصَّلت لديَّ على أوضاعٍ عمليَّة من نوع الأوضاع التي تعزِّز الخيبة بالله. ففي آخر المطاف، تبيَّن لي أنَّ المقاربتين تندرجان في الكتاب عينه، ومن شأن كلتيهما أن تكون ناقصةً دون الأُخرى.

وإذ شرحتُ هذا المشروع مرَّةً لأحد أصدقائي، تجهَّم وجهه وهزَّ رأسه قائلًا: "أعتقد أنّي لم أُحاول قطُّ تحليل الله نفسيًّا من قبل". فأرجو ألاَّ يكون هذا هو ما أرمي إليه! إنَّما رغبتي الفعليَّة أن أفهم الله فهمًا أفضل، عسى أن أعلم لماذا يتصرَّف أحيانًا بطرقٍ غامضة جدًّا – أو لا يبدو أنَّه يتصرَّف على الإطلاق!

ولكنْ لا بدَّ من كلمات تنبيهٍ قليلة. إنَّ هذا ليس كتاب دفاع عن العقيدة، ولذا لن أسلك سبيل إيراد البيِّنات بشأن الله. فقد قام آخرون بهذا على نحوٍ فعّال. ثمَّ إنَّني أتطرَّق إلى شكوكٍ هي عاطفيَّة أكثر ممَّا هي عقليَّة. ذلك أنَّ الخيبة تنطوي على وجود علاقةٍ منشودة لم تُفلح بطريقةٍ من الطرق.

ولَن أُناقش أيضًا السؤال: "هل يُجري الله المُعجزات في وقتٍ من الأوقات؟" فأنا أعتبر أمرًا بديهيًّا أنَّ له قدرةً خارقة وأنَّه قد استخدمها بالفعل. نعم، إنَّ في وسع الله أن يتدخَّل. إذًا، لماذا لا يفعل ذلك أغلب الأحيان؟ لماذا يُعيق ذاته بين الشكّاكين المُخلصين الذين يودُّون أن يؤمنوا إنْ هم شاهدوا علامة فائقة؟ لماذا يسمح للظُّلم والمعاناة

أن يستشريا في الأرض؟ ولماذا لا تكون تدخُّلات الله "مُعتادات" بدل أن تكون "معجزات"؟

تنبيه أخير بعد: إنَّني لا أُقدِّم بأيِّ حالٍ من الأحوال نظرةً متوازنة للإيمان المسيحيّ. ومهما يكن، فأنا أكتب لأُناس سمعوا صَمْت الله حينًا أو آخر. فدراسة شخصية أيُّوب كمثلٍ على الإيمان، تُشبه قليلًا دراسة تاريخ المدنيَّة بالنظر في الحروب فقط. وفي المقابل توجد كتب مسيحيَّة كثيرة تُغفِل أيَّ ذكرٍ للحروب ولا تَعِد إلاَّ بالنَّصر. إنَّما هذا كتابٌ عن الإيمان، ولكنَّه ينظر إلى الإيمان بعيون أُولئك الذين يشكُّون.

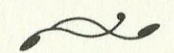
وأخيرًا، ينبغي أن أُوضِح الطريقة التي اخترتُها لذكر الشواهد الكتابيَّة. فقد أعرضت عن إيرادها في حواشي الصفحات أو بين أقواسٍ داخلَ النصّ، إذ من شأن ذلك أن يُوجِد عرقلةً في القراءة لا تختلف عن الإصغاء إلى شخصٍ مُبتلى بالتأتأة. وعوضًا عن ذلك، أشرتُ إلى شواهد الاقتباسات المباشرة من الكتاب المقدَّس في آخر كلِّ فصلٍ من فصول كتابي هذا. ولا بدَّ للمفتِّشين المُخلصين من أن يتتبَّعوا آثار المرجع الصحيح.

استيقظ! لماذا تتغافى، يا ربّ؟

انتبه! لا ترفض إلى الأبد.

لماذا تحجب وجهك؟

المزمور ٤٤: ٢٢-٢٤



الكتاب الأوَّل

الله وراء الظِّلال

لستَ مُضطرًا إلى الجلوس خارجًا
في الظلام. ولكنْ إذا شئتَ أن تنظر إلى النجوم،
فلا بدَّ أن تجدأنَّ الظلام مطلوب. أمَّا النجوم
فلا تحتاج إلى الظلام ولا تطلبه.

آنِّي ديلَّرد



القسم الأوَّل

سماء الصَّمت

- خيبة أمل ← شك ← غضب أو شعور بالخيانة ← اهتزاز الثقة بالله.

- خيبة الأمل تكون في توقعاتنا التي نرجوها من الله وليس في الله نفسه.

* الكنيسة الإنجيلية (الإيمان)
* الكتابات (الشاب - الفتاة - الأم)

1

غلطةٌ مُميتة

منذ نشر كتابي "أين الله عندما أتألَّم؟" تلقَّيتُ رسائل من أُناس خابت آمالهم بالله.

كتبت أمٌّ شابَّة أنَّ فرحها انقلب مرارةً وحزنًا حين ولدت ابنةً مصابةً بتشوُّهٍ خَلقيٍّ في عمودها الفقريّ يعرِّض حبلها الشوكيّ للخطر. فصفحةً بعد صفحة، وبخطٍّ عنكبوتيٍّ دقيق، حكت كيف استنزفت الفواتير الطبِّيَّة مدَّخرات العائلة، وكيف تصدَّع زواجُها إذ بات زوجُها يمقت تكريسها كامل وقتها لابنتهما المريضة. وفيما تداعت حياتُها ركامًا حواليَها، بدأت تشكُّ في ما سبق أن آمنت به بشأن إلهٍ محبّ. وقدِ التَمَستْ منّي أيَّة نصيحة في حوزتي بإمكاني تقديمها.

وأفضى إليَّ شابٌّ شاذٌّ جنسيًّا بقصَّته شيئًا فشيئًا، في رسائل متتالية. فقد أمضى أكثر من عشر سنيْن ملتمسًا "شفاء" لتوجُّهه الجنسيّ الشاذ، مجرِّبًا خدمات الشفاء الكاريزماتيَّة، و مجموعات الدعم المسيحيَّة، والعلاج بالأدوية. حتَّى إنَّه خضع لنوعٍ من العلاج التصحيحيّ فيه عرَّض المُعالِجون النفسيُّون منطقته التناسُليَّة للصَّدمات الكهربائيَّة وهو يستجيب لصُوَر رجالٍ مُثيرة. إلاَّ أنَّ أيًّا من هذه لم ينفع. ثُمَّ استسلم أخيرًا لحياةٍ مخالطةٍ مثليَّة مضطربة. وما يزال يكاتبني بين حين وآخر، مُصِرًّا على أنَّه يريد أن يتبع الله ولكنَّه يشعر بعدم الأهليَّة من جرّاء بليَّته المنكودة.

وكتبت إليَّ شابَّة، بشيءٍ من الإحباط، عن اكتئابها المستمرّ. وقد قالت إنَّه ما من سبب يدعوها إلى الاكتئاب. فهي جيِّدة الصحَّة، وذات راتبٍ حسن، ولها خلفيَّة عائليَّة مستقرَّة. ولكنَّها حين تستيقظ أغلبَ الأيَّام، لا تستطيع أن تُفكِّر في سببٍ واحد يحملها على مواصلة الحياة. وهي لم تعُد تهتمّ بالحياة أو بالله، حتَّى إنَّها إذا صلَّت كانت تتساءل أيُصغي إليها أحدٌ حقًّا.

هذه الرسائل وغيرها، ممَّا وصلني على مرِّ السنين، تُفضي كلُّها إلى السؤال الجوهريِّ عينه، مَصوغًا بطُرقٍ شتَّى. وهو يجري على نحوٍ كهذا: "كتابُك يتحدَّث عن الألم البدنيّ. ولكنْ ما قولُك في ألمٍ كألمي؟ أين الله عندما أُعاني عاطفيًّا؟ ماذا يقول الكتاب المقدَّس في هذا الشأن؟" وأنا أُجيب عن الرسائل بأفضل ما في وسعي، عالمًا بحزنٍ أنَّ الكلمات المخطوطة على الورق لا تفي بالغرض. فهل تستطيع كلمة، أيَّةُ كلمة، أن تشفيَ جرحًا؟ ثُمَّ إنَّ عليَّ أن أعترف بأنَّني بعد قراءة تلك الأخبار المحزنة أطرحُ الأسئلة ذاتها. أين الله في خضمِّ ألمنا العاطفيّ؟ ولماذا يُخيِّب آمالنا أغلبَ الأحيان؟

إنَّ خيبة الأمل بالله لا تحصل فقط في الظروف المأساويَّة. فهي بالنسبة إليَّ تبرز على حين غرَّة في أحوال الحياة اليوميَّة المألوفة. فلن أنسى إحدى ليالي الشتاء المنصرم، ليلةً باردة رطبةً مزعجة من ليالي شيكاغو. كانت الريح تُولوِل، وجَمدُ المطر يتساقط فيكسو الشوارع ثلجًا متلألئًا يُخالطه القتام. تلك الليلةَ توقَّفت سيّارتي فجأةً في حيٍّ ينذر بالشؤم نوعًا ما. وإذ رفعتُ الغطاء وانحنيتُ فوق المحرِّك، كانَ جَمَد المطر يلسع ظهري كحصًى صغيرة، أخذتُ أُصلّي مرارًا وتكرارًا: رجاءً، ساعِدني على تشغيل هذه السيّارة!

لم يُفلح أيُّ عبث بالأسلاك والأنابيب في تشغيل المحرِّك. ومن ثَمَّ قضيتُ الساعة التالية في مطعم خَرِبٍ منتظرًا وصول شاحنة القطر. وإذ جلستُ على كرسيٍّ بلاستيكيٍّ

وثيابي المبلَّلة تعصر حولي بركةً من الماء، تساءلتُ عن فكر الله بشأن بليَّتي. لا بدَّ أن يفوتني اجتماعٌ مُقرَّر تلك الليلة، وأُبدِّد ساعاتٍ كثيرة على مدى الأيَّام القليلة التالية محاولًا استجداء خدمة شريفة ومقبولة من محطَّة خدمات مُقامة لمساعدة السائقين المقطوعين. وهل يهمُّ الله أصلًا خيبتي أو تبديدُ طاقتي ومالي؟

شأني شأن تلك الشابَّة المُحبَطة من جرّاء اكتئابها، أشعر بالخزي لمجرَّد ذِكري صلاةً كهذه غير مستجابة. فيبدو أمرًا تافهًا وأنانيًّا، بل غبيًّا أيضًا، أن أُصلّي لأجل تشغيل سيّارة. غير أنَّه تبيَّن لي أنَّ خيبات الأمل اليسيرة تميل إلى التراكم عبر الزمن، مُقوِّضةً إيماني بسيلٍ ملتهب من الشكوك. فأبدأ بالتساؤل إنْ كان الله يعتني بتفاصيل الحياة اليوميَّة، وبي شخصيًّا. وأُجرِّب أن أُقلِّل من الصلاة، إذِ استنتجتُ مسبَّقًا بأنَّها لا تهمّ. أو لعلَّها تهمّ؟ ثُمَّ تضطرب مشاعري ويتزعزع إيماني. وما إن تدخل تلك الشكوك ساحتي، حتَّى أغدو أيضًا أقلَّ استعدادًا لمواجهة أزمنة الأزمات الكبرى. إحدى الجارات تموت بالسرطان، وأنا أُصلّي لأجلها بحرارة. ولكنْ حتَّى وأنا أُصلّي أتساءل. أيُمكن الوثوق بالله؟ إذا كان مقدارٌ وافر من الصلوات الصغيرة يبقى بلا استجابة، فماذا بشأن الصلوات الكبيرة؟

ذات صباحٍ في غرفة فندقٍ للمسافرين، شغَّلتُ التلفزيون، فإذا بوجهٍ عريض ذي غبَب لمبشِّرٍ شهير يملأ الشاشة، ثمَّ يقول مُحملِقًا: "إنَّني غاضبٌ على الله غضبًا شديدًا!" وكان ذلك إقرارًا مدهشًا من رجُل أقام مهنة حياته على أساس "بذرة الإيمان" والثقة المطلقة بإلهٍ يُعنى بنا عنايةً شخصيَّة. غير أنَّه قال إنَّ الله قد خذله، ومضى يشرح ذلك، فقال إنَّ الله أمره ببناء مُجمَّع مبانٍ كبير للخدمة، إلا أنَّ المشروع آل إلى خسارة مادِّيَّة كارثيَّة، ممَّا اضطرَّه إلى بيع معظم الممتلكات وإلغاء بعض البرامج. وقال إنَّه أدّى دوره في الصفقة، ولكنَّ الله لم يقُم بدوره.

وبعد بضعة أسابيع، شاهدتُ المبشِّر عينه مرَّة أُخرى على شاشة التلفزيون، وكان هذه المرَّة يفيض إيمانًا واستبشارًا. وقد انحنى صوب الكاميرا، وارتسمت على وجهه

المكتنز ابتسامة عريضة، ومدَّ إصبعه باتِّجاه ملايين المشاهدين، قائلًا: "سيحدث لك أمرٌ جيِّد هذا الأُسبوع!" ماطًّا الكلمة "جيِّد" توكيدًا. وكان إذ ذاك في أحسن حالاته الترويجيَّة، فبدا مُقنِعًا للغاية. إنَّما بعد أيَّام قليلة، سمعتُ في الأخبار أن ابنه انتحر. ولم يسعني إلاَّ أن أتساءل عمَّا قاله ذلك المبشِّر لله في صلواته إبَّان ذلك الأُسبوع الفاجع الذي كان قد توقعه جيِّدًا.

يبدو أنَّ صراعاتٍ كهذه تكاد تهزأ بالشعارات الظافرة عن محبَّة الله وعنايته الشخصيَّة، تلك الشعاراتِ التي غالبًا ما أسمعها في الكنائس المسيحيَّة. ولكنَّ أحدًا ليس في مناعةٍ من دُوَّامة الخيبة الهابطة. فهي تعتري أناسًا مثل ذلك المبشِّر، وأُناسًا مثل كَتَبة تلك الرسائل، كما تُصيب مؤمنين عاديِّين: فأوَّلًا تحلُّ الخيبة، ثمَّ تنزرع بذرة الشكّ، ثم تحصل استجابة تتَّسم بالغضب أو الشعور بالخيانة. إذ ذاك نبدأ بالتساؤل: هل الله جدير بالثقة، وهل يمكننا حقًّا أن نستأمنه على حياتنا؟

ما برحتُ أُفكر في هذا الموضوع المتعلِّق بخيبة الأمل بالله مدَّةً طويلة، ولكنَّني تردَّدت في الكتابة عنه لسببين. أوَّلهما أنّي علمتُ أنَّني سأضطرُّ إلى مواجهة أسئلة ليس لها أجوبة سهلة، بل ربَّما ليس لها أجوبةٌ فعلًا. والثاني أنَّني لم أُرِد أن أكتب كتابًا من شأنه أن يُضعِف إيمان أيِّ شخص، بالتركيز على الإخفاق.

أعلمُ أنَّ بعض المؤمنين سيرفضون على الفور تعبيراتٍ من قبيل "خيبة الأمل بالله." فهم يقولون إنَّ مفهومًا كهذا خطأٌ بجملته. وقد قال المسيح إنَّ إيمانًا كحبَّة الخردل يستطيع أن ينقل الجبال، وإنَّ أيَّ أمرٍ يمكن أن يحدث إذا اجتمع اثنان أو ثلاثة للصلاة معًا. والحياة المسيحيَّة حياةُ انتصار وظفر. فالله يريد لنا أن نكون سُعَداء وأصحَّاء وناجحين، وأيَّة حالة أُخرى خلاف ذلك إنَّما تُشير إلى قلَّة إيمان.

إنَّما في زيارةٍ لجماعة يؤمنون بهذا تمامًا، توصَّلتُ أخيرًا إلى التصميم على كتابة

هذا الكتاب. فقد كنتُ أبحث موضوع الشفاء الجسديّ بناءً على تكليفٍ من إحدى المجلاَّت، وقادني الاستقصاء إلى كنيسةٍ سيِّئة السمعة نوعًا ما مركزُها الرئيسيُّ في أرياف إنديانا. وكنتُ قد علمتُ بأمر تلك الكنيسة بالاطِّلاع على سلسلة مقالاتٍ نشرتها مجلَّة كبرى، وبمشاهدة برنامج تلفزيونيٍّ خاصٍّ بالموضوع.

كان أعضاء تلك الكنيسة يؤمنون بأنَّ في وسع الإيمان البسيط أن يشفي أيَّ مرض، وأنَّ التماس المعونة من أيِّ مصدر آخر، كالأطبَّاء مثلًا، دليلٌ على قلَّة الإيمان بالله. وقد تحدَّثَتْ مقالات المجلَّة عن آباءٍ وأُمَّهات انتظروا يائسين فيما خاض أولادهم معارك خاسرة مع التهاب السحايا أو ذات الرئة أو حمَّى الإنفلونزا العاديَّة، وهي أمراضٌ كان يمكن أن تُعالَج بسهولة. وكان رسَّامٌ في تلك المجلَّة قد رسم على خريطة للولايات المتَّحدة إشارات قبور صغيرةً للدلالة على الأماكن التي تُوفِّي فيها أُناس بعد رفضهم العلاج الطبِّيَّ وفقًا لتعليم كنائسهم. وقد ظهر على الخريطة ما مجموعُه اثنان وخمسون قبرًا.

وبحسب التقارير فإنَّ حبالى من تلك الكنيسة تُوفِّين في أثناء ولادة أطفالهنَّ بمعدَّلٍ فاق النسبة القوميَّة بثمانية أضعاف، وكان الصغار معرَّضين للموت بنسبةٍ بلغت ثلاثة أضعاف المعتاد. ومع ذلك كانت تلك الكنيسة آخذةً في النموّ، وقد أنشأت فروعًا في تسع عشرة ولاية وخمسة بلدانٍ أجنبيَّة.

زرتُ الكنيسة الأُمَّ في أنديانا ذاتَ يوم قائظ من شهر آب اللهَّاب، وقد تراقصت موجات الحرِّ على طرقات الأسفلت، وتهدَّلت أكواز الذُّرة المسفوعة على سُوقها في الحقول. وكان البناء قائمًا بغير معالم تدلُّ عليه وسط واحدٍ من حقول الذُّرة تلك، ضخمًا منعزلًا كحظيرةٍ في غير موضعها. وفي موقف السيّارات، كان عليَّ أن أستأذن دليلين يحمل كلٌّ منهما جهاز استقبال وإرسال. فقد كانت الكنيسة متوتِّرةً حيال الإعلام، ذلك لأنَّ بعض الأعضاء السابقين كانوا قد أقاموا دعاوى عليها منذ عهدٍ قريب.

ويُخيَّل إليَّ أنّي توقَّعتُ رؤية ما يدلُّ على التطرُّف في أثناء الخدمة: عظة مُنوِّمة

مغنطيسيًّا ومُسبِّبة للإغماء يُلقيها واعظٌ ناريّ. إلاَّ أنّني لم أرَ شيئًا من ذلك. فعلى مدى تسعين دقيقة، جلسنا في نصف دائرة كبيرة نُرنِّم ونُرتِّل وندرس الكتاب المقدَّس، وكان عددنا نحو سبع مئة.

وجدت نفسي بين قومٍ بُسَطاء. كانت النساء لابساتٍ فساتين أو تنانير، لا بناطيل، وكنَّ خفيفات الماكياج. أمّا الرجال، وهُم مُرتدون قمصانًا وربطات عنق، فقد جلسوا مع عائلاتهم وساعدوا في ضبط الصِّغار.

أمّا الأولاد فكانوا هُنا أكثر بروزًا منهم في معظم الكنائس، إذ تواجدوا في كلّ مكان. فالحفاظ على الهدوء ساعةً ونصفًا يفوق قدرة الصغير على الاحتمال، وقد لاحظتُ الأهل يحاولون مجاراتهم، حيث توافرت دفاتر التلوين، ولاعبت الأُمَّهات صغارهنَّ بأصابعهم. حتّى إنَّ بعضهنَّ أحضرن مجموعاتٍ نفيسة من الدُّمى واللُّعَب في مَحافظَ كبيرة الحجم.

لو جئتُ طالبًا الحماسة والإثارة، لرجعتُ خاليَ الوفاض. فقد شاهدتُ جانبًا من طريقة العيش الأميركيَّة القديمة، حيث العائلة التقليديَّة ما زالت حيَّةً ومُعافاة. والآباء والأُمَّهات هناك كانوا يحبُّون أولادهم، مثلهم مثل سائر الآباء والأُمَّهات على وجه الأرض.

إلاَّ أنَّ الخريطة التي عليها قبورٌ صغيرة وثبت إلى ذهني. فبعضٌ من هؤلاء الآباء والأُمَّهات كانوا قد جلسوا قرب أسرَّة صغارهم المُحتضَرين ولم يفعلوا شيئًا. وقد أخبر أحد الآباء مراسل المجلَّة كيف سهر مُصلّيًا وهو يراقب ابنه ذا الخمسة عشر شهرًا يصارع الحُمَّى طوال أسبوعين. وسبَّب له المرض الصَّمم أوَّلًا، ثُمَّ العمى. ولكنَّ قسّيس الكنيسة حثَّ الأب على مزيدٍ من الإيمان بعد، وأقنعه بعدم استدعاء طبيب. وفي اليوم التالي تُوفِّي الولد. وقد كشف التشريح أنّه مات من جرَّاء نوعٍ من التهاب السحايا علاجه سهل.

على العموم، لا يلوم أعضاء الكنيسة الإنديانيَّة الله على مصائبهم، أو على الأقلّ

لا يُقِرُّون بأنَّهم يفعلون ذلك. ولكنَّهم بدلًا من ذلك يلومون أنفسهم على ضعف إيمانهم. وفي تلك الأثناء، تتضاعف شواهد القبور.

لقد غادرتُ خدمة ذلك الأحد ولديَّ اقتناعٌ راسخ بأنَّ ما نفكِّر فيه ونؤمن به من جهة الله مهمٌّ– حقًّا مهمٌّ– شأنه شأن أيّ أمرٍ آخر في الحياة. ولئن لم يكُن أُولئك القوم جهلانًا ولا قَتَلة أطفال، فإنَّ بضع عشرات من أولادهم ماتوا بسبب خطإٍ لاهوتيّ، كما أعتقد. (في الواقع أنَّ تعليم كنيسة إنديانا لا يختلف كثيرًا عمّا أسمعه في كثيرٍ من الكنائس الإنجيليَّة، وعبر المحطّات التلفزيونيَّة والإذاعيَّة الدينيَّة، والفرق أنَّ أولئك إنّما يُطبِّقون وعود الإيمان القصوى بمنتهى الإخلاص).

فبسببٍ من أولئك القوم المُخلِصين في إنديانا، فضلًا عن المتسائلين الذين كاتبوني، قرَّرت أن أتصدّى لقضايا تُراوِدني إلى حدٍّ بعيد تجربةُ تجنُّبها. من هنا كان هذا الكتاب ذو الطابع اللاهوتيّ. فهو ليس كتابًا تِقنيًّا بأيَّة حال، بل كتابٌ عن طبيعة الله وأسباب تصرُّفه أحيانًا بطُرق مُحيِّرة، وعدم تصرُّفه أحيانًا أخرى.

لا نتجاسر على حصر البحث اللاهوتيّ في مقاهي مدارس اللاهوت، حيث يخوض الأساتذة والطلاّب جولات المنازلة الفكريَّة. فالمسائل اللاهوتيَّة تؤثّر فينا جميعًا. ومن الناس مَن يفقدون إيمانهم من جرّاء شعور حادّ بالخيبة من جهة الله. فهم يتوقَّعون من الله أن يتصرَّف بطريقة معيَّنة، وإذا به "يخذلهم". أمّا آخرون فربَّما لا يفقدون إيمانهم، ولكنَّهم يختبرون بدورهم شكلًا من أشكال الخيبة. إذ يؤمنون بأنَّ الله سيتدخَّل، ويُصلّون لأجل معجزة، فترتدُّ صلواتهم غيرَ مستجابة. وقد حصل ذلك على الأقلّ اثنتين وخمسين مرَّة، وحدث بالطريقة عينها في تلك الكنيسة الإنديانيَّة.

٢

كلُّ شيءٍ تلاشى

عصرَ ذاتِ نهار، رنَّ هاتفي، وعرَّف المُتَّصل نفسَه بأنَّه طالب لاهوت في كليَّة ويتُن العُليا، قائلًا: "اسمي رشيد. لم أُقابلك يومًا، ولكنّي أشعر بأنَّ بيني وبينك قرابة، بسبب بعض كتاباتك. ألديك دقيقة؟"

ثمَّ مضى رشيد يُحدِّثني عن حياته. فقد صار مسيحيًّا حقيقيًّا في أثناء دراسته الجامعيَّة، حيث صادقه أحدُ المؤمنين وعرَّفه بالإيمان. ولكنَّ رشيدًا لم يكد يتكلَّم كمؤمنٍ حديث. فمع أنَّه طلب توجيهاتي بشأن كُتب مسيحيَّة، تبيَّن لي أنه قد قرأ كلَّ كتابٍ ذكرته له. وجرت بيننا محادثة سارَّة تعدَّدت اتجاهاتها، إلاَّ أنَّني لم أعرف قصده الفعليَّ من الاتِّصال بي إلاَّ في نهاية المخابرة.

قال بعصبيَّة: "يشقُّ عليَّ أن أُزعجك بهذا الأمر. أعرف أنَّك ربَّما كنت مشغولًا، ولكنّي أودُّ أن أطلب منك معروفًا. لقد كتبتُ بحثًا حول سفر أيُّوب، وقال لي أُستاذي إنَّه ينبغي لي أن أكتب كتابًا نواتُه ذلك البحث. فهل من سبيل لإلقاء نظرة على البحث وإطْلاعي على رأيك فيه؟"

نزلتُ عند رغبته، ووصلني النص الأولي في غضون بضعة أيَّام. وفي الواقع أنَّني لم أتوقَّع بحثًا مميَّزًا. فالأبحاث التي يعدُّها الطلاَّب الجامعيُّون ليست مشوِّقة للقراءة غالبًا،

وقد شككتُ في أن يتمكّن شابٌ حديث العهد بالإيمان نسبيًا من الطلوع بتبصُّراتٍ جديدة حول سفر أيُوب المُثبِّط للهمَّة. غير أنّني كنتُ على خطأ. فقد كشفَ النص الأولي عن موهبة واعِدة حقًّا. وعلى مدى الأشهر القليلة التالية تناقشتُ مع رشيد عبر الهاتف والبريد عن إمكانية إعادةِ صياغة البحث ليصير كتابًا.

وبعد مضيِّ سنة، أكمل رشيد النص الأولي وحصل على عقدٍ مُوقَّع، فاتَّصل بي يسألني إنْ أمكن أنْ أكتب مقدِّمة لكتابه. ومع أنّني لم أكن قد قابلتُه بعد، فقد راقتني حماسته، وهو قد كتب كتابًا في وسعي أن أضع عليه ختم مصادقتي بلا تردُّد.

ثمَّ مرَّت ستَّة أشهرٍ خضع الكتاب في أثنائها للتنقيح والمراجعة بصورة نهائيَّة. ولكن قُبيلَ موعد النشر، اتَّصل بي رشيد مرَّةً أخرى بعد. وقد بدا صوتُه مختلفًا، إذ كان حادًّا وأجشًا. وقد أدهشني تجنُّبه الأسئلةَ المتعلِّقة بكتابه الوشيك، قائلًا: "ينبغي أن أراك يا فيليب. فثمَّة أمرٌ أشعر بأنّني مُلزَم أن أُطلِعك عليه، وينبغي أن يجري ذلك وجهًا لوجه. فهل يمكنك أن تستقبلني عصرَ أحد الأيّام من هذا الأُسبوع؟"

تدفَّقت أشعَّةٌ من الشمس حارَّةٌ وباهتة إلى داخل شقَّتي الواقعة في الطابق الثالث. كانت الأبواب مفتوحة والذباب يطنُّ داخلًا و خارجًا. وجلس رشيد على أريكة قبالتي، مرتديًا بنطلونًا قصيرًا وقميصًا (تي-شيرت)، ونُقاط العرق تبرق على جبهته. لقد ساق سيّارته ساعةً في زحام شيكاغو الخانق للقائي، وأوَّل كلّ شيء تجرَّع كأس شايٍ مثلَّج لعلَّه يبترد.

كان رشيد نحيفًا وصاحب جسمٍ رياضيٍّ منحوتٍ بتناسق. أمّا وجهه النحيل وشعره القصير فقد جعلاه يبدو أشبه براهبٍ تنتابه هواجسُ متعلِّقة بالله تنمُّ عنها ملامُحه الحادَّة المتوتِّرة. وإذا كانت لغة الجسد تتكلَّم، فإنَّ حركات جسمه بَدَت فصيحةً جدًّا: إذ كانت قبضتاه تنضمَّان وتنفرجان، ورجلاه السمراوان تتصالبان وتتباعدان،

وعضلات وجهه تَنشدُّ كثيرًا من جرّاء التوتُّر.

تحدَّث باقتضابٍ دون مقدِّمات، قائلًا: "من حقِّك أن تغضب عليَّ جدًّا. ولا ألومك أبدًا إن شعرتَ بأنَّك قد خُدِعت".

لم تكن لديَّ أدنى فكرة عن قصده. فسألت: "بشأنِ ماذا؟" "حسنًا إليك الحقيقة. إنَّ الكتاب الذي ساعدتَني فيه سوف يصدر الشهرَ التالي، وفيه مقدِّمتك. ولكنَّني بالحقيقة لم أعُد أُومن بما كتبتُه في ذلك الكتاب، وأرى أنّني مدينٌ لك بتفسير".

ثمَّ توقَّف هُنيهةً، ولاحت لي أخاديد التوتُّر على وجهه. وما لبث أنِ اندفع قائلًا: "إنّني أكره الله! لا، لستُ أعني ذلك. بل إنّني لا أُومِن به أيضًا".

لم أنبس ببنتِ شفة. وفي الواقع أنّني قلَّما تكلَّمتُ على مدى الساعات الثلاث التوالي فيما رشيد يُخبرني بقصَّته، مبتدئًا من انفصال أبويه. قال: "لقد بذلتُ كلَّ جهدي للحيلولة دون طلاقهما. كنتُ قد قبلتُ الإيمان المسيحيَّ حديثًا في الجامعة، وقد بلغت سذاجتي حدًّا جعلني أُصدِّق أنَّ الله يعنيه أمري. فأخذتُ أُصلِّي بلا انقطاع ليل نهار حتّى يعودا أحدُهما إلى الآخر. حتّى إنّني توقَّفتُ عن الدراسة مدَّةً و ذهبتُ إلى دياري محاولًا إنجاد عائلتي. وظننتُ أنّني أعمل بمشيئة الله، لكنَّني على ما أعتقد جعلتُ الوضعَ أردأ. وكان ذلك أوَّل اختبارٍ مُرٍّ لي مع الصلاة غير المستجابة.

"انتقلتُ إلى كليَّة ويتِن كي أتعلَّم المزيد عن الإيمان. وتصوَّرتُ أنّني لا بدَّ أنْ أكون قد ارتكبت خطأً ما. وفي ويتِن قابلتُ أشخاصًا يستخدمون عباراتٍ مثل: «تكلَّمتُ مع الله» و«قال لي الربّ». وكنتُ أحيانًا أتكلَّم على ذلك النحو أيضًا، غير أنَّ شعورًا بالذنب كان يَخزُني كلّ مرَّة. أحقًّا قال الربّ لي شيئًا ما؟ ما سمعتُ صوتًا قطّ، ولا كان لي أيّ بُرهانٍ على الله استطعتُ رؤيته أو لمسه. وعلى الرغم من ذلك كنتُ أتوق إلى ذلك النوع من القُرب.

"وكلَّما واجهتُ قرارًا حاسمًا، كنتُ أقرأ الكتاب المقدَّس وأُصلِّي ملتمسًا

الإرشاد، كما هو مُفترَض. ومتى شعرتُ بصحَّة قرارٍ ما، كنتُ أتصرَّف بمقتضى ذلك. غير أنَّني أُقسِم إنِّي بتُّ أتَّخذ القرار الخطأ كلَّ مرَّة. فحين أعتقد أنَّني فهمتُ مشيئة الله حقًّا، حينئذٍ كان الأمر يرتدُّ إلى نحري".

تناهى إلينا ضجيج الشارع، وكان في وسعي أن أسمع وقع أقدام الجيران وهم يصعدون أو ينزلون على الدرج. ولكنَّ تلك الأصوات لم تُلهِ رشيدًا. فظلَّ يتكلَّم، وأنا أُومئ برأسي موافقًا أحيانًا، مع أنِّي كنتُ ما أزال غيرَ فاهمٍ سبب هجومه المباغت على الله بشكلٍ عنيفٍ تقريبًا. ذلك أنَّ عائلاتٍ كثيرة تنهار، وصلواتٍ كثيرة لا تُستجاب. فماذا كان المصدر الحقيقيّ لسخطه المُتأجِّج؟

أخبرني تاليًا عن فرصةِ عمل أفلتت من يده، حيث نكث ربُّ العمل بوعدٍ قطعه له ووظَّف شخصًا أدنى أهليَّةً، ممَّا حرمه فرصة الوفاء بديونٍ تراكمت عليه للكليَّة وأبقاه بغير مصدرٍ للدخل. في ذلك الحين تقريبًا نبذته خطيبته، فقطعت الاتِّصال به دون إنذار، رافضةً تقديم أيِّ تفسير لتحوُّل عاطفتها المفاجئ. وكانت خطيبته شيرين قد أدَّت دورًا أساسيًّا في نموِّه الروحيّ. فإذ تركته، أحسَّ بشيءٍ من إيمانه يُفارِقه أيضًا. وكانا كثيرًا ما صلَّيا معًا لأجل مستقبلهما، فإذا بتلك الصلوات آنذاك تبدو أشبه بنكاتٍ سمجة.

كذلك أُصيب رشيد أيضًا بجملةٍ من المشاكل الصحِّيَّة، لم تؤدِّ إلاَّ إلى مضاعفة شعوره باليأس والبؤس. وإذا بجراح الرفض التي عاناها حين انفصل أبواه تنفتح ثانيةً على ما يبدو. فهل كان الله يُماطِله ويخدعه، شأنه شأن شيرين؟ إذ ذاك قصد قسِّيسًا، ملتمسًا النُّصح. وقد شعر شعورَ إنسانٍ يغرق، كما قال. أراد أن يثق بالله، ولكنَّه كلَّما مدَّ يده حصد الريح. فلماذا ينبغي له أن يظلَّ مؤمنًا بإلهٍ غير معنيٍّ بمصلحته على ذلك النَّحو الواضح؟

لم يكدِ القسِّيس يُبدي أيَّ تعاطُفٍ، وأحسَّ رشيد بشكلٍ جليٍّ أنَّ شكاويه لم ترقَ إلى مستوى زبائنِ الرجل المألوفين من ذوي الزيجات المنهارة ومرضى السرطان والمدمنين وآباء الأولاد المتمرِّدين وأُمهاتهم. وقد قال له القسِّيس بابتسامةٍ مستعلية:

"عندما يصلح الأمر بينك وبين خطيبتك، يصلح أمرك مع الله أيضًا".

ففي نظر رشيد، لم تكن المشاكل يسيرة ولا بسيطة. إنَّه لم يستطع أن يفهم كيف يمكن أن يدعه أبٌ سماويٌّ محبٌّ يعاني مثل تلك الخيبة المرَّة. فما من أبٍ أرضيٍّ يعامل ابنه مثل تلك المعاملة. وقد ظلَّ يذهب إلى الكنيسة، ولكنْ بدأت تتكوَّن في داخله غصَّةُ سخريةٍ قاسيةٌ على شكل ورم من الشكّ. فالمفاهيم اللاهوتيَّة التي تعلَّمها في الكلِّيَّة وكتب عنها في كتابه لم تعُد مُفيدةً في نظره.

وقد قال لي رشيد: "أمرٌ غريب! ولكنْ كلَّما تضاعف الغضب الذي صببتُه على الله، تضاعفت الطاقة التي بدا أنَّني أكتسبُها. لقد أدركتُ أنَّني على مدى بضعة الأعوام الأخيرة انكمشتُ داخل ذاتي. والآن، إذ بدأتُ أشكّ، بل أيضًا أُبغض الكليَّة والمؤمنين الآخرين حواليَّ، شعرتُ بنفسي أعود إلى الحياة من جديد".

ولكنْ ذاتَ مساء جاءتِ القشَّة التي قصمت ظهر البعير. فقد حضر رشيد خدمةً مسائيَّة في أحد أيام الآحاد، حيث استمع إلى الشهادات الشخصيَّة المعتادة والتسابيح، إلاَّ أنَّ خبرًا واحدًا على الخصوص أثار حفيظته. ففي وقتٍ سابقٍ من ذلك الأُسبوع كانت قد تحطَّمت طائرة تحمل تسعة مرسلين في خلاء ألاسكا فقُتل كلُّ مَن كان على متنها. وقد حكى القسِّيس التفاصيل بمهابة، ثمَّ عرَّف الحضور بعضوٍ من كنيسة أُخرى كان قد نجا من حادث تحطُّم طائرةٍ آخر في الأُسبوع عينه. ولمَّا انتهى ذلك العُضو من وصف نجاته بأُعجوبة، استجاب الجمهور قائلين: "حمدًا للرّب!"

وصلَّى القسِّيس قائلاً: "يا ربّ، نشكرك على إيصال أخينا بالسلامة وعلى حراسة ملائكتك له. ونرجو منك أن تكون مع عائلات أُولئك الذين ماتوا في ألاسكا".

فأثارت تلك الصلاة اشمئزاز رشيد، مُسبِّبةً له ما يُشبه الغثيان، وفكَّر: لا يمكن أن تمسك العصا من كِلا الطرفَين. فإذا تلقَّى الله الحمد على سلامة الناجي، فينبغي أيضًا أن يُلام على سقوط الضحايا. غير أنَّ الكنائس لا تستمع أبدًا إلى شهاداتٍ يُقدِّمها المفجوعون. ماذا تقول زوجات المُرسَلين المُتوفَّين؟ هل يتحدَّثن عن "أبٍ مُحِبّ"؟

ثمَّ عاد رشيد إلى شقَّته مضطربًا جدًّا. وقد كان كلُّ شيءٍ يصبُّ في خانةٍ واحدة: "هلِ الله موجودٌ حقًّا؟" فهو لم يرَ بيِّناتٍ مُقنِعة.

عند تلك النُّقطة، قطع رشيد حكايته. وكانتِ الشمس قد توارت وراء مبنًى كبير في الناحية الغربيَّة، مُخفِّفةً قليلًا من ظِلال الغرفة وأشعَّة الضياء. فأغمض رشيد عينيه وعضعض شفته السُّفلى، وضغط بإبهامَيه على عينيه ضغطًا شديدًا. وبدا أنَّه يحاول تكوين صورة ذهنيَّة ويجهد أن يجعلها صحيحة.

سألتُه: "ماذا جرى تاليًا؟ أكانت تلك هي الليلة التي فقدتَ فيها إيمانك؟" وكانت قد مرَّت بضع دقائق صامتة.

فأومأ برأسه، واستأنف الكلام، إنَّما بلهجةٍ أخفَّ حدَّة: "ظللتُ ساهرًا إلى وقتٍ متأخِّر تلك الليلة، بعد وقت طويل من إخلاد جيراني إلى النَّوم- أنا أسكن في شارع هادئ بالضواحي- وبدا لي كما لو كنتُ وحيدًا في العالم. وشعرتُ بأنَّ أمرًا مهمًّا يوشك أن يحدث. لقد كنتُ مُتألِّمًا. فمرارًا وتكرارًا خذلني الله. أبغضتُ الله، ومع ذلك كنتُ خائفًا أيضًا. كنتُ طالب لاهوت، صحيح! ربَّما كان الله موجودًا، ونظرتي إلى الأُمور خاطئة. كيف يمكن أن أعلم؟ ثُمَّ راجعتُ اختباري المسيحيَّ كلَّه، من أوَّل الطريق تمامًا.

"تذكَّرتُ أوَّل بارقة إيمان لمَّا كنتُ في الجامعة. آنذاك كنتُ صغير السنِّ ومنكشفًا. ولعلِّي كنتُ قد تعلَّمتُ بعض العبارات المتفائلة وأقنعتُ نفسي بأن أُومن «بحياةٍ فيَّاضة». وربَّما كنتُ أُقلِّد الآخرين وأسعى لأن أعيش اختباراتهم. فهل ضلَّلتُ نفسي بشأن الله؟

"إلاَّ أنَّني تردَّدتُ في التخلِّي عن كلِّ ما آمنتُ به. وقد شعرتُ بأنَّ عليَّ أن أُتيح لله فرصةً أخيرة بعد.

"صلَّيتُ تلك الليلة بحرارةٍ وإخلاص حسب معرفتي. صلَّيتُ جاثيًا على

ركبتيَّ، وصلَّيتُ منبطحًا على الأرضيَّة المُغشَّاة بخشب السنديان. قلتُ: «اللهمَّ! هل يعنيك أمري حقًّا؟ لا أُريد أن أقول لك كيف تُدير عالمك، ولكنْ رجاءً أعطني علامةً ما على أنَّك موجود فعلًا! هذا هو كلُّ ما أسأله».

"مضت أربع سنين وأنا أُجاهد في سبيل «علاقة شخصيَّة بالله»، كما درج القول. ومع ذلك عاملني الله أسوأ من معاملته أيَّ واحد من أصدقائي. آنذاك تقلَّص كلُّ شيء إلى سؤال أخير واحد: كيف يمكنك أن تُقيم علاقة شخصيَّة إذا لم تكن متيقِّنًا بمجرَّد وجود الشخص الآخر؟ وفي ما خصَّ الله، لم يتأتَّ لي التيقُّن قطّ".

"صلَّيتُ نحو أربع ساعات. وقد شعرتُ تارةً بأنَّني مُغفَّل، وتارةً بأنَّني مُخلِصٌ تمامًا. وراودني إحساسُ القفز من على حافةٍ إلى قلب الظلام بغير أن تكون لي أدنى فكرة عن مكان هبوطي المحتمَل. فإنَّ ذلك كان بيد الله".

"أخيرًا، الساعةَ الرابعة صباحًا، عدتُ إلى رشدي. لم يكُن أيُّ شيء قد حدث، ولم يُجاوبني الله. فلماذا أستمرُّ في تعذيب نفسي؟ لماذا لا أنسى الله فحسبُ وأُتابع حياتي، شأني شأن معظم الناس؟"

"وفي الحال شعرتُ بإحساسِ انفراجٍ وتحرُّر، كما لو كنتُ قد نجحتُ توًّا في امتحانٍ نهائيّ، أو نلتُ إجازةً في قيادة السيَّارات. لقدِ انتهى الصِّراع، وعادت حياتي ملكَ يدي".

"يبدو لي الأمر الآن سخيفًا، ولكن إليك ما فعلتُه تاليًا. فقد التقطتُ كتابي المقدَّس وكتابين مسيحيَّين آخرين وهبطتُ الدرج خارجًا إلى الفِناء الخلفيّ، حيث أغلقت الباب ورائي بهدوء لئلاّ أُوقظ أحدًا. وكان في الفِناء كانونٌ للشواء، فكدَّستُ الكُتب فوقه، ورششتُ عليها شيئًا من سائل الإشعال، وأضرمتُها بعود ثقاب. كانت ليلة غاب فيها القمر، فتراقصت ألسنة اللهب عاليةً ومُتأجِّجة. وإذا بآيات الكتاب المقدَّس وشذرات اللاهوت تنفتل وتسودُّ ثُمَّ تتحلَّل كُتلًا من الرماد يتهادى بعضُها نحو العلاء. وقد كان إيماني يتصاعد معها.

"صعدتُ إلى شقّتي مرّةً أخرى، وأنزلتُ للمرّة الثانيةِ ملءَ ذراعيَّ كُتبًا. وقد فعلتُ ذلك نحو ثماني مرّات في أثناء الساعة التالية. فإذا بكتب التفسير وكتب الدراسة اللاهوتيّة، ومسوّدة كتابي عن أيّوب، تتلاشى كلُّها مع الدُّخان. وربّما كان من شأني أن أحرق كلَّ كتابٍ في حوزتي لو لم يُقاطِعني رجُل إطفاء غاضب يرتدي مُشمَّع مطر أصفر ركض نحوي صائحًا: "ماذا تحسب نفسك فاعلًا؟" فإنَّ أحدهم كان قد اتّصل بدائرة الإطفاء منبّهًا. وحاولتُ مرتبكًا التماس عذرٍ ما، حتّى قلتُ له أخيرًا إنّني كنت أُحرِق بعض القُمامة فحسب.

"بعدما بخَّ الإطفائيُّ مادّة كيماويّة على مشعلتي وهال عليها بعض التُّراب، أطلق سراحي. فصعدتُ الدرج واندسَستُ في سريري ورائحة الدُّخان تفوح منّي. كان الفجر قد بزغ آنذاك، وأخيرًا شعرتُ بالسلام. فإنَّ حِملًا ثقيلًا انزاح عن كاهلي. وقد كنتُ صادقًا مع نفسي، بعدما تخلّصتُ من كلِّ تظاهُر، ولم أعُد أُحِسُّ بالضغط الذي يَضطرُّني إلى الإيمان بما لم أستطع قطُّ أن أتحقّق منه. لقد شعرتُ بالتحوُّل... غير أنّه كان تحوُّلًا عن الله".

أنا مسرور لأنّني لا أكسب عيشي كمرشد محترف. فعندما أجلس مقابل شخص مثل رشيد يُفضي إليَّ بدخيلة نفسه، لا أدري أبدًا ما أقول. وعصرَ ذلك النهار، لم أتكلّم كثيرًا. وربّما كان ذلك هو الأفضل. فما كان من المفيد أن أنتقد "الامتحانات" التي ابتكرها رشيد لله.

وقد كان رشيد قلقًا بصورة خاصّة من جهة كتابه عن أيّوب، ما دام سيصدر خلال الأسابيع القليلة التالية. وقال إنَّ الناشر علم بتغيير فكره، ولكنَّ الطبعة الأُولى باتت في طور الطباعة. فطمأنتهُ إلى أنَّ مصادقتي على الكتاب ما تزال سارية. ذلك أنّي صادقت على مضمون الكتاب، أكثر من مصادقتي على صلته الشخصيّة به. وقلتُ له:

"ثُمَّ إنّني بكلِّ يقين قد غيرتُ رأيي بشأن بعض الأُمور التي كتبتُها في السنين العشر الأخيرة".

كان رشيد مُنهَكًا بعدما تكلّم طويلًا، ولكنّه بدا أكثرَ ارتياحًا لمّا نهض لينصرف. وقال: "ربّما بدأت جميع مشاكلي بدراستي لسِفر أيّوب. فقد كان أيّوب يروقني، إذ لم يخشَ أن يكون صادقًا تجاه الله. لقد واجه الله بحدّة. ولكنّي أعتقد أنَّ الفرق بيننا كامنٌ في ما حصل في آخرِ المطاف. فقد تراءى الله لأيّوب، بعد كلِّ معاناته. إلاَّ أنّه لم يتراءَ لي".

آنذاك أضاءت خليّة كهرضوئيّة أنوار الدرج، بعدما كان الغسق قد حلّ. وإذ صافحني رشيد مودّعًا وتوارى نازلًا الدرج، استبدَّ بي الحزن الشديد. لقد كان شابًّا أسمر مُعافى. ومن شأنِ بعضهم أن يقولوا إنّه لا سبب وجيهًا يدفعه إلى اليأس. ولكنّني إذ أصغيتُ إليه، وراقبتُ قبضتَي يدَيه وأخاديد التوتُّر على وجنتيه، أدركتُ أخيرًا مصدر غيظه.

لقد كان رشيد يشعر بألم مُبرِّح كأيِّ ألم يعانيه كائنٌ بشري: ألم الخيانة... ألم حبيبٍ يستيقظ فيُدرك فجأةً أنَّ كلَّ شيءٍ قد انتهى. فهو وضع حياته بيد الله، ولكنَّ الله خذله.

٣

الأسئلةُ التي لا يطرحها أحدٌ جهرًا

إنَّ الأسئلة الأهمّ، تلك التي تهيم في جوٍّ من الغموض مدَّةً طويلة من حياتنا، قد تتبلور أحيانًا في لحظة واحدة. وقد وفَّرت لي زيارة رشيد مثل هذه اللحظة. صحيحٌ أنَّ شكاويه لا تكاد تُحسَب في عداد خيبات الأمل الكُبرى، إذ لم تتعدَّ انهيار الأُسرة والمشكلات الصحّية وهجران الحبيبة وفقدان الوظيفة، ولكنَّ تلك الليلة التي قضاها بقرب كانون الشواء- بحسميَّة مسرحيَّة - أضرمتِ الشكوك التي تؤرِّق مُعظمَنا. أيهمُّ الله أمرُنا حقًّا؟ إن كان نعم، فلماذا لا يتنازل إلينا ويُصلح الأُمور التي تسوء، أو بعضَها على الأقلّ؟

إذِ استولى على رشيد غضبُه وألَمُه، لم يُصغِ إلى شكوكه بطريقة منهجيَّة، بل اختبرهَا كمشاعر خيانة وخذلان أكثر منها كمسائل إيمان. ولكنَّني إذ تأمَّلتُ محادثتنا، ما برحتُ أرجع إلى ثلاثة أسئلة كبرى بشأن الله بدا أنَّها كامنةٌ تمامًا وراء دغل مشاعره. وكلَّما أمعنتُ النظر في هذه الأسئلة، ازداد يقيني بأنَّها تستقرُّ في مكانٍ ما داخلَنا جميعًا. ومع ذلك فإنَّ قليلين من الناس يطرحونها جهرًا، لأنَّها تبدو قلَّةَ أدب في أحسن الأحوال وهرطقةً في أسواها.

هل الله ظالم؟ حاول رشيد أن يتبع الله، ولكنَّ حياته انهارت على كلِّ حال. فلم يستطع أن يوفِّق بين بلاياه ووعود الكتاب المقدَّس بالثواب والسعادة. وما القول في

أُولئك الذين ينكرون الله علانيةً ومع ذلك ينجحون ويُفلِحون؟ هذه شَكاةٌ قديمةٌ قِدَم أيُّوب والمزامير، ولكنَّها تبقى حجر عثرة في سبيل الإيمان.

هلِ الله صامت؟ توسَّل رشيد إلى الله ثلاث مرَّات طالبًا إرشاده الواضح، وذلك حين واجه قرارات حاسمةً تتعلَّق بدراسته ومهنته وحياته العاطفيَّة. وقد حسب كلَّ مرَّة أنَّه أُوتي تصوُّرًا لمشيئة الله، ليتبيّن فقط أنَّ خِياره آلَ إلى الفشل. وقد سأل رشيد: "أيّ أبٍ هو؟ أيستمتع برؤيتي أسقط على وجهي؟ لقد قيل لي إنَّ الله يحبُّني وإنَّ لديه خطَّةً رائعة لحياتي. حسنًا! إذًا لماذا لا يقول لي ما هي تلك الخطَّة؟"

هلِ الله مُختبئ؟ هذا السؤال، قبل سواه، كان هاجسَ رشيد. وقد بدا له أمرٌ أنَّ على الله إثباتَ ذاته بطريقةٍ من الطُرق، نهايةٌ صُغرى لا يمكن تقليصُها، أو نُقطةٌ لاهوتيَّة جوهريَّة. "كيف يمكنني إنشاءُ علاقةٍ بشخص لست متيقّنًا بمجرَّد وجوده؟" إلاَّ أنَّه بدا أنَّ الله يختبئ عمدًا حتَّى عنِ الأشخاص الذين يبحثون عنه. ولمَّا لم تؤتَ صلاةُ رشيد وسهرُه حتَّى وقتٍ متأخِّر من الليل أيَّةَ استجابة، ما كان منه إلاَّ أن أشاح بوجهه عنِ الله.

كثيرًا ما فكَّرتُ في هذه الأسئلة في أثناء مهمَّة كتابيَّة بأميركا الجنوبيَّة. ففي بيرو، أقلَّني مُرسَل طيّار إلى قرية صغيرة من قرى هُنود شِيبيبو. وقد هبط بالطائرة العوَّامة، ودرج بها إلى ضفَّة النهر، ثمَّ اصطحبني على دربٍ وسط الأدغال إلى "الشارع الرئيسيّ" في البلدة، وكان طريقًا ترابيًا يحفُّ به اثنا عشر كوخًا مبنيَّةً على ركائز ومسقوفة بسعف النخيل. وكان سبب أخذي إلى هناك إطلاعي على أحوال كنيسة مزدهرة عمرُها أربعون سنة. ولكنَّ دليلي أراني أيضًا شاهدةً من غرانيت إلى جانب الطريق الرئيسيّ، وأخبرني بقصَّة المُرسَل الشابِّ الذي أسهم في تأسيس الكنيسة.

بعد نوبةٍ مفاجئة من التقيُّؤ والإسهال، تُوفِّي ابنُ المرسل ذو الستَّة أشهر، فبدا أنَّ ذلك المرسل الشابَّ أخذ ينهار. وقدِ اقتطع بيده شاهدةً من الصخر المحلِّيّ، هي تلك الشاهدة التي كنَّا ننظر إليها، ودفن جثَّة الولد، وغرس شجرةً قرب قبره. وعند اشتداد

الحرّ كلَّ نهار حين يطلب سائر الناس الظلّ، كان المرسل يمشي إلى النهر ويُحضِر جرَّة ماء لأجل الشجرة، ثُمَّ يقف على مقربة من القبر، وظلُّه يترامى فوقه، كما لو كان يحميه من حرارة الشمس الاستوائيَّة اللاهبة. وقد حاولت زوجتُه وأعضاء الكنيسة الهنود والمرسلون الآخرون أن يُعَزُّوه، ولكنَّهم عبثًا فعلوا.

وأخيرًا مرض المُرسَل نفسُه. وقد خُولِط في عقله، وعانى إسهالًا مستمرًّا. فأُقِلَّ بالطائرة إلى ليما، حيث فحصه الأطبّاء بحثًا عن أيَّة علامة على وجود أميبا أو غيرها من المسببات المرضية المحتملة في المناطق الاستوائية، ولكنَّهم لم يجدوا شيئًا. ولم ينفع أيُّ دواء استعملوه. فشخَّصوا مشكلته على أنَّها "إسهال هستيريّ" وأعادوه مع زوجته إلى الولايات المتَّحدة.

فيما وقفتُ بقرب شاهدة الغرانيت المُفتَّتة، وقد باتت النِّسوة يستعملنها مسندًا لجرارهنَّ، حاولتُ وضع نفسي مكان ذلك المرسل الشابّ. وتساءلتُ عمَّا صلاَّه وهو واقفٌ هناك تحت شمس الظهيرة، في حين ظلَّت أسئلة رشيد الثلاثة تخطر في بالي. وقد قال دليلي إنَّ ذلك المُرسَل عانى العذاب من جرّاء مسألة الظُّلم والإجحاف. فابنُه لم يرتكب أيَّ خطأ، وهو أتى بعائلته لخدمة الله في الأدغال... أكان ذلك ثوابه؟ وقد صلَّى أيضًا ملتمسًا علامةً ما على حضور الله، أو على الأقلّ كلمة عزاء، غير أنَّه لم يلمس شيئًا. وكمنِ ارتاب في عطف الله بالذات، ابتُلِيَ بنوعٍ من المُعاناة الوديَّة في جسمه.

في اعتقادي أنَّ المُلحِدين الحقيقيّين لا يشعرون بخيبة الأمل بالله. فهم لا يرجون شيئًا، ولا ينالون شيئًا. غير أن أولئك الذين يسلِّمون حياتهم لله، مهما كان، يتوقَّعون شيئًا في المقابل توقُّعًا فطريًّا. فهل تلك التوقُّعات خاطئة؟

مضت مدَّة طويلة لم أرَ صديقي رشيدًا في أثنائها. كنتُ أُصلّي لأجله بانتظام، ولكنَّ جميع محاولاتي للاتصال به باءت بالفشل. فهاتفه مقطوع، وسمعتُ أنه انتقل

من المنطقة. أخيرًا أرسل إليّ ناشرُه نسخةً من كتابه عن أيُّوب، وها هو مستقرٌّ على الرفّ عندي كتحذيرٍ فعّال من التسرُّع في الكتابة عن قضايا الإيمان.

ثمّ ذاتَ يوم، بعد نحو ثلاث سنين، التقيتُ رشيدًا مصادفةً في قلب مدينة شيكاغو. وقد بدا أحسن منظرًا، إذ زاد وزنُه قليلًا، وأطال شعره بعض الشيء، وفارقته سيماءُ الارتياب والقسوة. وأظهر سروره لرؤيتي، ورتّبنا أن نلتقي على غداء.

وبعد بضعة أيّام، قال لي مبتسمًا إذ وافاني إلى مطعم مكسيكي: "لمّا قابلتُك آخِر مرّة، كنتُ في هوّة سحيقة كما أعتقد. فالحياة الآن تُعامِلني معاملة أحسنَ كثيرًا." لقد وُفِّق إلى وظيفة واعدة، ورمى قصّة حبّه الفاشلة خلف ظهره من مدّة طويلة.

وما لبث حديثُنا أن تطرّق إلى الله، فتبيّن سريعًا أنّ رشيدًا لم تُرَدّ نفسُه بشكل كليّ. إذ إنّ قشرةً صفيقة من السخرية المرّة باتت تُغطّي جراحه، ولكنّه كان غاضبًا على الله كحاله دائمًا.

صبّت النادلة فنجان قهوة جديدًا، وطوّق رشيدُ الفنجان بكِلتا يدَيه، محدّقًا إلى السائل القاتم المُبخّر. ثمّ قال: "لقد اكتسبتُ منظورًا معيّنًا إلى تلك الفترة الحَرِجة. أعتقد أنّني كوّنتُ تصوّرًا عنِ الخطب الذي جرى لي. ففي وسعي أن أذكر لك تمامًا بالساعة والدقيقة متى بدأتُ أشكُّ بالله ولم يكن ذلك في وِيتُن، ولا في غُرفتي ليلةَ سهرتُ مُصلّيًا". ثمّ روى حادثةً جرت في أوائل حياته المسيحيّة.

"لقد أزعجني أمرٌ واحد من أوّل الطريق: مفهومُ الإيمان. فهو بدا ثقبًا أسود يمكن أن يلتهم أيّ سؤال صادق. إذ كنتُ أسأل مُرشِد الشبيبة عن مشكلة الألم، فيتدفّق بكلام عن الإيمان، كأنْ يقول: «آمِن بالله سواءٌ كنتَ تميل إلى ذلك أم لا، فالمشاعر تتبعُ حتمًا». وقد تظاهرتُ بالإيمان، ولكنّني أستطيع الآن أن أرى أنّ المشاعر لم تَتبَعْ قطّ. فأنا إنّما كنتُ أُمثّل تمثيلًا.

"حتّى في ذلك الوقت الباكر، كنتُ ألتمس دليلًا قويًّا على الله بديلًا عن الإيمان. وقد عثرتُ عليه ذات يوم. على شاشة التلفزيون، من بين جميع الأماكن!

إذ كنتُ أستعرض القنوات كيفما اتّفق، صادفتُ خدمة شفاء جَماعيّة تُجريها كاثرين كُولمَن. وعكفتُ على المشاهدة بضعَ دقائق، فيما كانت تُحضِر أشخاصًا مختلفين إلى المسرح وتُقابِلهم. وقد حكى كلٌّ منهم قصّةً مذهلة عن شفاءٍ خارق، من السرطان أو أمراض القلب أو الشلل، حتّى بدا الأمر أشبه بموسوعة طبّيّة فوق المسرح.

"بينما كنتُ أُشاهد برنامج كُولمن، تلاشت شكوكي تدريجيًّا. لقد وجدتُ أخيرًا أمرًا حقيقيًّا وملموسًا. ثمّ طلبَتْ كولمن من أحد المنشدين ترتيل ترنيمتها المفضّلة «قد لمسني». ذلك هو ما كنتُ أحتاج إليه كما تخيّلتُ: لمسةٌ من الله، لمسة شخصيّة منه. وكاثرين مدّت يدها بذلك الوعد، فاندفعتُ أنا للإمساك به".

"بعد ذلك بثلاثة أسابيع، قدمت كاثرين كولمن إلى ولاية مُجاورة، فتغيّبتُ عنِ الكلّيّة وسافرتُ نصفَ نهار لحضور أحد اجتماعاتها. وقد كان الجوُّ مشحونًا بالتأثير على نحوٍ لا يُصدَّق: موسيقى أُرغن خفيفة في الخلفيّة، وهمهمةُ أُناسٍ يُصلّون بصوتٍ عالٍ وبعضُهم بلسانٍ غريب، ومقاطعةٌ مُبهِجة كلَّ بضع دقائق إذ يقف شخصٌ ما ويهتف: «قد شُفيت!»

"وقد أثّر فيّ تأثيرًا خاصًّا رجلٌ من ميلووكي جيء به على نقّالة إلى الاجتماع. فلمّا مشى - نعم مشى - على المسرح، هتفنا جميعًا بحماسة مُفرطة. قال لنا إنّه طبيب، الأمرُ الذي ضاعف تأثّري كثيرًا. وقال إنّه كان مصابًا بسرطانٍ رئويٍّ عُضال، وحُدِّد أجَلُه بستّة أشهرٍ فقط. ولكنّه الآن، في هذه الليلة، آمن بأنّ الله قد شفاه. وها هو يمشي أوّلَ مرّة منذ أشهر، شاعرًا بأنّه في أحسن حال. حمدًا لله!

"دوّنتُ اسم الرجل، وخرجتُ من الاجتماع وقدماي لا تكادان تُلامِسان الأرض. لم يسبق لي أن شهدت يقين إيمانٍ من هذا القبيل. لقد أنهيتُ مسيرة بحثي، إذ رأيتُ البرهان على إله حيّ في أولئك القوم على المسرح. وما دام يستطيع أن يعمل فيهم عجائب ملموسة، فإنّ لديه بكلّ يقين شيئًا عجيبًا لي.

"أردتُ الاتّصال برجُل الإيمان الذي شاهدتُه في الاجتماع. وقد دفعتني

رغبتي هذه، بعد أُسبوع واحد تمامًا، إلى الاتِّصال بقسم ميلووكي للحصول على رقم الطبيب. ولمَّا طلبتُ الرقم، تناهى إلى مسمعي صوتٌ أُنثويّ. فقلت: «رجاءً، أودُّ مخابرة الدكتور سين».

"وبعد صمتٍ طويل، سألتني المُجيبة أخيرًا: «مَن أنت؟» فتصوَّرتُ أنَّها تُرتِّب اتِّصالات المرضى، أو تُدقِّق في أمرٍ ما. ثمَّ ذكرتُ اسمي وقلتُ لها إنَّني مُعجَب بالدكتور سين، وما برحتُ راغبًا في محادثته منذ اجتماع كاثرين كُولن، وتأثَّرتُ جدًّا بشهادته.

"ثمَّ كان صمتٌ طويلٌ آخر. وبعدئذٍ تكلَّمتْ بصوتٍ مُفلطَح، ناطقةً كلَّ كلمة نطقًا بطيئًا «إنَّ... زوجي... قد... مات!» تلك الجملة الوحيدة فقط، ولا شيء أكثر، ثمَّ أقفلتِ الخطّ.

"لا يسعني أن أقول لك كيف دمَّرني ذلك. فقد طار صوابي، ودلفتُ إلى الغرفة التالية شبهَ مُترنِّح، حيث كانت أُختي جالسة. فسألتني: «رشيد، ما خطبُك؟ أأنت بخير؟»

"كلاَّ! لم أكُن بخير. ولكنَّني لم أستطع الإفصاح عن الأمر، بل رحتُ أبكي. وحاولَت أُمِّي وأُختي أن تنتزعا منِّي شيئًا من التفسير. ولكنْ ماذا أقول لهما؟ فبالنسبة إليَّ، تلاشى اليقين الذي رهنتُ حياتي به مع تلك المخابرة الهاتفيَّة. إنَّ لسان لهيبٍ قد توهَّج أُسبوعًا مشرقًا واحدًا ثمَّ خمد وخبا كنجم هوى!"

حدَّق رشيد في فنجان قهوته، وقد بدت موسيقى «الماريمبا» التي تُعزَف في الخلفيَّة زائفة وصاخبة. وقلتُ: "لستُ أفهم تمامًا. هل حدث ذلك قبل زمن طويل من التحاقك بوِيتُن وحيازتك شهادةً في علم اللاهوت وكتابتك كتابًا...؟"

فقاطعني: "نعم، ولكنَّ الأمر كلَّه في ذلك الماضي البعيد. فكلُّ ما حصل لاحقًا- وِيتُن والكتاب عن أيُّوب وحلقات درس الكتاب المقدَّس- كان محاولة يائسة لإثبات خطإ ما كان ينبغي أن أفهمه من تلك المخابرة عينها. لا أحد موجود، يا فيليب. وإن كان الله موجودًا على وجه الاحتمال، فهو يعبث معنا. فلماذا لا يكفُّ عن ألاعيبه ويُظهِر ذاته؟"

وما لبث رشيد أن غيَّر موضوع الحديث، فقضينا باقي وقت الغداء مُستعرِضَين أحوال السنين الثلاث الأخيرة. وظلَّ رشيد يُصِرُّ على أنَّه سعيد. لعلَّه كان يُبدي اعتراضًا بالغ القوَّة، ولكنَّه بدا بالفعل أكثر سرورًا.

وقُبيلَ الختام، فيما كنَّا نتناول كأسَين من البوظة، تطرَّق إلى لقائنا الأخير. "لا بدَّ أنَّك حسبتني شبه مجنون، إذ قبعتُ هناك وبُحتُ لك بكامل قصَّة حياتي مع أنِّي لم أُقابلك قبلًا قطّ".

فقلتُ: "لا، إطلاقًا. فبطريقة غريبة، لم أتمكَّن من طرد ذلك الحديث من ذهني. وفي الواقع أنَّ شكاويك على الله ساعدتني على فهم شكاويَّ فهمًا أفضل".

ثُمَّ أطلعتُ رشيدًا على الأسئلة الثلاثة. وبعدما شرحتُها، سألته هل تُلخِّص شكاويَه على الله، فقال:

"حسنًا، إنَّ شكِّي كان أكثر من مجرَّد شعور. فقد شعرتُ بأنَّني مخدوع، وكأنَّ الله إنَّما سايرني حتَّى يُراقِبني أسقط. ولكنَّك على حقّ، فإذ أُفكِّر في الأمر أرى أنَّ تلك الأسئلة كانت كامنة وراء مشاعري. لقد كان الله ظالمًا على نحو مؤكَّد. وقد تبيَّن لي أنَّه مُحتجِب وصامتٌ دائمًا. نعم، هذا هو الواقع. إنَّه هو تمامًا!"

وبعدما رفع رشيد صوته وأخذ يُلوِّح بيدَيه كما يفعل السياسيُّ، أوِ المبشِّر (ومن الخير أنَّ المطعم كان قد فرغ) قال: "عجبًا! لماذا لا يُجيب الله عن هذه الأسئلة؟ حبَّذا لو يُجيب عن هذه الأسئلة... حبَّذا لو يُجيب عن واحدٍ منها. فلو أنَّه مثلًا تكلَّم مرَّة واحدة جهرًا بحيث يمكن أن أسمعه، لكنتُ أُومِن عندئذٍ. بل ربَّما آمن العالَم كلُّه إذ ذاك. فلماذا لا يفعل ذلك؟"

٤

ماذا لَو؟

"حبّذا لو!" هكذا قال رشيد. فلو أنّ الله حلّ هذه المسائل الثلاث، لازدهر الإيمان كزهر الربيع. أليس كذلك؟

سنةَ لقائي رشيدًا في المطعم المكسيكيّ، اتّفق أنّي كنتُ أدرس سفرَي الخروج والعدد. ولئن كانت أسئلة رشيد ما تزال تطنّ في رأسي، فقد مضت مدّةٌ لا بأس بها قبل أن أُلاحِظ توازيًا عجيبًا. ثُمّ ذات يومٍ برز الأمر جليًّا من على الصفحات: أنّ سفر الخروج يصف العالَم الذي أراده رشيد بعينه! فهو يُبيِّن تدخُّل الله في التاريخ البشريّ كلّ يوم تقريبًا، حيث تصرَّف بمنتهى العدل وتكلّم على نحوٍ يُتيح لكلّ إنسان أن يسمع. مهلًا! بل إنّه جعل ذاته مرئيًّا أيضًا!

والمُفارقة بين أيّام بني إسرائيل قديمًا وأيّامنا الحاضرة، في غرّة القرن الحادي والعشرين، حملتني على التفكير في كيفيّة إدارة الله للعالم، ومن ثَمّ عدتُ إلى الأسئلة الثلاثة. فإن كانت لله القدرةُ على أن يتصرَّف بعدل، ويتكلّم بصوت مسموع، ويظهر بصورة منظورة، فلماذا إذًا يبدو متباطئًا جدًا في التدخُّل اليوم؟ لعلّ لنا في أخبار بني إسرائيل في البرّيّة مفتاحًا مُفيدًا.

سؤال: هلِ الله ظالم؟ لماذا لا يُعاقِب دائمًا الأشرار ويُكافئ الأبرار؟ ولماذا

تحدث أُمور مُروِّعة للصالحين والطالحين، بغير وجود نموذج يمكن تمييزُه؟

تصوَّر عالمًا مُصمَّمًا بحيث نختبر وخزة ألم خفيفة مع كلِّ خطيَّة ودغدغة سرور مع كلِّ فعلٍ خيِّر. تصوَّر عالمًا يُنزِل فيه على كلِّ تعليمِ ضلالٍ صاعقةَ برق، فيما تحفز كلُّ تلاوة لقانون الإيمان الرسوليِّ أدمغتنا على إحداث موجةٍ من السرور.

في الواقع أنَّ كتاب العهد القديم يُسجِّل اختبار "تقييد للسلوك" شديد الوضوح على ذلك النَّحو تقريبًا، ألا وهو عهدُ الله مع بني إسرائيل. ففي صحراء سيناء، قرَّر الله أن يُكافئ ويُعاقِب شعبه القديم بعدلٍ صارم وإنصافٍ مُشرَّع. وقد وقَّع الضمانة بيده، جاعلًا إيَّاها متوقِّفة على الشرط الوحيد المُتمثِّل في وجوب إطاعة الشعب للشرائع التي سنَّها لهم. ثمَّ طلب من موسى أن يحدِّد بنود هذه الضمانة للشعب:

نتائج الطاعة	نتائج العصيان
مدن مزدهرة وأرياف ناجحة	تفشّي العنف والجريمة والفقر
لا عُقم بين الرجال والنساء أو المواشي	عقم بين الناس والمواشي
فَلاح مضمون في الزراعة	تدنٍّ في المحاصيل؛ جراد وحشرات
نصرٌ حربيٌّ مضمون	خضوعٌ لأُمَمٍ أُخرى
مناعة تامَّة من الأمراض	حُمَّى والتهابات؛ جنون وعمى وخَبَل

وقد قال موسى إنَّ الله، إذا كانوا طائعين، سيرفع شأنهم فوق أُمم الأرض كلِّها، وسيكونون دائمًا في الارتفاع، ولا يكونون أبدًا في الانحطاط. وفي الواقع أنَّ بني إسرائيل وُعِدوا بالحماية فعليًّا من جميع أنواع الشقاء والخيبة. أمَّا إذا لم يكونوا طائعين، فإنَّهم سيكونون "دهشًا ومثلًا وهُزأة في جميع الشعوب" التي يطردهم الربُّ إليها. وهذا هو تعليلُ

الربِّ الذي أوضحه للشعب: "من أجل أنَّك لم تعبد الربَّ إلهك بفرح وبطيبة قلب لكثرة كلِّ شيء، تُستعبَد لأعدائك الذين يرسلهم الربُّ عليك في جوع وعريٍ وعوز كلِّ شيء".

ثُمَّ تابعت القراءة، مُمعِنًا النظر في سفرَي يشوع والقُضاة لرؤية نتائج هذا العهد المؤسَّس على نظام "عادل" من ضروب الثواب والعقاب. ففي غضون خمسين سنة كان بنو إسرائيل قد انحلُّوا وانحطُّوا إلى حالةٍ من الفوضى الشاملة. وتروي أجزاءٌ كثيرة من باقي أسفار العهد القديم التاريخَ الكئيبَ لتُحقُّق اللعنات- لا البركات- المُنبأ بها. فعلى الرغم من جميع فوائد العهد الجزيلة، أخفق بنو إسرائيل في إطاعة الله والوفاء بشروط العهد.

وبعد مئات السنين، حين التفتَ كُتّاب الوحي في العهد الجديد إلى ذلك التاريخ، لم يُعلوا شأن العهد بوصفه نموذجًا لمعاملة الله مع شعبه القديم بمُنتهى الاستقامة والإنصاف، بل بالحريِّ قالوا إنَّ العهد العتيق أدَّى دور الدرس النظري، إذ أثبت أنَّ البشر غير قادرين على إتمام معاهدةٍ مع الله. وقد بدا جليًّا لهم أنَّ الحاجة تدعو إلى عهدٍ جديد مع الله، عهدٍ مؤسَّسٍ على الغفران والنعمة. وذلك تحديدًا هو سبب وجود "العهد الجديد".

سؤال: هل الله صامت؟ إذا كان معنيًّا تمامًا بأن نعمل بمشيئته فلماذا لا يعلن تلك المشيئة بأكثرِ وضوح؟

يزعم أشخاصٌ مختلفون أنَّهم يسمعون كلمة الله اليوم. ومنهم مَن هم مُخبَّلون، مثل ذلك الطائش الذي أهوى بمطرقة على تمثال المُنتحِبة، رائعةِ مايكل أنجلو، مدَّعيًا أنَّه يُطيع "أوامر الله"، أو ذلك السفَّاك السياسيِّ الذي زعم أنَّ الله طلب منه إطلاق النار على الرئيس. ومنهم أيضًا من يَبدون مُخلِصين لكنْ مُضلَّلين، مثل أولئك الغرباء الستَّة الذين أخبروا المؤلِّفة جوني إيركسُن أنَّ الله أرشدهم إلى التزوُّج بها. كما أنَّ مِنهم بعدُ مَن يبدو أنَّهم يواصِلون التقليد الأصيل المأثور عنِ الأنبياء والرُّسل، في توصيل كلمة

الله إلى شعبه. فكيف نعرف إذًا أنَّ ما سمعناه هو حقًّا كلمة الله؟

لقد تبيَّن لي أنَّ الله بسَّط مسألة الإرشاد حين كان العبرانيُّون مخيِّمين في بريَّة سيناء. أينبغي لنا أن نطوي خيامنا ونرتحل اليوم أم نبقى هَهُنا؟ للحصول على الجواب، ما كان على العبرانيِّ المستفسر إلاَّ أن يُلقيَ نظرة على السحابة المخيِّمة على خيمة الاجتماع. فإذا تحرَّكت السحابة، كان الله يُريد من الشعب أن يتحرَّكوا. وإنْ لبثت، عنى ذلك أنَّ عليهم البقاء. (كان في وسع المرء آنذاك أن يعرف مشيئة الله على مدار الساعة، إذ كانت السحابة في الليل تتوهَّج كأنَّها عمودُ نار).

وقد عيَّن الله طُرقًا أُخرى، مثل إلقاء القُرعة والأُوريم والتُّمِّيم، لتبليغ مشيئته مباشرةً، ولكنَّ معظم القضايا كانت مقرَّرة سلفًا. فإنَّه أفصح عن مشيئته لبني إسرائيل في مجموعةٍ من الأحكام مصنَّفة في ٦١٣ قانونًا تشمل كامل نطاق السلوك، من القتل إلى طبخ جديٍ بلبن أُمِّه. وقليلٌ من الناس تذمَّروا على غموض الإرشاد في تلك الأيَّام!

ولكنْ هل كان من شأن الكلمة الصريحة من عند الله أن تُضاعِف احتمال الطاعة؟ لا، على ما يبدو. فقد قال الله: "لا تصعدوا، ولا تحاربوا (الأموريِّين)، لأنِّي لستُ في وسطكم، لئلاَّ تنكسروا أمام أعدائكم". ولكنَّ بني إسرائيل صعدوا في الحال وحاربوا الأموريِّين، وانهزموا أمام أعدائهم. فإنَّهم تقدَّموا لمَّا قيل لهم أن يتريَّثوا، وهربوا خوفًا لمَّا قيل لهم أن يتقدَّموا، وحاربوا حين قيل لهم أن يُسالِموا، وسالموا حين قيل لهم أن يحاربوا. وجعلوا تسليةً قوميَّة لهم أن يبتكروا طُرقًا لنقض الأوامر والنواهي ال ٦١٣. وبات الإرشاد الصريح تحدِّيًا لذلك الجيل بمقدار ما هو الإرشاد الغامض لجيلنا.

وقد لاحظتُ أيضًا في أخبار العهد القديم نموذجًا معبِّرًا: أنَّ وضوح مشيئة الله بحدِّ ذاته كان له نتيجةٌ مُعوِّقة لإيمان بني إسرائيل. فلماذا نشدانُ الله وقد سبق أن أعلن ذاته بمنتهى الوضوح؟ لماذا الإقدامُ بإيمانٍ وقد ضمن الله النتائج سلفًا؟ لماذا مصارعةُ مأزق الخِيارات المتضاربة وقد حلَّ الله هذا المأزق مسبَّقًا؟ وباختصار، لماذا ينبغي أن يتصرَّف

بنو إسرائيل تصرُّف الراشدين وفي وسعهم أن يتصرَّفوا تصرُّف القاصرين؟ ولقد تصرَّفوا تصرُّف القاصرين فعلًا، متذمِّرين على قادتهم، وغاشِّين في القوانين الصارمة المنظِّمة لالتقاط المَنّ، وآنِّين بشأن كلِّ نقصٍ في الطعام أو الماء.

وإذ درستُ قصَّة بني إسرائيل، تحصَّلت لديَّ إعادة نظر بشأن الإرشاد الواضح وضوح الشمس. فهو قد يؤدِّي غرضًا ما- إذ يمكن مثلًا أن يُجيز قومًا من العبيد المحرَّرين حديثًا وسط صحراء مُعادِية- ولكنْ لا يبدو أنَّه يُشجِّع على النموِّ الروحيّ. وبالحقيقة أنَّه بالنسبة إلى بني إسرائيل كاد يُسقِط كلِّيًّا الحاجة إلى الإيمان. ذلك أنَّ الإرشاد الصريح استبعد الحرِّيَّة، جاعلًا كلَّ خيار مسألة طاعة، لا إيمان. وفي أثناء أربعين سنة من التِّيهان في البرِّيَّة، رسب بنو إسرائيل في امتحان الطاعة رسوبًا شنيعًا حتَّى اضطُرَّ الله أن يبدأ مجدَّدًا بجيل جديد.

سؤال: هل الله مُختبئ؟ لماذا لا يتراءى حينًا فحسب بصورةٍ منظورة فيُفحِم الشكّاكين مرَّةً وإلى الأبد؟

ما أراده رائد الفضاء السوڤياتيّ عندما بحث عن الله في الخلاء المُظلِم خارج نافذة سفينته الفضائيَّة، وما أراده صديقي رشيد وحيدًا في غرفته الساعةَ الثانية فجرًا، هو مُنية عصرنا الصادرة من جوع (لدى الذين ما زالوا يجوعون). فنحن نُريد برهانًا ودليلًا، ظهورًا شخصيًّا، حتَّى يصير الله الذي سمعنا عنه هو الإله الذي نراه.

ولكنَّ ما نجوع إليه حدث مرَّة. فإنَّ الله ظهر ذات مرَّة شخصيًّا، وتكلَّم إليه إنسانٌ كما يُكلِّم الرجُل صاحبَه. وقد تقابلا، أي الله وموسى، في خيمةٍ نُصِبت خارج مُخيَّم الشعب. ولم يكن موعد اللقاء سرًّا. فكلَّما تهادى موسى نحو الخيمة كي يتكلَّم مع الله، كان المخيَّم كلُّه يفرغ إذ يمضي القومُ للمشاهدة. إلاَّ أن عمودًا من السحاب، يُمثِّل حضور الله المرئيّ، حال دون الدخول إلى الخيمة. فلا أحد سوى موسى علم بما يجري في الداخل؛ ولا أحد أراد أن يعلم. وقد تعلَّم الشعب أنْ يظلُّوا بعيدين، إذ قالوا لموسى: "تكلَّم أنت معنا فنسمع؛ ولا يتكلَّمْ معنا الله لئلاَّ نموت!" وبعد كلِّ لقاء كان موسى

يخرج متوهِّجًا كغريبٍ هبط من الفضاء، فيُحوِّل الشَّعبُ وجوههم عنه حتّى يُغطِّيَ وجهه ببرقُع.

كان الملحدون في تلك الأيّام قليلين، إن وُجِدوا. فما من عبرانيٍّ كتب روايةً عن انتظار إلهٍ لم يأتِ قطّ. وكان في وسع الشعب أن يَروا بيِّنةً جليَّةً على حضور الله خارج خيمة الاجتماع، أو في غيوم العاصفة الكثيفة الحائمة حول جبل سيناء. ولم يكن الشكّاك يحتاج سوى القيام بنزهةٍ إلى الجبل الراجف ومدِّ يده كي يلمسه، فتتبدَّد شكوكه - قبل لمسه بثانيةٍ واحدة.

ومع ذلك، فإنَّ ما حدث في أثناء تلك الأيّام يكاد لا يُصدَّق. فلمّا صعد موسى إلى الجبل المقدَّس العاصف بعلامات حضور الله، فأولئك القوم الذين حُفِظوا سالمين خلال الضربات العشر في مصر، والذين عبروا البحر الأحمر كما على أرضٍ يابسة، وشربوا ماءً من الصخرة، وكانت بطونهم تهضم المنَّ المعجزيَّ في تلك اللحظة عينها، أولئك القوم أنفسُهم باتوا ضَجِرين أو عديمي الصبر أو متمرِّدين أو حاسدين، حتّى إنّهم على ما يبدو نسُوا كلَّ ما يتعلّق بإلَهِهم. وقبلما نزل موسى من الجبل، كانوا يرقصون كالوثنيِّين حول عجلٍ من ذهب.

لم يلعب الله لعبة الغُمَّيضة مع بني إسرائيل. فقد توافر لهم كلُّ برهانٍ على وجوده يمكنك أن تطلبه. ولكنَّ الأمر المدهش أنَّ صراحة الله بدت مُحدِثةً عكس النتيجة المُتوخّاة تمامًا... ولم أكد أُصدِّق هذه النتيجة حتّى عند قراءتي لها. ذلك أنَّ بني إسرائيل تجاوبوا لا بالتعبُّد والمحبَّة، بل بالخوف والعصيان العلنيّ. فحضور الله المنظورُ لم يُجدِ نفعًا في إكسابهم إيمانًا ثابتًا.

لقد ركَّزتُ شكاوى رشيد بشأن الله في ثلاثة أسئلة. ولكنَّ سفرَي الخروج والعدد علّماني أنَّ الأجوبة السريعة عن هذه الأسئلة الثلاثة ربّما لا تحلُّ المشكلات الكامنة

وراءها والمتعلِّقة بخيبة الأمل بالله. فإنَّ بني إسرائيل، رُغم مشاهدتهم نورَ حضور الله الساطعَ الباهر، كانوا شعبًا من أكثر الشعوب التي عاشت تقلُّبًا. إذ إنَّهم تمرَّدوا على الله عشرَ مرّات مختلفة على أراضي سيناء الموحشة المنبسطة غير المطروقة. حتّى إنَّهم عند حدود أرض الآباء بالذات، وخيراتُها منبسطةٌ أمامهم، كانوا ما يزالون يتحسَّرون على "أيّام الخير القديمة" زمن عبوديّتهم في مصر.

هذه النتائج المؤسفة قد تؤتينا تبصُّرًا بشأن الأسباب التي تحول دون تدخُّل الله بطريقةٍ أكثر مباشرةً اليوم. ومِن المسيحيِّين مَن يتوقون إلى عالمٍ مشحون بالعجائب والآيات المدهشة على حضور الله. فإنّي أسمع عظاتٍ مُتلهِّفة عن انفلاق البحر الأحمر والضربات العشر ونزول المنّ يوميًّا في البرّيّة، وكأنَّ المتكلّمين يتوقون أن يُطلِق الله قدرته على ذلك النحو في أيّامنا. ولكنَّ رحلة بني إسرائيل "المُتتبَّعة للنقاط" ينبغي أن تجعلنا نتمهَّل قليلًا. أمِن شأن طفرة عجائبَ أن تُعزِّز الإيمان؟ ليس نوع الإيمان الذي يبدو أنَّ الله مَعنيٌّ به، كما هو جليٌّ. فقد وفَّر لنا بنو إسرائيل برهانًا مُبينًا على أنَّ الآيات قد تجعلنا مُدمِني آياتٍ فحسب، لا مؤمنين بالله متوكِّلين عليه.

صحيحٌ أنَّ بني إسرائيل كانوا شعبًا بدائيًّا خارجًا من العبوديّة. ولكنَّ الأحداث التي يدوِّنها الكتاب المقدَّس بَدَت في نظرهم ذات صبغة مألوفة. وهذا أمر مُقلِق حقًّا. فقد كان لديهم نزعة إلى التصرُّف- على حدِّ تعبير فردريك بوخنر- "مثل غيرهم من الناس تمامًا، إنّما بمبالغةٍ ملحوظة".

وقد طلعتُ من دراستي لهم مندهشًا ومرتبكًا في آنٍ واحد. أمّا الدَّهشة فلإدراكي الفرق الضئيل الذي أحدثته في حياة الناس عملية إزاحة ثلاثة أسئلة رئيسيَّة لخيبة الأمل بالله (الظُّلم والصَّمت والاحتجاب). وأمّا الارتباك فمن جرّاء الأسئلة التي أُثيرت بشأن أفعال الله على الأرض، ومنها: هل تغيَّر الله؟ هلِ انكفأ أوِ انسحب؟

حين جلس رشيد في غرفة الجلوس عندي، مُخبرًا إيّاي بقصّته تلك المرّة الأُولى، نظر إلى الأعلى فجأةً وقال بصوتٍ صاخب: "إنَّ الله لا يدري ما هو فاعلٌ بهذا العالم،

ويا للهول!" فماذا الله فاعل؟ وما هو مدارُ الاختبار البشريِّ بجملته؟ وماذا يُريد الله منّا، رغم كلِّ شيء، وماذا يمكننا أن نتوقَّع منه؟

من دون إبادتي على نحو ما في سياق العمليَّة، كيف يمكن أن يعلن الله ذاته بطريقةٍ لا تُبقي مكانًا للشكّ؟ ولو لم يكن للشكّ مكان، ما كان لي أنا مكان.

فردريك بوخنر

الشواهد الكتابيَّة: تثنية ٩، ٧، ٢٨؛ رومية ٣؛ غلاطيَّة ٣؛ خروج ٢٨، ٤٠؛ تثنية ١ و ٢؛ خروج ١٩ و ٢٠، ٣٢ و٣٣؛ تثنية ١.

٥

المصدر

طوال أُسبوعين، اعتزلتُ في كوخ بجبال كولورادو كي أُفكِّر مليًّا في أسئلة رشيد الثلاثة في ضوء ما رأيتُه في كتاب العهد القديم. وقد أخذتُ معي حقيبة كبيرة مليئة بالكتب، إلاّ أنّني طيلة إقامتي هناك لم أفتح غير الكتاب المقدَّس.

بدأتُ بسِفر التكوين في وقتٍ متأخِّر من عصر اليوم الأوَّل، وكان يوم ثلج كثير، فشكَّل إطارًا مؤاتيًا تمامًا لقراءة خَبَر الخَلق. وقدِ ارتفعت الغيوم في الوقت المناسب لتُشكِّل غروبًا رائعًا يصحبه شَفَقٌ أَلبِيّ، فيما نثار الثلج يتطاير من على قِمَم الجبال كحلوى غزل البنات الورديَّة اللون. حتّى إذا هبط الليل تلبَّدت الغيوم وأطبقت، وتساقط الثلج كثيفًا.

قرأتُ الكتاب الجليل بانتظام وعلى مهل، من الغلاف إلى الغلاف. فلمّا وصلتُ إلى سفر التثنية، غطّى الثلج الدرجة السُّفلى. وحين أتيتُ على الأنبياء كان قد غطّى عمود علبة البريد. حتّى إذا بلغتُ سِفر الرؤيا أخيرًا، كان عليَّ أن أتّصل بمحراث ثلجٍ لكشف الطريق من الشارع إلى المدخل. وقد سقط نحو مترين من المسحوق الأبيض الجديد في أثناء الأُسبوعين اللذين قضيتهما في عليَّة أقرأُ الكتاب المقدَّس وأُسرِّح نظري عبر النافذة بين الأشجار الدائمة الخضرة المُلبَّسة بذُرور السُّكَّر.

هنالك خطرت في بالي بقوَّة فكرةُ أنَّ انطباعاتنا العامَّة عن الله قد تكون مختلفة تمامًا عن حقيقة الإلَه الذي يصفه الكتاب المقدَّس فعلًا. تُرى، ما هي طبيعتُه الحقيقيَّة؟ في الكنيسة، وفي كُلِّيَّة مسيحيَّة، تعلَّمتُ أن أُفكِّر في الله على أنَّه روحٌ غير منظور وغير متغيِّر يتمتَّع بسجايا مثل القدرة على كلِّ شيء، والعِلم بكلِّ شيء، والثبات وعدم التحيُّز والتعرُّض للأهواء. هذه العقائد التي يُفترَض أن تُساعِدنا على فهم وجهة النظر الصحيحة بشأن الله يُمكِن أن تعثر عليها في الكتاب المُقدَّس، ولكنَّها دفينةٌ في أعماقه.

وإذ قرأتُ الكتاب المقدَّس ببساطة، التقيتُ لا بُخارًا ضبابيًّا بل شخصًا حقيقيًّا. شخصٌ فريد ومُميَّز ونابض بالحياة كأيِّ شخص أعرفه. فإنَّ لدى الله عواطفَ عميقة، إذ يشعر بالسرور والحزن والغضب. وفي الأنبياء ينتحب ويئنُّ من الألم، مُشبِّهًا نفسه أيضًا بامرأةٍ تلد: "أصيح، أنفخ وأنخر معًا". ومرَّةً تلو الأُخرى يصدمه سلوك الكائنات البشريَّة. فعندما يرتكب بنو إسرائيل تقديم الأطفال ذبائح، يبدو مذهولًا من جرّاء أفعالٍ يقول عنها، وهو الإلَه العليم بكلِّ شيء، إنَّها أمرٌ "لم أُوصِ ولا تكلَّمتُ به، ولا صعد على قلبي". وهو يُفسِّر وجوب المعاقبة بسؤاله الكئيب: "ماذا أعمل؟". إنّي أعلمُ يقينًا أنَّ كلمة "التجسيم" (خلع الصفات البشريَّة على الله) يُفترَض أن تُسوِّغ جميع هذه الخصائص المألوفة لدى البشر. ولكنَّ الصور التي "يستعيرها" الله من الاختبار البشريِّ تُشير حتمًا إلى حقيقةٍ أقوى بعد.

وفي أثناء قراءتي الكتاب المقدَّس كلَّه في صومعتي الشتويَّة، أدهشني كم يسمح الله للبشر أن يؤثِّروا فيه. فلم أكن متأهِّبًا لتقبُّل وجود الفرح والحزن (وباختصار: الشغف) عند إلَه الكون. فإذ درستُ "عن" الله، وروَّضته وركَّزته في كلماتٍ ومفاهيم يُمكِن أن تُدرج حسب التسلسُل الألفبائيّ، فقدتُ قوَّة العلاقة الحميمة التي يطلبها الله فوق كلِّ ما عداها. إنَّما الأشخاص الذين كانت لهم أفضلُ علاقةٍ بالله (إبراهيم، موسى، داود، إشعياء، إرميا) عاملوه بحميميَّة مذهلة. فقد حادثوا الله كما لو كان جالسًا على كرسيٍّ بقربهم، مثلما يتكلَّم المرء مع مُرشدٍ أو ربِّ عمل أو أبٍ أو حبيب. لقد عاملوه على أنَّه شخص.

إنَّ تلك الخلوة في كولورادو وضعَت أسئلتي الثلاثة عن خيبة الأمل بالله في ضوءٍ جديد. فهي ليست أحاجيَ تنتظر حلًّا، من نوع ما تعثر عليه في ميدان الرياضيَّات أو برمجة الكومبيوتر، أو الفلسفة أيضًا. ولكنَّها بالحَريِّ مسائلُ علاقةٍ بين كائناتٍ بشريَّة وإلَهٍ يريد بشوقٍ شديد أن يحبَّنا ونُحبَّه.

في أثناء عزلتي التي دامت أُسبوعين، رأيتُ أشخاصًا قليلين. فأغلبَ الأحيان، قبعتُ في الداخل، وراء جدار الثَّلج، وعكفتُ على القراءة. وربَّما كانت هذه الوحدة، هذه العزلة، هي التي مهَّدت السبيل للاستنتاج الذي بلغتُه: إنَّني أخذتُ في الحسبان دائمًا وجهة نظر واحدة فحسب، ألا وهي وجهة النظر البشريَّة. فعندي رفوف ملأى كُتبًا تعرض مأزق كون المرء بشريًّا. بعض تلك الكتب مُسَلٍّ، وبعضُها كئيب، وبعضُها ساخر، وبعضُها فلسفيّ بشكلٍ مُكثَّف. ولكنَّها كلَّها تعبِّر عن وجهة نظرٍ أساسيَّة واحدة: "إليك ما يعنيه كونُك كائنًا بشريًّا". والخائبُ أملُهم بالله كذلك يُركِّزون على وجهة النظر البشريَّة. فعندما نطرح أسئلتنا (لماذا الله غيرُ مُنصف، وصامت، ومُحتجِب؟) فإننا بالحقيقة نسأل: لماذا الله غيرُ مُنصفٍ معي؟ لماذا يبدو صامتًا بالنسبة إليَّ، ومحتجبًا عنّي؟

حاولتُ أن أضع جانبًا أسئلتي الوجوديَّة، وخيبات آمالي الشخصيَّة، وأتأمَّل بدلًا من ذلك في وجهة نظر الله. لماذا يطلب الاتِّصال بالكائنات البشريَّة بالدرجة الأولى؟ ما الذي يلتمسه منّا، وماذا يتدخَّل في هذا الالتماس؟ توجَّهتُ إلى الكتاب المقدَّس من جديد، محاولًا أن أسمع كلمات الله كما لو كان ذلك أوَّل مرَّة. فهو هناك يتكلَّم عن ذاته، وقد أدركتُ أنَّني لم أُعِره انتباهي أغلب الأحيان. لقد حال انشغالي المُفرِط بمشاعري دون الإصغاء بانتباهٍ إلى مشاعره.

رجعتُ من كولورادو بصورةٍ ذهنيَّة عن الله مختلفة كلِّيًّا. فبعد أُسبوعين من دراسة

الكتاب المقدَّس، تكوَّن لديَّ إحساسٌ قويٌّ أنَّ الله غير مَعنيٍّ كثيرًا بأن يُحلَّل. فهو يريد، بصورةٍ أساسيَّة، أن يُحَبّ. وكلُّ صفحة من كلمته المقدَّسة تقريبًا تُفصِح عن هذه الرسالة. وقد عُدتُ إلى دياري عالمًا بأنَّ عليَّ بطريقةٍ ما أن أستكشف العلاقة بين إلَهٍ ذي شَغَف– توَّاقٍ إلى المحبَّة من قِبَل شعبه– والشعبِ أنفسهم. فإنَّ جميع مشاعر الخيبة بالله تعود إلى خَلَل في تلك العلاقة. وهكذا عقدتُ العزم على البحث عن جوابٍ لسؤالٍ لم أنظر فيه قبلًا: "ماذا يعني كونُ الله إلهًا؟"

> إنَّ السبب الكامن وراء كون معظم الناس يخشون الله، وفي قرارة النفس يُبغضونه، هو أنَّهم لا يثقون بقلبه على الأرجح، ويتصوَّرونه عقلًا فحسب مثل الساعة.
>
> هرمان ملفيل

الشواهد الكتابيَّة: إشعياء ٤٢؛ إرميا ١٩، ٩.

القسم الثاني

إجراءُ الاتِّصال: الآب

٦

مغامرةٌ محفوفةٌ بالمخاطر

لكي نفهم ما ينطوي عليه كونُ الله إلهًا، لدينا فقط مكانٌ واحد نبدأ به، ألا وهو لحظة الخلق. وغالبًا ما نقرأ الفصل الأوَّل من سفر التكوين كما لو كان مقدّمة، إذ تندفع أذهاننا بسرعة إلى الانهيار الكبير الموصوف في الفصل الثالث، أو إلى النقاش الحديث في العمليَّة المستعمَلة في الخلق. ولكنَّ الفصل الأوَّل من التكوين لا يذكر شيئًا عن تلك العمليَّة، ولا عن المأساة التي ستلي. فهو يرسم أبسط صورة لعالمنا- الشمس والكواكب، المحيطات والنباتات، الأسماك والبهائم، الرجُل والمرأة- إلى جانب تعليق الله الشخصيّ على كلّ عمل جديد.

"ورأى الله ذلك أنّه حسن"- خمسَ مرّات يتردّد هذا التصريح البسيط في إيقاعٍ مُدوٍّ كضربات طبل. ثمّ عند الانتهاء من العمل: "ورأى الله كلَّ ما عمله، فإذا هو حسن جدًّا". كما تستذكر أجزاء أُخرى من الكتاب المقدَّس هذا الحدث بمزيدٍ من الجَذَل. "عندما ترنَّمت كواكب الصُّبح معًا، وهتف جميع بني الله"، على حدّ قول الله لأيُّوب بفخر. ويعزف سفر الأمثال بإمعانٍ وتر الابتهاج: "كنتُ عنده صانعًا، وكنتُ كلَّ يوم لذَّته، فَرِحة دائمًا قدّامه، فرحةً في مسكونة أرضه، ولذَّاتي مع بني آدم".

هكذا كان وقْع الخلق في نظر الله. ومنذئذٍ يشعر كلُّ فنّانٍ بأصداء هزّة طَرَبٍ

عطوف، كمُبدِعٍ يرمق تحفته المكتملة ويُتمتِم: "رائع!"، أو مؤدٍّ لا يسعه كبتُ ابتسامة عريضة حين يقف الجمهور مُحيِّيًا هاتفًا، أو حتَّى فتاة صغيرة خربشت صورة طريفة بأقلام تلوينٍ لديها التصق بعضُها ببعض.

يروي الأنثروبولوجيُّ وكاتبُ المقالات لورين آيسلي خبر يوم شعر فيه بفرحة الخلق الأصليّ. كان آنذاك طاعنًا في السنّ، يتمشّى على شاطئ مهجور، إذ لجأ إلى قيدوم (مقدمة) سفينة محطّمة اتِّقاءً للضباب الرَّطب، فغطغط عليه النوم سريعًا. ولمَّا فتح عينيه، ألفى نفسه ناظرًا إلى أُذنَي ثُعيلِب صغيرتين أنيقتين وإلى وجهه المستطلِع، وقد كان جرو الثعلب ذاك أصغر من أن يتعلَّم الخوف. وهناك، تحت ظلّ السفينة، حدَّق عالِم الطبيعة المُجلّي والثُّعيلِب أحدُهما بالآخر. ثُمَّ إنَّ الثَّعلب الضئيل، وعلى وجهه سيماءُ دُعابة ومرح ظاهرين، انتقى عظْمة دجاج من كومة وراح يهزُّها بأسنانه. فما كان من آيسلي إلاَّ أنِ انحنى وأمسك بطرف العظْمة الآخر، وبدأ اللعبُ والمَرَح.

وهاك ما قاله لورين آيسلي: "لطالما قيل تكرارًا إنَّ المرء لا يستطيع أبدًا، مهما حاول، أن يدور ليقف قدّام الكون. فمحتومٌ على الإنسان أن يرى فقط جهته البعيدة، أن يدرك الطبيعة فقط في حال الانكفاء. ومع ذلك كان هَهُنا ذلك الشيءُ وسط العِظام، الثعلبُ البريء ذو العينين النجلاوين يدعوني إلى اللعب. لقد كان الكون يدور بطريقة خلاَّبة ليُبديَ وجهه، وكان الوجه صغيرًا جدًّا حتَّى إنَّ الكون نفسه مضى يضحك. ولم يكنِ الأوانُ أوانَ وقار بشريّ.

"على مدى لحظةٍ فحسب جعلتُ الكون مُضطرًا إلى الدِّفاع عن نفسه، بالحيلة البسيطة المتمثِّلة في جلوسي على الأرض أمام وِجار ثعلب وعبثي بعظمة دجاج".

ولاحقًا خلص آيسلي إلى القول إنَّ ذلك كان "العمل الأكثر وقارًا والأغنى معنًى بين كلّ ما سيُنجزه على الإطلاق"، لأنَّ به حاز في آخر الأمر لمحةً على الكون كما يبدأ بالنسبة إلى كلِّ الأشياء. "وقد كان في الواقع كونَ ولدٍ صغير، كونًا بالغ الصِّغر وضاحكًا".

على الرُّغم من فراغ كوننا الرهيب، وعلى الرُّغم من الألم الذي ينتابه، فإنَّ شيئًا ما يتخلَّف، كرائحة عطرٍ قديمٍ، من لحظة البداءات تلك في الفصل الأوَّل من التكوين. وأنا أيضًا قد أحسستُه، أوّلَ مرَّةٍ درتُ في مُنعطَف وشاهدتُ واديَ يوزيمايت منبسطًا أمامي، بشلاّلاته الشبيهة بشعر الملائكة متدفِّقةً من فوق الصوّان المغشّى بطبقة من الجليد المتألِّق. أو على شبه جزيرة صغيرة في أُنتاريو، حيث تتوقَّف خمسة ملايين فراشة ملكة مهاجرة كي تستريح، وأجنحتُها الوَرَقانيَّة تُزيِّن كلَّ شجرة بلون برتقاليٍّ برّاق شبهِ شفّاف. أو في حديقة حيوانات الصغار في مُتنزَّه لينكولن بشيكاغو، حيث كلُّ حيوانٍ وليد- غوريلاً أو خنزير أرض أو فرس نهر- يبدأ حياته عابثًا لعوبًا.

إنَّ آيسلي على حقّ: في قلب الكون بسمة، نبضة فرح تناهت إلينا من لحظة الخلق. ويعرف ذلك الأمُّ أو الأبُ الجديدان إذ يضمّان طفلاً إلى صدرَيْهما ضمًّا لصيقًا، قائلَين "هذا طفلنا!" ذلك هو الشعور الذي خالج الله لمّا أجال نظره في ما صنعه وأعلن أنَّه حسن. ففي البدء، في البدء ذاته، لم تكن خيبة أملٍ قطّ، بل فرح ليس غير!

آدم وحوّاء

غير أنَّ الفصل الأوَّل من سفر التكوين لا يحكي قصَّة الخلق بكاملها. ولفهم ما يلي، ينبغي أن تُبدع شيئًا لنفسك.

كلُّ مُبدع، من الولد العابث بعجونة اللعب إلى مايكل آنجلو، يتعلَّم أنَّ الإبداع ينطوي على نوع من تقييد الذات. فأنت تُنتج شيئًا لم يكن موجودًا من قبلُ طبعًا، إنَّما باستبعاد خياراتٍ أُخرى في سياق ذلك. ألصِق خُرطوم الصلصال المقوَّس على وجه الفيل، فلا يمكن أن ينتقل إلى الخلف أو على الجانب. خُذ قلم رصاص وباشر الرسم، فإذا بك تُقيِّد نفسك بالأسود والأبيض، وليس باللون.

فما من فنّان، مهما كان عظيمًا، يُفلِت من هذا التقييد. وقد علم مايكل آنجلو أنَّ أيَّة خِدعة بصريَّة لا يمكن أن تُضفيَ على سقف كنيسة سيستين الحقيقة الثُّلاثيَّة

الأبعاد التي أحرزها في منحوتاته. فلمّا قرّر الوَسَط، الأصباغ أو الجصّ، قيّد ذاته.

وعندما قام الله بالخَلق، ابتكر الوَسَط في سياق عمله، مستدعيًا إلى الوجود ما كان قدِ انوجد فقط في تصوُّره، وإلى جنب كلّ اختيارٍ حرٍّ جاء تقييد. فقد اختار الله عالَم زمان ومكان، "وَسَطًا" ذا قيود خاصّة: فأوّلًا حدث "أ"، ثمّ "ب"، ثمّ "ج". إذ إنّ الله، وهو يرى المستقبل والماضي والحاضر جميعًا دفعةً واحدة، انتقى الزمان المتعاقب كما ينتقي الرسّام قماشةً ولوحة ألوان، وقد فرض خِيارُه قيودًا ما برحنا نُعايشها منذئذٍ. (عبّر العلماء الحسيديُّون عن تقييد الله لذاته بكلمة عجيبة، هي زِمزُم).

"وقال الله: لتَفِضِ المياه زحّافات ذات أنفُس حيَّة!" وراءَ هذه الجملة يكمن ألفُ قرار: أسماك بخياشيم لا رئات، وحراشف لا فرو، وزعانف لا أطراف، ودمٍ لا عصارة. ففي كلّ مرحلة، اتّخذ الله قرارات، مُستبعِدًا بدائل.

يتكلّم سفر التكوين عن مجموعة خيارات الله النهائيّة، ثمّ يتوقّف قليلًا، ثُمّ يستوي ويروي الخبر من جديد بمزيد من التفصيل. وفي اليوم السادس، برز الرجل والمرأة إلى الوجود مخلوقين مختلفين عن كلّ ما عداهما. إذ صمّمهما الله على صورته هو، راغبًا في أن يلمس فيهما شيئًا من ذاته. فقد كانا أشبه بمرآة تعكس شبهه.

ولكنْ كان لدى آدم وحوّاء أيضًا فارقٌ آخر: فوحدَهما بين خلائق الله جميعًا وُهِبا إمكانيّةً خُلقيّة بأن يتمرّدا على خالقهما. كأنّما كان في وسع التماثيل أن تبصق على النحّات، أو أشخاصِ الرواية أن يُعيدوا كتابة سطورها. وبكلمة، كانا حُرَّين.

قال أحد اللاهوتيّين: "الإنسان مجازفةُ الله". وعبّر آخر، هو سورين كيركيغارد، عن ذلك على هذا النحو: "لقد سجن الله نفسه في قراره، إذا جاز التعبير". ويكاد كلُّ ما يقوله اللاهوتيُّون عن حريّة الإنسان يبدو صحيحًا بطريقةٍ ما وخاطئًا بطريقةٍ ما. فكيف يقدر إلَه مُطلَق السيادة أن يُجازِف أو يسجن نفسه؟ ومع ذلك، فإنّ خلق الله للرجل والمرأة قاربَ ذلك النوع من تقييد الذات المذهل.

ولنتأمّل روايةً شبه خياليّة للخلق بقلم وليم إروين تومپسون:

تخيَّلِ الله في السماء تحفُّ به جوقات الملائكة المتعبِّدة ترنِّم هتافات هوشعنا بلا انقطاع... "إذا خلقتُ عالَمًا كاملًا، فأنا أعرفُ ما سيؤول إليه. ففي كماله المُطلَق، سيدور كآلةٍ ممتازة، غيرَ منحرفٍ أبدًا عن إرادتي المطلقة". وبما أنّ خيال الله كامل، فلا حاجة إلى خلق عالم كهذا: يكفيه أن يتصوَّره فيراه بجميع تفاصيله. إنّما كونٌ كهذا لن يكون مُشوِّقًا جدًّا لله ولا للإنسان، وهكذا يمكننا أن نفترض أنّ الله تابعَ تأمُّلاته: "ولكنْ ماذا لو خلقتُ كونًا يكون حُرًّا، حُرًّا حتّى منّي؟ ماذا لو حجبتُ لاهوتي بحيث تكون الخلائق أحرارًا كي يعيشوا حياتهم الشخصيّة بغير أن يُربكهم حضوري الطاغي؟ هل يحبُّني الخلائق؟ وهل يمكن أن أتلقّى محبّة خلائقَ لم أُبرمجهم كي يُوقِّروني إلى الأبد؟ أيمكن أن تطلع المحبّة من الحريّة؟ إنّ ملائكتي يحبُّونني بلا انقطاع، ولكنّهم يستطيعون أن يَروني كلّ حين. ماذا لو خلقتُ كائناتٍ على صورتي أنا الخالق، كائناتٍ حُرَّة؟ ولكن إذا أدخلتُ الحرّيّة إلى هذا الكون، أجازف بإدخال الشرّ أيضًا إليه؛ لأنّهم إذا كانوا أحرارًا، يكونون عندئذٍ أحرارًا في الانحراف عن إرادتي. هممم. ولكن إذا واصلتُ التفاعل مع هذا الكون الدينامي، فماذا لو أصبحنا أنا والخلائق معًا خالقِي لعبة كونيّة كبيرة؟ ماذا لو تجاوبتُ مع كلّ مناسبة للشرّ بخيرٍ لا يمكن تصوُّره، خيرٍ يدحر الشرّ إذ يطلع من محاولات الشرّ بعينها لإنكار الخير؟ هل يحبُّني إذ ذاك أولئك المخلوقون الجُدد ذوو الحرّيّة، وينضمُّون إليّ في خَلق الخير من الشرّ، والجِدّة من الحرّيّة؟ وماذا لو انضممتُ أنا إليهم في عالَم الحدود والقيود والأشكال، عالَم المعاناة والشرّ؟ آهِ، في كونٍ حُرٍّ حقًّا، حتّى أنا لا أكاد أعرف ما ستؤول إليه الأمور. أفأجرؤ حتّى أنا على خوض مغامرة المحبّة هذه؟"

لماذا كان من شأن آدم وحوّاء أن يتمرّدا؟ لقد عاشا في فِردَوس النَّعيم، ولو كانت لديهما شكوى لاستطاعا أن يتباحثا فيها مع الله كما مع صديق. إنّما كانت هنالك تلك الشجرة الواحدة المحرَّمة، ذات الاسم المُغري "شجرة معرفة الخير والشرّ". الظاهر أنّ الله كان

يُخفي عنهما شيئًا. فأيُّ سرٍّ يكمن وراء ذاك الاسم؟ وأنّى لهما أن يعرفا إلاَّ إذا جرَّبا؟ من ثَمَّ اختار آدم وحوّاء خيارهما "الخلاَّق" الخاصّ، فأكلا من الشجرة، ولم تعُد الأرض إطلاقًا كما كانت.

ويُبيِّن الأصحاح الثالث من سفر التكوين تمامًا حقيقة شعور الله لمَّا عصى آدم وحوّاء: الحزن على العلاقة المنهارة؛ الغضب حيال إنكاراتهما؛ إحساس كجرس الإنذار على نحوٍ مدهش: "هوذا الإنسان قد صار كواحد منّا، عارفًا الخير والشر. والآن لعلَّه يمدُّ يده ويأخذ من شجرة الحياة ويأكل و يحيا إلى الأبد".

إنَّ الخلق، فيما يبدو أشبه بحُرّيَّة كلِّيَّة، ينطوي على تقييد. وكما تعلَّم آدم وحوّاء سريعًا، فإنَّ التمرُّد أيضًا ينطوي على تقييد، وإن بدا كذلك أشبه بحُرّيَّة. فباختيارهما أقاما مسافةً بينهما وبين الله. وقبل ذلك، كانا يتمشّيان ويتحدَّثان مع الله. أمّا الآن، فإذ سمعا حسَّ اقترابه اختبآ وسط الشجر. فإنَّ انفصالاً رهيبًا قد انسلَّ إلى تُربة تلك العلاقة الوثيقة. وكلُّ اهتزازةٍ خبيثةٍ في علاقتنا بالله إنَّما هي هزَّة ارتداديَّة ناجمة عن فِعل تمرُّدهما الأوَّلي.

لعلَّنا لا نُدرِك ما يمكن أن نُسمّيه المشكلة الكامنة في تمكين الإرادات الحرَّة المحدودة من التواجُد مع قُدرة الله على كلِّ شيء. إذ يبدو أنّ هذه المشكلة تكاد تنطوي في كلِّ لحظة على نوعٍ من "التنازُل الإلهي".

سي أس لِويس

الشواهد الكتابيَّة: أيوُّب ٣٨؛ أمثال ٨؛ تكوين ١-٣.

٧

الأب

بعد رجوعي من كولورادو، قرأتُ سفر التكوين مرارًا وتكرارًا، مفتِّشًا في كتاب البداءات هذا عن مفتاح لِما كان في فكر الله بشأن هذا العالم. فحتّى بعدَ أوَّل تمرُّد شكَّل نقطة تحوُّل جذريٍّ، لم يتخلَّ الله عن خليقته. إذ يحكي سفر التكوين أخبارًا مذهلة عن استمرار لقاءاته الشخصيَّة للبشر.

لو كان عليَّ اختصار "حبكة" التكوين بجملة واحدة، لقُلتُ شيئًا من قبيل هذا: إنَّ الله يتعلَّم كيف يكون أبًا.* فإنَّ الانهيار في عدن غيَّر العالم إلى الأبد، مُبدِّدًا العلاقة الوثيقة التي اختبرها آدم وحوّاء بالله. وفي ما يشبه الاستعداد للتاريخ، انبغى أن يتعوَّد الله والكائنات البشريَّة بعضُهم بعضًا. فقد سار البشر على نهج مخالفة كلِّ قاعدة، وردَّ الله بمعاقبات تُناسِب كلَّ وضع بمفرده. فماذا كان الشعور الذي صحب كون الله إلهًا؟ وأيُّ شعور يُخالج أبا ولدٍ عمرُه سنتان؟

* قد يبدو تعبيرٌ مثل "الله يتعلَّم" غريبًا، لأنَّنا نفكِّر في التعلُّم عادةً بوصفه عمليَّة عقليَّة، ينتقل فيها المرء بالتعاقُب من حالة جهل إلى حالة معرفة. والله طبعًا لا يحدُّه الزمان أو الجهل. فهو "يتعلَّم" بمعنى خوض اختبارات جديدة، كخلق كائنات بشريَّة حُرَّة. وفي استعمال مُماثِل للكلمة ، تقول الرسالة إلى العبرانيِّين عن الربِّ يسوع إنَّه "تعلَّم الطاعة مِمَّا تألَّم به".

لا يستطيع أحد أن يتّهم الله بأنّه كان خَجلًا بالتدخُّل في الأيّام الأُولى. إذ بدا أبًا قريبًا، بل مُرفرفًا أيضًا. فلمّا أخطأ آدم، التقاه الله شخصيًّا، وبيَّن له أنَّ الخليقة كلَّها ستُضطرُّ إلى التكيُّف بمقتضى الخيار الذي اختاره آدم. وبعد جيل واحد فقط ظهر على الأرض نوعٌ جديد من الرُّعب، ألا وهو القتل. فواجه الله قايين قائلًا: "ماذا فعلتَ؟ صوت دم أخيك صارخ إليّ من الأرض". ومرَّةً أُخرى قابل الله المجرمَ، وحدَّد له عقابًا عُرفيًّا.

ثمّ إنّ حالة الأرض، والجنس البشريّ كلّه حقًّا، استمرّت تتقهقر نحو نقطةِ أزمةٍ كبرى يُلخّصها الكتاب المقدّس بألذع عبارةٍ كُتبت على الإطلاق: "حزن الربُّ أنّه عمل الإنسان في الأرض، وتأسّف في قلبه". فوراء هذه العبارة الواحدة يكمن كلُّ ما شعر به الله بصفته أبًا من اشمئزاز وحزن.

أيُّ أبٍ بشريٍّ لم يختبر على الأقلّ نوبةً كهذه من الندم والأسف؟ فرُبَّ مراهقٍ ينفجر في سورة تمرُّد صارخًا: "أنا أكرهكم!" ثمّ يتلعثم طلبًا لكلماتٍ تُسبّب أقسى ألم. ويبدو مصمّمًا على طعن بطنَي أبويه بسكّين يفتلها. ذلك الرفض هو ما خبره الله، ليس فقط من قِبَل ولد واحد، بل من الجنس البشريّ كلّه. نتيجةً لذلك، دمَّر الله ما كان قد خلقه. وإذا بفرحة تكوين ١ كلّها تتلاشى تحت مياه الطُّوفان الهادرة المُزبِدة.

إنّما كان هنالك نوح، رجُل الإيمان الواحدُ ذاك الذي "سار مع الله". فبعد الندامة المعبَّر عنها في تكوين ٣ حتّى ٧، تكاد تسمع الله يتنفّس الصعداء إذ يَعمَدُ نوح، في أوّل عملٍ يقوم به بعد الرجوع إلى اليابسة، إلى التعبُّد لله الذي خلّصه. ها هو أخيرًا شخصٌ يُركَن إليه! (بعد سنين كثيرة لاحقًا، في رسالةٍ إلى حزقيال، سوف يذكر الله نوحًا بوصفه واحدًا من تابعيه الثلاثة الأبَرّ). وإذ غُسِل الكوكب بكامله حديثًا، وعاد يُنبت حياةً من جديد، ارتبط الله بعهدٍ أو ميثاق ألزمه لا تُجاه نوح وحده، بل تُجاه كلِّ مخلوقٍ حيّ. وقد اشتمل ذلك العهد على وعد واحد فقط: أنَّ الله لَن يُفنيَ ثانيةً الخليقة كلَّها أبدًا.

في وسعك أن تنظر إلى العهد مع نوح بوصفه أدنى مستوى علاقة بسيط، حيث يقرُّ طرف بأنّه لن يُزيل الآخر. ومع ذلك، ففي ذلك الوعد أيضًا قيّد الله نفسه. فإنّه، وهو

العدوُّ العنيد لكلِّ شرٍّ في الكون، تعهَّد بأن يحتمل الشرَّ على هذا الكوكب إلى حين، أو بالأحرى حتّى يحلّه بوسيلة أُخرى غير الإفناء. وكأنّه أبو مراهقٍ هارب اضطُرَّ نفسه إلى القيام بدورِ أبٍ ينتظر (كما تُعبِّر أبلغ تعبير قصّة الابن الضالّ التي حكاها المسيح). ولم يمضِ زمن طويل حتّى جاء تمرُّدٌ عامٌّ آخر، في مكانٍ اسمُه بابل، ليمتحن تصميم الله، وقد وفى الله بوعده من جهة عدم الإفناء.

ففي بواكير التاريخ إذًا، تصرَّف الله بصراحة ووضوح حالا دون تشكّي أحدٍ من احتجاب الله أو صمته. إلاّ أنَّ تلك التدخُّلات الباكرة تشاركت في ميزةٍ واحدة مهمّة: أنَّ كلًّا منها كان عقابًا، ردًّا على تمرُّدٍ بشريّ. وإذا كان قصد الله أن تكون له علاقةٌ غنيّة بكائناتٍ بشريّة حرّة، فمؤكَّدٌ أنّه واجه سلسلةً من العوائق الفظّة. فكيف يمكن أصلًا أن يتواصل مع خلائقه كراشدين وهم يُمعِنون في التصرُّف كما يتصرف القاصرون؟

الخُطّة

يُشكِّل تكوين ١٢ مَعلَم تغيير هائل. فأوّلَ مرّة منذ أيّام آدم، تقدّم الله لا ليُعاقِب، بل ليُطلِق حركة خُطّةٍ جديدة للتاريخ البشريّ.

ولم يكن أيُّ لغزٍ يُحيط بما في فكره. إذ قال لإبراهيم صراحةً: "فأجعلك أُمّةً عظيمة وأُباركك وأُعظِّم اسمك، وتكون بركة... وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض". وتظهر الخُطّة بصورةٍ أو أُخرى في تكوين ١٣ و ١٥ و١٦ و١٧، كما في عشرات المواضع الأُخرى من كتاب العهد القديم. فبدلًا من محاولة استرجاع الأرض كلّها دُفعةً واحدة، يبدأ الله بعشيرةٍ رائدة، بجنسٍ جديد مفروز عن الآخرين جميعًا. وإذ بهرت وعود الله إبراهيم، غادر دياره وهاجر مئات الكيلومترات إلى بلاد كنعان.

ولكنْ رغمَ الشرف المعزوّ إلى إبراهيم من حيث هو أبو هذا الجنس الجديد، فهو يبرز بوصفه أوّلَ مَثَل في الكتاب المقدّس على شخصٍ يلقى خيبة أملٍ مُرَّةً بالله. ذلك أنّه شهد معجزات، وأضاف ملائكةً في بيته، وشاهد رؤًى غامضة فيها تنُّور دخان ومصباح

نار. إنّما أقضّت مضجعَه مشكلةٌ مُقلِقة، إذ في أعقاب الوعد ووهج الإعلان الإلهيّ الباهر خيَّم الصمت، سنوات طويلة من الصمت المُحيِّر.

لقد قال له الله: "اذهبْ وامتلكِ الأرض التي عندي لك". ولكنَّ إبراهيم وجد كنعان جافَّة كعظمةٍ معروقة، وأهلَها يهلكون جوعًا. وكي يبقى على قيد الحياة، هرب إلى مصر.

وقال له الله: "سيكون نسلك مثل نجوم السماء، لا يُحصى". وما من وعدٍ آخر كان ممكنًا أن يجعل إبراهيم أسعد حالاً. ففي سنِّ الخامسة والسبعين ظلَّ يأمل في خيمة ملأى بأصوات أولادٍ يلعبون. وفي سنِّ الخامسة والثمانين نفَّذ خطَّة دعم مع أَمَةٍ عنده. وفي التاسعة والتسعين بدا الوعد مُستهجَنًا تمامًا؛ ولمَّا برز الله كي يؤكِّده، ضحك إبراهيم في حضرته. والدٌ في التاسعة والتسعين؟ وسارة في ثياب الأُمومة ولها من العمر تسعون؟ قهقه كِلاهما حيال هذه الفكرة.

ضحكة سخرية، وألم أيضًا. فقد دلَّى الله حلمَ إنجابٍ مشرقًا أمام أعيُن زوجين عقيمَين، ثمَّ طوى يديه وجلس يراقبهما وهما يطعنان في السنِّ حتَّى الشيخوخة. فأيَّة لعبة كان يلعب؟ وماذا أراد؟

لقد أراد الله إيمانًا، كما يقول الكتاب المقدَّس. وكان ذلك هو الدرس الذي تعلَّمه إبراهيم أخيرًا. إذ تعلَّم أن يؤمن لمَّا لم يبقَ سببٌ يدعو إلى الإيمان. ومع أنَّه لم يَعِش حتَّى يرى العبرانيِّين يملأون البلد كما تملأ النجوم السماء، فقد عاش ليرى سارة تلد ولدًا، ذكرًا واحدًا فقط، ادَّخر إلى الأبد ذكرى الإيمان المُنافي للمنطق، إذ كان اسمه "إسحاق" ويعني "ضحكًا".

ثمَّ تكرَّر النموذج: إذ تزوَّج إسحاق بامرأةٍ عاقر، وحذا حذوَه ابنه يعقوب. فأُمَّهات العهد الرئيسات المُعتبرَات- سارة ورفقة وراحيل- كلُّهن قضَين أفضل سني الإنجاب

لديهنَّ نحيلاتٍ يائسات. وهُنَّ أيضًا اختبرن وهج الإعلان الإلهيّ الذي ما لبث أن أعقبه زمان انتظارٍ قاتمٍ وموحش ما كان ليملأَه شيءٌ سوى الإيمان.

من شأن المُقامِر أن يقول إنَّ الله كدَّس الفيشات الخاسرة في غير مصلحته. ومن شأن الفيلسوف الساخر أن يقول إنَّ الله أهان بتهكُّمه الخلائقَ الذين كان يُفترَض أن يحبَّهم. ولكنَّ الكتاب المقدَّس بالحقيقة يستخدم التعبير الوجيز "بالإيمان" لوصف ما عاناه أُولئك جميعًا. وبطريقةٍ ما، كان ذلك "الإيمان" هو ما ثمَّنه الله، وسرعان ما بات جليًّا أنَّ الإيمان هو أفضل طريقة يعبِّر بها البشر عن حبِّهم لله.

يوسف

إذا قرأتَ سفر التكوين في جلسةٍ واحدة، لا يسعك إلاَّ أن تلاحظ تغييرًا في كيفيَّة تواصُل الله مع خاصَّته. فأوَّل الأمر ظلَّ على مقربةٍ منهم، ماشيًا في الجنَّة معهم، معاقبًا خطاياهم الفرديَّة، متكلِّمًا إليهم مباشرةً، متدخِّلًا في أُمورهم دائمًا. حتَّى إنَّه في أيَّام إبراهيم أرسل مُرسَلين من خارج الأرض في زياراتٍ بيتيَّة. ولكنْ في زمن يعقوب باتت الرسائل أكثر غموضًا بكثير: حلم مُلغَز ظهر فيه سُلَّم، ومُباراة مصارعة حتَّى الفجر. وفي أواخر سفر التكوين، تلقَّى رجلٌ اسمُه يوسف الإرشاد بأكثر الطُرق فُجائيَّةً وغرابة.

يتمهَّل التكوين حين يصل إلى يوسف، ويُظهِر الله عاملاً خلف الكواليس أغلب الأحيان. وقد تكلَّم الله إلى يوسف ليس بواسطة ملائكة بل بوسيلةٍ تمثَّلت بأحلامِ فرعونٍ مصريٍّ مستبدّ.

وإذا كان لدى أحدٍ سببٌ وجيه ليخيبَ أملُه بالله، فذاك أحرى بيوسف، إذ إنَّ مآثره الباسلة في مجال الخير لم تعُد عليه إلاَّ بالضيق والعناء. فقد فسَّر حلمًا لإخوته، فرمَوه في بئر. وصدَّ مُراودةً جنسيَّة، فزُجَّ في سجنٍ مصريّ. وهنالك فسَّر حلمًا آخر لإنقاذ حياة سجينٍ زميل، فما كان من ذلك الزميل إلاَّ أن نسيه حالاً. وإنِّي لأتساءل عن يوسف إذ ذوى في زنزانة مصريَّة بسبب عفافه هل خطرت في باله أسئلةٌ مثل أسئلة

رشيد: هلِ الله ظالم؟ أهو صامت؟ أهو مُختبئ؟

إنّما الانتقال للحظةٍ إلى منظور الله أبًا. ألعلّه "انكفأ" عمدًا كي يُتيح لإيمان يوسف أن يبلغ مستوى نُضجٍ جديدًا؟ وهل يمكن أن يكون سفر التكوين قد خصَّص من أجل هذا مساحةً ليوسف أكبر ممّا خصَّص لأيِّ شخص آخر؟ فإنَّ يوسف، في خضمِّ مِحَنِه كلّها، تعلَّم أن يثق لا بأنَّ الله سيَحول دون الشِّدَّة بل بأنّه سيفتدي حتّى الشدَّةَ ذاتها. وفيما غلبَت يوسفَ الدموعُ، حاول أن يشرح إيمانَه لإخوته القَتَلة بقوله: "أنتم قصدتم لي شرًّا، أمّا الله فقصد به خيرًا..."

الفكرةُ المركزيّةُ في القسمِ الأكبرِ من كتابِ العهدِ القديمِ يمكن أن تُدعى فكرةَ شعورِ اللهِ بالوحدةِ.

ج. ك. تشسترتُن

الشواهد الكتابيّة: تكوين ١-١١؛ عبرانيّين ٥؛ حزقيال ١٤؛ تكوين ١٢-٢١، ٢٥، ٣٠؛ عبرانيّين ١١؛ تكوين ٣٧، ٣٩-٤١، ٤٥، ٥٠.

٨

ضوءُ شمسٍ غيرُ مُخفَّف

يُختتَم سفر التكوين بعائلةٍ واحدة، صغيرةٍ جدًّا بحيث يذكر الكتاب المقدَّس أسماء جميع أبنائها إذِ استوطنوا في ملاذ مصر الودود. ثُمَّ يُفتتَح السِّفر التالي، أيِ الخروج، بجمهورٍ من بني إسرائيل يكدُّون ويكدحون عبيدًا تحت إمرة فرعونٍ مُعادٍ. ولن تجد في أيِّ موضعٍ من الكتاب سجلاًّ لِما حدث في أثناء الفترة المتخلِّلة التي دامت أربع مئة سنة.

لقد سمعتُ عظاتٍ عديدة عن حياة يوسف، وأكثر منها بكثير عن موسى وعجائب الخروج. ولكنّي ما سمعت قطُّ عظةً عن فجوة الأربع مئة سنة بين التكوين والخروج. (أيُعقَل أن تكون بعض مشاعر الخيبة لدينا ناشئةً من عادةٍ عندنا في تخطّي فترات الصمت، لمصلحة قصص الانتصار التي يسردها الكتاب المقدَّس؟) فنحن نميل لأنْ نُسرع قدُمًا إلى القصص المُبهِجة المتعلّقة بالتحرير من العبوديّة. ولكنْ فكِّر في الأمر! على مدى فترةٍ مغمورة من الزمان طولُها ضعفا المدَّة التي انقضت على بروز الولايات المتّحدة إلى الوجود، ظلَّت السماء صامتة. فلا شكَّ أنَّ العبيد العبرانيّين في مصر شعروا بخيبة أمل شديدة من جهة الله.

أنت عبرانيٌّ، سليلُ إبراهيم. وقد نشأتَ سامعًا بالوعود العجيبة التي قطعها

الله لذلك الرجل العظيم. "سوف يغدو نسلك ذات يوم أُمَّة عظيمة، وسيُقيمون بسلام في بلدهم": بهذا أقسم الله شخصيًّا، أوَّلًا لإبراهيم، ثمَّ لإسحاق ويعقوب. في صِغَرك استظهرتَ تلك الوعود. ولكنَّها الآن تبدو كحكايات خيالية. أُمَّة مستقلَّة؟ إنَّك أنت وجيرانك تخدمون أعتى إمبراطوريَّة على وجه الأرض، و تُعانون يوميًّا الإهانات وتتلقَّون ضربات السياط من أيدي المسخِّرين المصريِّين. وأخوك الطفل قتله جنود فرعون.

أمَّا أرض الآباء التي تتبجَّحون بها، فتقع في مكانٍ ما إلى جهة الشرق، مُقسَّمةً تحت سيادة اثني عشر ملكًا!

أربع مئة سنة من الصمت، حتَّى موسى، إذ حدث شيءٌ كان من شأن الشكوكيّ أن يتمنَّى حدوثه. فأوَّلًا، ظهر الله في علَّيقة ملتهبة، معرِّفًا موسى بنفسه بالاسم. وقد تكلَّم الله بصوتٍ عالٍ، قائلًا: "كفى شعبي ما عانوه، والآن سترى ما سأفعله". ومن ثَمَّ أطلق أوسع عرضٍ للقدرة الإلهيَّة شهده العالَم على الإطلاق. فعشرَ مرَّاتٍ تدخَّل على نطاق هائل بحيث لم يتسنَّ لأيِّ شخصٍ فرد في مصر أن يشكَّ بوجود إله العبرانيِّين. إذ إنَّ مليارات الضفادع والبعوض والذباب وحبَّات البَرَد والجراد جميعًا قدَّمت برهانًا ملموسًا على حقيقة ربِّ الخليقة كلِّها.

وعلى مدى الأربعين سنة التالية، سني الارتحال التائه في البريَّة، حمل الله شعبه "كما يحمل الأبُ ابنه". فإنَّه أطعم بني إسرائيل وكساهم، ورسم خطَّ ارتحالهم اليوميّ، وخاض حروبهم.

هلِ الله ظالم؟ أهو صامت؟ أهو مختبئ؟ لا بدَّ أنَّ أسئلةً كهذه أقلقت العبرانيِّين

إلى أن برز الله على المسرح في حياة موسى. فقد عاقب على الشرِّ وكافأ على الخير. وتكلَّم بصوتٍ مسموع. وجعل نفسه مرئيًّا، أوَّلًا لموسى في علَّيقة مشتعلة، ثمَّ لبني إسرائيل جميعًا في عمودٍ من سحاب ومن نار.

إنَّ استجابة بني إسرائيل لهذا التدخُّل المباشر تُوفِّر تبصُّرًا هامًّا في الحدود الطبيعيَّة لكلِّ قدرة. ففي وسع القدرة أن تفعل كلَّ شيء، ولكنَّ أهمَّ شيء أنَّها لا تستطيع التحكُّم في المحبَّة. إذ إنَّ الضربات العشر في الخروج تُبيِّن قدرة الله على فرعونٍ مصريّ. ولكنَّ التمرُّدات الكبيرة العشرة المذكورة في سفر العدد تُبيِّن عجز القدرة عن إحداث ما رغب الله فيه أكثر الكلّ، ألا وهو المحبَّة والأمانة من قِبَل شعبه. فما من استعراضات مشهديَّة لقدرة الله على كلِّ شيء استطاعت أن تحملهم على الوثوق به واتِّباعه.

ولسنا في حاجة إلى العبرانيِّين القُدامى لتعليمنا هذه الحقيقة. إذ يمكننا أن نراها اليوم في المجتمعات التي تُفلِت فيها القدرة من عقلها. ففي معسكر اعتقال، كما أخبرنا شهود عِيان كثيرون، يحوز الحرَّاس قدرة تكاد تكون غير محدودة. فإذ يستخدمون القوَّة، يمكن أن يحملوك على إنكار إلهك، أو لعن عائلتك، أو العمل بلا أُجرة، أو أكل غائطٍ بشريّ، أو قتل صديقك الأعزّ ودفنه، بل فعل ذلك بوالدتك أيضًا. هذا كلُّه يقع في نطاق قدرتهم، ما عدا أمرًا واحدًا وهو أنَّهم لا يستطيعون إرغامك على أن تحبَّهم.

وحقيقة كون المحبَّة لا تعمل بموجب قواعد القدرة قد تساعدنا على تعليل إحجام الله أحيانًا عن استخدام قدرته. فهو خلقنا كي نحبَّه، ولكنَّ عروضه المعجزيَّة الأكثر تأثيرًا- من النوع الذي قد نتوق إليه سرًّا- لا تفعل شيئًا يؤول إلى تعزيز تلك المحبَّة. وعلى حدِّ تعبير دوغلاس جان هُول: "ليست إشكاليَّة الله أنَّه لا يقدر أن يفعل أُمورًا معينَّة، بل إشكاليَّة الله أنَّه يحبّ. فالمحبَّة تُعقِّد حياة الله كما تُعقِّد كلَّ حياة".

حتَّى إنَّ إله الكون، عندما تُزدرى محبَّته، يشعر على نحوٍ ما بالعجز، شأنه شأن أبٍ خسر ما يُثمِّنه أقصى تثمين. ويُدوِّن الكتاب المقدَّس شبهَ مُذكِّرة بعلاقة الله الرقيقة ببني إسرائيل:

يومَ وُلدتِ لم تُقطع سُرَّتك، ولم تُغسلي بالماء للتنظُّف، ولم تُملَّحي تمليحًا، ولم تُقمَّطي تقميطًا. لم تشفق عليك عين لتصنع لك واحدةً من هذه، لترقَّ لكِ، بل طُرحتِ على وجه الحقل بكراهة نفسكِ يوم وُلدتِ.

فمررتُ بكِ ورأيتكِ مدوسةً بدمك، فقلتُ لكِ بدمك: "عيشي!" جعلتُكِ ربوةً كنبات الحقل، فربوتِ وكبرتِ وبلغت زينة الأزيان. نهد ثدياكِ ونبت شعرك، وقد كنتِ عريانةً وعارية.

فمررتُ بكِ ورأيتكِ، وإذا زمنك زمن الحبّ. فبسطتُ ذيلي عليكِ وسترتُ عورتكِ. وحلفتُ لكِ، ودخلتُ معكِ في عهد- يقول السيّدُ الربُّ- فصرتِ لي.

فحمَّمتكِ بالماء، وغسلتُ عنكِ دماءَك، ومسحتُكِ بالزيت. وألبستُكِ مُطرَّزة، ونعلتُكِ بالتُّخس. وأزَّرتكِ بالكتَّان، وكسوتكِ بزًّا. وحلّيتكِ بالحُليّ: فوضعتُ أسورة في يديكِ، وطوقًا في عنقكِ، ووضعتُ خزامةً في أنفكِ، وأقراطًا في أذنيكِ، وتاج جمالٍ على رأسكِ.

ومع ذلك، فإنّ الله البصير علم مصير بني إسرائيل المأساويّ، كقوله: "إني عرفتُ فكره الذي يُفكّر فيه اليوم، قبل أن أُدخِله إلى الأرض". وإذِ احتشد الشعب بقرب نهر الأُردنّ، في حالة نفسيّة مُستبشِرة على غير عادة، أتاح الله لمحة رائعة على الشعور الذي يُخالِجه لكونه إلهًا. فهو لم يُشارِك في روح التوقُّع الشائعة في المحلّة، ثمَّ وافى موسى إلى خيمة الاجتماع ليُطلِعه على السبب.

وأكثر من أيّ شيء آخر، اشتاق الله أن ينجح العهد: "يا ليت قلبهم كان هكذا فيهم حتَّى يتَّقوني ويحفظوا جميع وصاياي كلَّ الأيّام، لكي يكون لهم ولأولادهم خيرٌ إلى الأبد!" ولكنَّ التمرُّدات المتكرِّرة في البريّة استوفت غرامتها. وقد تنبّأ الله بعصيانٍ رهيب مُقبِل، وأنبأ مُقدَّمًا باستجابته الخاصّة: "وأنا أحجب وجهي في ذلك اليوم". وتكلّم بإقرارٍ يُرثى له، وكأنّه أبو مُدمِن مخدّرات لا يقوى على إيقاف ولده عن تدمير

ذاته، أو كأنَّه زوج مُدمِنة كحول يسمع وعدًا يصحبه الانتحاب بأنَّها ستُبلي حسنًا غدًا أو بعد غد، وعدًا سبق أن نكثت به الزوجة مرَّاتٍ أكثر من أن تُعدّ.

ثُمَّ كلَّف الله موسى مهمَّةً غريبة جدًّا، إذ قال: "اكتبوا لأنفسكم هذا النشيد، وعلّم بني إسرائيل إيّاه... لكي يكون شاهدًا عليهم". وقد عبَّر هذا النشيد شعريًّا عن وجهة نظر الله، فكان كمرثاةٍ ينظمها مُحبٌّ أُحزِن إلى حدّ الهَجر. وهكذا، فإنَّ بني إسرائيل عند ولادة أُمتهم، وقدِ استخفَّهم النشاط إزاء عبور نهر الأُردنّ، سمعوا أوّل أُدية لما يُشبِه نشيدًا وطنيًّا، أغربَ نشيدٍ أُنشِد على الإطلاق. إذ لم تكن فيه فعلًا أيَّةُ كلماتِ أمل، بل تردّدت فيه أصداءُ دينونةٍ فحسب.

لقد ترنّموا أوّلًا عن أيّام الإقبال، لمَّا وجدهم الله في أرض قفر، ورعاهم وصانهم كحدقة عينه. ثمَّ ترنّموا عن الخيانة الرهيبة المُقبِلة، حين ينسَون الإله الذي ولدهم. وترنّموا عن اللعنات التي سوف يُعنَّون بها، كالمجاعة المُذوية، والأوبئة المُهلِكة، والسِّهام السكرانة بالدّماء. بهذه الموسيقى الحُلوة المُرَّة مُجلجِلةً في مسامعهم، تقدّموا إلى داخل أرض الأباء.

إنَّني، مثلَ دَموم يُطارِد فارًّا من العدالة، ما أنفكُّ أعود في خطٍّ مُتعرّج إلى رحلات التيه في البَرِّيّة باحثًا بتلهُّف عن مفاتيح. هوذا خيمة الاجتماع متألّقةً بحضور الله، والفطور المعجزيُّ، وجمهور بني إسرائيل التَّعِس يخبط على غير هُدًى في رمال الصحراء... ففي مكانٍ ما، بين الوعد المشرق وعُقم تلك السنين الأربعين المؤوف، يكمن سرُّ خيبة الأمل بالله. تُرى أيَّ خطبٍ دهى؟

كثيرًا ما تُقتُ أن يتصرَّف الله بطريقة مباشرة، ملموسةٍ عن كثب. حبَّذا لو يُظهِر ذاته فحسب! ولكنْ في أخبار الإخفاق الرهيب لدى بني إسرائيل، يمكنني أن أُدرِك في تصرُّف الله على هذا النحو المباشر جدًّا "أضرارًا" معيَّنة. فإحدى المشاكل التي

واجهوها حالًا كانت الافتقار إلى الحرّيّة الشخصيَّة. فلِكي يعيش بنو إسرائيل قريبين من إله قدُّوس، لم يكن ممكنًا استبعاد أيّ شيء من صُلب شرائعه، لا الجنس ولا الحيض ولا مادّة نسيج الثياب ولا العوائد الغذائيَّة. إذ إنَّ كونهم شعب اختاره الله كان له ثمنُه. فمثلما وجد الله الإقامةَ وسط شعبٍ خاطئ أمرًا شبه مستحيل، كذلك تمامًا وجد بنو إسرائيل العيش مع إله قدُّوس أمرًا شبه مستحيل.

وقد بدا أنَّ الأُمور اليسيرة أزعجتِ الشعب أكبر إزعاج. فلاحِظ تذمُّراتهم الدائمة بشأن الطعام. إذ بقليلٍ من الاستثناءات، أكلوا الطعام نفسه كلَّ يوم طوال أربعين سنة، ألا وهو المنّ (ومعناه حرفيًّا "ما هو؟") وقد كان يظهر كالنّدى على الأرض كلَّ صباح. ولئن بدا نظامٌ غذائيّ رتيب بَدَلًا زهيدًا لقاء التحرير من العبوديَّة، فأصغِ إلى تشكّيهم: "قد تذكّرنا السمك الذي كنّا نأكله في مصر مجّانًا، والقثّاء والبطّيخ والكُرّاث والبصل والثوم. والآن قد يبست أنفسُنا؛ ليس شيءٌ غير أنَّ أعيُننا إلى هذا المنّ!"

فضلًا عن هذه الشؤون الدُّنيويَّة، نشأت مشكلة أخطر بكثير. فكلَّما اقترب الله نحو شعبه أكثر، شعروا بأنَّهم أكثر ابتعادًا عنه، في مُفارقة مُبينة. وقد أرسى موسى نظامًا مُحكَمًا من الطقوس لا بدَّ منه للاقتراب إلى الله، دون أدنى هامشٍ للضّلال أو الخطأ. وكان في وسع بني إسرائيل أن يروا بيِّنةً واضحة على حضور الله في قدس الأقداس، إنَّما لم يجرؤ أحدٌ على الدخول. فإذا شئتَ أن تعرف أيَّ نوع من "العلاقة الشخصيَّة بالله" تمتَّع به بنو إسرائيل، فأصغِ إلى كلمات العابدين أنفسهم: "إنَّنا فَنينا وهلكنا. قد هلكنا جميعًا! كلُّ مَن اقترب إلى مسكن الربّ يموت. أما فنينا تمامًا؟" وأيضًا: "لا أعود أسمع صوت الربِّ إلهي، ولا أرى هذه النار العظيمة أيضًا، لئلّا أموت!"

مرَّةً حدَّق العالم العظيم إسحاق نيوتن، على سبيل الاختبار، إلى صورة الشمس مُنعكِسةً في مرآة، فتوهَّج بهاء الشمس داخل شبكيَّتَي عينيه، وعانى عمًى وقتيًّا. وعلى

الرُّغم من احتجابه ثلاثةَ أيّام خلفَ مصاريع مُغلَقة، أبَت البقعة المتوهِّجة أن تُفارِق بصره. وهاك ما كتبه: "استخدمتُ كلَّ وسيلة كي أُحوِّل تصوُّري عنِ الشمس، ولكنْ كلّما فكّرتُ فيها رأيتُ صورتها حالًا رُغم وجودي في الظلام". ولو أطال نيوتن التحديق دقائق قليلةً بعد، لربَّما فقد بصره كلّيًّا بصورةٍ دائمة. فإنَّ المُستقبِلات الكيماويَّة المُتحكّمة في البصر لا تقوى على مقاومة ضوء الشمس غير المخَفّف بكامل قوّته.

إنَّ لنا في اختبار إسحاق نيوتن عِبرةً مهمَّة، وهو يُعيننا على إيضاح ما تعلّمه بنو إسرائيل في نهاية المطاف مِن ارتحالهم في البرّيَّة تائهين. فقد حاولوا أن يعيشوا مع ربِّ الكون الحاضر في وسطهم بصورة مَرئيَّة؛ ولكنْ في آخر الأمر نجا شخصان فقط بعد معاينة الحضرة الإلهيَّة من بين الآلاف المؤلّفة التي فرَّت من مصر بابتهاج. فإذا كنتَ لا تكاد تحتمل نور الشمعة، فكيف يمكنك أن تحدِّق إلى الشمس؟

"مَن منّا يسكن في نارٍ آكلة؟" هكذا سأل النبيُّ إشعياء. أفلا يُحتمَل أنَّه ينبغي لنا أن نكون شاكرين على احتِجاب الله بدل أن نكون خائبي الأمل؟

الشواهد الكتابيَّة: خروج ١-١٢؛ تثنية ٤؛ حزقيال ١٦؛ تثنية ٣١، ٥، ٣١و ٣٢؛ عدد ١١، ١٧؛ تثنية ١٨؛ إشعياء ٣٣

٩

لحظةٌ مُشرِقة

لمَّا كان ليو تولستوي في التاسعة من عمره، قفز من نافذة في الطابق الثالث ورأسُه إلى أسفل كالغطَّاس، اقتناعًا منه بأنَّ الله سيُساعِده على الطَّيران، فلقي أزمته الكبرى الأُولى على صعيد خيبة الأمل بالله. ومن السَّعد أنْ تولستوي ظلَّ حيًّا بعد هبوطه الخاطف، ليُتاح له بعد سنين كثيرة أن يضحك من اختبار إيمانه الصبيانيّ.

أيُّ ولد لم يستغرق في أحلام يقظته بشأن القوى الخارقة؟ يا ربّ، ساعِدني كي أمشي على سطح هذه البُحيرة. ساعِدني حتّى أغلب ذلك المُتنمّر المُستأسِد. اجعلني ذكيًّا بغير اضطرار إلى الدراسة. ولو أنَّ الله استحسن مرَّةً أن يستجيب إحدى هذه الصلوات، لو أنّه مثلَ ماردٍ في قُمقم منحنا أيّة أُمنية تمنَّيناها، أما كنَّا عندئذٍ نحاول أن نُرضيَه، بدافع من العرفان بالجميل؟ ففي ساعات خيبتي الحالكة، أُفكِّر غريزيًّا هكذا: لو أخرجني الله من هذه المحنة... لو هدأت الأُمور... لو تحسَّنت أحوالي... لكنتُ حينئذٍ أتبع الله.

لقدِ اعتقد صديقي رشيد أنَّ مِن شأن أيِّ إنسان، كما لو كان حيوانًا أليفًا أمينًا، أن يتبع إلهًا يتصرَّف بإنصاف، ويتكلَّم بوضوح، ويُعلِن ذاته بجلاء. إنَّما رحلاتُ تيه بني إسرائيل في البرِّيَّة تُثبِت أنّه مُخطِئ. ولكنْ قد يحتجُّ بعضٌ بأنَّ إيمانهم قد تداعى في

أرضٍ قاسية، في مكانٍ تذكَّره موسى بصفةِ "القفر العظيم المخوف، مكانِ حيّات مُحرِقة وعقارب وعطش، حيث ليس ماء". فمَن لا تخور عزيمته في ظروفٍ كهذه؟ أ كان هنالك أوقاتٌ أسعد، حين بدا الله قريبًا، وحين منح شعبه كلَّ ما تمنَّوه؟

إنَّ نغمة العهد القديم تتألق عندما يبرز اسم داود. ويقول المزمور ٧٨ عن تلك الأيّام: "فاستيقظ الربُّ كنائم، كجبار مُعيِّط من الخمر". إذ وجد الله أخيرًا رجُلًا حسب قلبه تعالى، شخصًا من النوع الذي يستطيع أن يبنيَ أُمَّةً حوله. فالملك الشهوانُ داود خرق كلَّ قانون في الكُتب ما عدا واحدًا، إذ أحبَّ الله بكلِّ قلبه، وكلِّ فكره، وكلِّ نفسه. وبتنصيب داود على عرش بني إسرائيل، انبعثت أحلام العهد جيَّاشة.

ثُمَّ حين تولّى سليمانُ بنُ داود المُلك، نزع الله كلَّ كابحٍ. فما يحلم به الأولاد مجرَّد حُلم، حازه سليمان. وقد عرض الله عليه تلبية أيَّة أُمنية- من طول عُمرٍ وغنًى إلى أيِّ شيءٍ على الإطلاق. ولمَّا اختار سليمان الحكمة، زاده الله علاوة الغنى والكرامة والسلام. ثمَّ ملك في عصرٍ ذهبيٍّ كان لحظةً مُشرِقة من الهدوء والهناءة في تاريخ العبرانيِّين الطويل الحافل بالعناء والعذاب.

سليمان

جلس على عرش بني إسرائيل مُراهِقًا، وسرعان ما أصبح أغنى رجُلٍ في زمانه. ويقول الكتاب المقدَّس إنَّ الفضة كانت كثيرة في أورشليم كثرةَ الحجارة. وجلب أُسطول من سفن التجارة إلى مجموعات الملك الخاصَّة كلَّ غريبٍ ونفيس: قرودًا وسعادين من أفريقيا، وعاجًا وذهبًا بالأطنان. وكانت لسليمان أيضًا موهبة أدبيَّة فذَّة، إذ كتب ألفًا وخمسًا من القصائد وثلاثة آلافٍ من الأمثال.

وقد سافر الحُكّام مئات الكيلومترات لاختبار حكمة سليمان مباشرةً، ومشاهدة المدينة العظمى التي شيَّدها. وقالت له ملكة سبا التي كانت من جملة أولئك الحُكّام:

صحيحًا كان الخبر الذي سمعتُه في أرضي عن أُمورك وعن حكمتك. ولم أُصدِّقِ الأخبار حتّى جئتُ وأبصرَت عيناي. فهوذا النصف لم أُخبر به. زدتَ حكمةً وصلاحًا على الخبر الذي سمعته. طوبى لرجالك، وطوبى لعبيدك، هؤلاء الواقفين أمامك دائمًا، السامعين حكمتك. ليكُن مباركًا الربُّ إلهك الذي سُرَّ بك وجعلك على كرسيِّ إسرائيل.

كلماتٌ مؤثِّرة من ملكة قدَّمت إلى سليمان هديَّة وداعيَّة كانت أربعة أطنان ونصفًا من الذهب الخالص!

وبماذا شعر الله في أثناء تلك الأيّام السعيدة الزاهرة؟ بالارتياح والسرور والابتهاج، فالكتاب المقدَّس يُلمِّح إلى هذه كلِّها، إذ تلاشى مُتذمِّرو العبرانيِّين، وبذل سليمان كلَّ جهد لجعل الله يشعر بأنَّه محبوب. وقد جاد سليمان بثراء مملكته لتشييد هيكل ضخم أسهم في إنشائه مئتا ألف صانع، وبات يُعتبر واحدًا من عجائب الدُّنيا. فمن بعيد، كان يتألَّق مثل جبل يُكلِّله الثلج.

وقد بلغ تاريخ العهد القديم إحدى ذُراهُ المشهودة يوم كرَّس سليمان ذلك الهيكل لله. تصوَّرْ مشهدًا سينمائيًّا لمقابلة تخطف الأبصار مع كائن من خارج الأرض. لقد حدث شيءٌ كهذا في أورشليم، إنَّما لم يكن إيهامًا مسرحَهُ اختصاصيُّو المؤثِّرات الخاصَّة. فإنَّ آلافًا من الناس كانوا يُشاهِدون ما حصل في احتفالٍ عامٍّ ضخم. ولمَّا حلَّ مجدُ الله ليملأ الهيكل، فحتّى الكهنة لم يَقوَوا على الوقوف من جرّاء عصفة السحاب.

كان الله في صدد جعْل هيكل سليمان مركز نشاطه على الأرض، وصمَّم الجمهور تلقائيًّا أن يلبثوا أُسبوعَين آخرَين مُعيِّدِين. وإذ جثا سليمان على منبرٍ برونزيٍّ، صلّى بصوتٍ عالٍ، قال: "إنّي قد بنيتُ لك بيت سُكنى، مكانًا لسُكناك إلى الأبد". ثمّ وجد نفسه مدهوشًا، فأردف: "هل يسكن الله حقًّا على الأرض؟ هوذا السماوات وسماء السماوات لا تسعك، فكم بالأقلّ هذا البيت الذي بنيت؟"

وفي ما بعد ردَّ الله قائلًا: "قد سمعت صلاتك وتضرُّعك الذي تضرَّعتَ به أمامي. قدَّستُ هذا البيت... وتكون عيناي وقلبي هناك كلَّ الأيّام". لقد فعلها الله! إنَّ وعوده لإبراهيم وموسى قد تحقَّقت أخيرًا. فآنذاك بات لبني إسرائيل أرض، ووطنٌ ذو حدود آمنة، ورمزٌ متألِّقٌ إلى حضور الله في وسطهم. ولا أحدَ من الحضور في يوم تدشين ذاك الهيكل المشهود أمكنه أن يشكَّ في الله، إذ شاهد الجميع نارَ حضرته وسحابَها. وذلك كلُّه حصل لا في صحراء قاسية ملأى بالحيَّات والعقارب، بل في أرضٍ غنيَّة بالفضَّة والذَّهب.

بوجود كلِّ ما يخطر في البال ممّا يعمل لمصلحة سليمان، بدا للوهلة الأُولى أنَّ سليمان سيتبع الله عارفًا بالجميل وشاكرًا. وصلاتُه التكريسيَّة للهيكل في سفر الملوك الأوَّل ٨ واحدةٌ من أجلِّ الصلوات التي صُلِّيت على الإطلاق. ولكنَّه في أواخر ملكه كان قد بذَّر تقريبًا كلَّ امتيازٍ خُصَّ به. فالشاعر الرقيق الذي تغنَّى بالحبِّ العذريِّ حطَّم كلَّ رقم قياسيٍّ في الإباحيَّة: إذ كان له سبعُ مئة زوجة وثلاثُ مئة سُرِّيَّة! والحكيم الذي ألَّف آلاف الأمثال السامية سفَّهها ببذخٍ لم يُشهَد له مثيلٌ إطلاقًا. وإرضاءً لزوجاته الأجنبيّات المولد، خطا ذلك التقيُّ الذي بنى لله هيكلًا خطوةً أخيرة رهيبة، إذ أدخل عبادة الأصنام إلى مدينة الله المقدَّسة.

ففي غضون جيلٍ واحد، نقل سليمان الأُمَّة من مملكة ناشئة متوكِّلة على الله لمجرَّد البقاء إلى قوَّة سياسيَّة مكتفية ذاتيًّا. ولكنْ على الطريق زاغ بصره عن الرؤيا الأصليَّة التي دعاهم الله إليها. ومن دواعي السخرية أنَّه عند موت سليمان كانت إسرائيل تُماثِل مصر التي هربت منها: دولة ذات فخامة وأُبَّهة تقوم بشؤونها دواوينيَّةٌ منفوجة وعمّالٌ مُسخَّرون، ولها دينُ دولة رسميٌّ تحت إمرةِ الحاكم. فالنجاح في مملكة هذا العالم أقصى الاهتمامَ بمصلحة ملكوت الله. وإذا بالرؤيا المشرقة القصيرة عن أُمَّةِ عهدٍ تضمحلُّ،

حتّى سحب الله تأييده وبركته. وبعد موت سليمان انشطرت إسرائيل شطرين وانزلقت في مهاوي الخراب.

وربَّما زوَّدنا اقتباسٌ من أُوسكار وايلد بأفضل شاهدةٍ تُرفع على قبر سليمان: "في هذا العالم مأساتان فقط. إحداهما ألاَّ يحصل المرء على ما يريده، والأُخرى أن يحصل عليه". فإنَّ سليمان حصل على كلِّ ما أراده، ولا سيَّما على رموز القدرة والمقام. وشيئًا فشيئًا، قلَّ اعتماده على الله وزاد على الدعائم التي حوالَيه: أكبرُ دار حريم في العالم، بيتٌ حجمُه ضعفا حجم الهيكل، جيشٌ مُجهَّز بمركباتٍ كثيرة، واقتصادٌ قويّ. ولئن بدا أنَّ النجاح قد أبعدَ أيَّة أزمة من أزمات خيبة الأمل بالله، فقد بدا أيضًا أنَّه أبعد اشتياق سليمان لله أصلًا وفصلًا. فكلَّما ازداد تمتُّعًا بخيرات هذه الدُّنيا، قلَّ تفكُّرًا بمُعطِيهنَّ.

في البرِّيَّة سكن الله في عمودٍ من نار ومن سحاب، على مقربةٍ قريبة جدًّا بحيث "اندلعت" قدرته أحيانًا بقوَّةٍ مدمِّرة. وفي أيّام سليمان بدا أنَّ الله قيَّد تلك القدرة، مخوِّلًا الملك سلطان تمثيله أمام الشعب. أمّا بنو إسرائيل، بعدما انكمشوا خوفًا من الله في البرِّيَّة، فقد نظروا إلى الله نظرة استخفاف عندما تركَّز حضورُه في الهيكل. فكأنَّه تعالى أصبح مجرَّد جزءٍ من تضاريس المملكة!

وردًّا على هذا التحوُّل، تحوَّل الله في هدوء إلى موضع آخر. وفي وسعك أن تلمس هذا التحوُّل بيُسر إذا تصفَّحت العهد القديم، حيث تجد أخبارًا مُستفيضة عن ملوك بني إسرائيل الثلاثة الأوَّلين، شاول وداود وسليمان. إنَّما بعدَ سليمان، تتسارع أخبار الملوك لتُقدِّم صورةً ضبابيَّة عُرضةً للنسيان. ذلك أنَّ الله تحوَّل بالأحرى نحو أنبيائه.

الشواهد الكتابيَّة: تثنية ٨؛ ٢ صموئيل ٧؛ ١ملوك ٨- ١٠.

١٠

النارُ والكلمة

كانت مصادفةً مُروِّعة عدَّها كثيرون عقابًا إلهيًّا. فمنذ أُسبوعين تلقَّى الكاهن دايفد جنكنز ابنُ التاسعة والخمسين- وكان قد أكَّد علانيةً أنَّ ولادة المسيح من عذراء وقيامته ينبغي ألاَّ يؤخَذا بحرفيَّتهما تمامًا- تكريسَه الرسميَّ بصفته أُسقف دُورهام في كاتدرائيَّة يورك وسط صرخات الاحتجاج. وبعد أقلَّ من ثلاثة أيَّام، في ساعات الصباح الأُولى صعق البرقُ السقفَ الخشبيَّ للجناح الجنوبيِّ من الكاتدرائيَّة التي بُنيَت في القرن الثالث عشر. وعند حلول الساعة الثانية والنصف فجرًا كانت ألسنة اللهيب تتصاعد من تلك التُّحفة المعماريَّة من القرون الوسطى والتي هي أكبر كاتدرائيَّة قوطيَّة في أوروبا الغربيَّة. وسرعان ما زعم مُناقِضو جنكنز أنَّ آراءهم قد زُكِّيت... كما أنَّ كاهنًا كان قد طُرد من الكاتدرائيَّة لإطلاقه صرخات احتجاج إبَّان الاحتفال بتكريس الأسقف الجديد ارتأى أنَّ "تدخُّلًا إلهيًّا" ربَّما سبَّب الحريق. واستشهد آخرون بسابقة النبيِّ إيليَّا إذ أنزل نارًا من السماء أحرقت مذبحًا كان قد بناه بمشهدٍ من أنبياء بعل.

تايم، ٢٣ تمُّوز (يوليو)، ١٩٨٤

المشكلة في صاعقة كاتدرائيَّة يورك طبعًا أنَّها تبقى استثناءً جليًّا. فإذا ضربت نارٌ من السماء كنيسةً شهيرة، فماذا نقول عن جميع الكنائس التوحيديَّة المُنكِرة بوقاحة للعقائد المسيحيَّة القويمة، ناهيك بذكر المعابد الوثنيَّة على اختلافها؟ ولماذا ينبغي أن يستنزل دايفد جنكنز الغضب الإلهيَّ فيما المُجدِّف المُجاهِر برتراند رَسِل عاش غيرَ مُعاقَب وبلغ شيخوخةً واهنة؟ ولو أنَّ الله أرسل صواعقَ برقٍ ردًّا على العقيدة الفاسدة، لكان كوكبُنا يتلألأ ليليًّا كشجرةِ عيد الميلاد.

غير أنَّ النار نزلت فعلًا من السماء ذات مرَّة، منذ نحو ثلاثين قرنًا، ومنذئذٍ ما انفكَّ الوُعّاظ يرجعون إلى ذلك المشهد على جبل الكرمل. وفي تلك القصَّة مسحةٌ تولكينيَّة أسطوريَّة: فمثلَ افرُودو في بعثته إلى مُردور، سافر إيليا عبر إسرائيل إلى جبل صحراويٍّ وعر كي يشنَّ حربًا، من نوع المعركة الوحيدة، على ٨٥٠ نبيًّا زائفًا.

إنَّ إيليًّا، النبيَّ الأعصف والأعنف بين أنبياء بني إسرائيل، شغَل الجمهور كساحر بارع. وأغرق الموقع باثنتي عشرة جرَّة كبيرة من الماء– وهو عنصر حيويٌّ ثمين جدًّا بعد ثلاث سنين من القحط. وحين بدا أنَّ إيليًّا يرتجل نكتةً قوميَّة ضخمة، حينئذٍ تمامًا حصل الأمر العجب. إذ سقطت كتلةُ نارٍ كأنَّها نيزك من سماء صافية. وكانت الحرارة شديدةً جدًّا حتَّى ذوَّبت الحجارة والتربة، ولحستِ المياه من القناة كوَقود. فسقط الجمهور على وجوههم إلى الأرض خوفًا ورهبةً، وصاحوا: "الربُّ هو الله! الربُّ هو الله!"

في عرضٍ عامٍّ حاسم دراميّ، هزم الله قوّات الشرِّ هزيمة نكراء. فلا عجب إن كان ذلك المشهد يلوح كبيرًا في حوليّات الإيمان. ولا عجب إن كان أهل زمان المسيح اعتبروه على سبيل الخطإ تجسُّدًا جديدًا لإيليّا. حتّى في الأزمنة الحديثة، إذا ضرب البرق كاتدرائيَّة، يتذكَّر بعضهم بحزنٍ جبل الكرمل.

ومع ذلك، فعندما جلستُ في كوخٍ بكولورادو، وقرأتُ الكتاب المقدَّس باطِّراد، رأيتُ حياة إيليّا في ضوءٍ مختلف تمامًا. فهو وتوأمه أليشع صانع العجائب لم يبرزا كنموذجين أوَّليَّين لأنبياء العهد القديم، بل كاستثناءَين ممتازَين: حيث إنَّ عددًا قليلًا

ممَّن جاؤوا بعدهما حازوا ولو أثرًا يسيرًا من قدرتهما على إجراء المعجزات. فإن تُقنا إلى قدرتهما، نتوق إلى الأمر المغلوط. إذ إنَّ الآيات والعجائبَ التي جرت في أيَّام إيليا كانت صورة عابرة ظهرت على شاشة التاريخ، لا تأثيرَ طويل الأمد لها في بني إسرائيل. إذ لم تندلع نيرانُ نهضاتٍ هائلةٌ؛ وفي أعقاب أقصرِ فورةٍ من الحماسة الدينيَّة، انكفأتِ الأُمَّة من جديد إلى انزلاقها الثابت الطويل بعيدًا عن الله. والملك أخآب الذي كان بين المشاهدين على جبل الكرمل خلَّف تَركة تُظهِره أشرَّ ملك في إسرائيل.

ويظهر أنَّ كرة النار على جبل الكرمل لم يكُن لها أيضًا تأثير ثابت في إيليّا ذاته. فإذ خشي النبيُّ على حياته، جعل بينه وبين الملكة إيزابل، زوجة أخآب الحاقدة، مسافةَ سَفَر أربعين يومًا. ولمَّا التقى الله إيليًّا تاليًا، لم يظهر في نار، ولا في عاصفة عاتية، ولا في زلزلة، بل وافى في همسة، في صوتٍ منخفض خفيف، يكاد يُشبِه الصَّمت. فكان ذلك عرضًا استباقيًّا لتغييرٍ أخّاذٍ مُقبِل.

الأنبياء

لا بدَّ أنَّ اتِّباع النبيِّ إيليًّا كان صعبًا. فبعد زمن غير طويل من الحسم على جبل الكرمل أتى نبيٌّ آخر، هو ميخا، ووقف أمام الملك نفسه، أي أخآب، في ظروفٍ مُماثلة جدًّا. ومثله مثل إيليّا واجه بجسارة أربع مئة نبيٍّ زائف، وبلَّغ رسالةً قارصة من لدنِ الله. ولكنْ بدلًا من سقوط نار من السماء، تلقَّى ميخا صفعةً على الوجه وحُكمًا بالحبس مدَّة.

وبعد إيليّا وأليشع، بدا أن الله قيَّد قدرته الفائقة للطبيعة، مُتحوِّلًا عن الأعمال الباهرة إلى النُّطق بالكلمة. فمُعظم الأنبياء– إشعياء وهوشع وحبقُوق وإرميا وحزقيال– لم يُؤتَوا عُروضَ اقتدار كليٍّ تتدلَّى أمام جمهور مبهور، بل كانت لهم فقط قدرةُ الكلمات. وإذ بدا أن الله ينكفئُ أبعدَ فأبعد، بدأ هؤلاء الأنبياء أنفسُهم يطرحون أسئلة: أسئلة بليغة، أسئلةً تُقِضُّ المضاجع، أسئلةً يُغلِّفها الألم. فقد جهروا بصرخات شعبٍ شعروا أنَّ الله خذلهم.

لطالما أسأتُ قراءة الأنبياء، متى كلَّفتُ نفسي قراءتهم. فقد رأيتُهم أشبه برجالٍ كبار السنّ مُتزمّتين يهزُّون الإصبع، استنزلوا الدينونة على الوثنيّين مثلما فعل إيليّا. ثُمّ اكتشفتُ لدهشتي أنّ لِمَكتوبات الأنبياء القُدماء وَقْعَ أيِّ جزءٍ "حديث" من الكتاب المقدّس. فهي تتناول ذات المواضيع التي تُخيِّم على قرننا الحاليّ كغمامة: صمت الله، هيمنة الشرّ الظاهرة، الألم غير المُخفّف في العالم. وفي الواقع أنّ أسئلة الأنبياء هي أسئلة هذا الكتاب: ظُلم الله وصمته واحتجابه.

فعلى نحوٍ وجدانيٍّ يفوق في شغفه ما نراه لدى أيِّ شخص آخر في التاريخ، عبَّر أنبياء بني إسرائيل جهرًا عن شعور خيبة الأمل بالله. لماذا تزدهر الأمم الكافرة؟ هكذا سألوا. لماذا في العالم هذا القدْر من الفقر والحرمان؟ لمَ العجائب قليلةٌ جدًّا؟ أين أنت، يا الله؟ "لماذا تنسانا إلى الأبد، وتتركنا طول الأيّام؟" أظهِر ذاتك؛ اخرق صمتك. من أجل اسمك، تصرَّفْ فعلًا!

لقد انطلق صوتُ إشعياء، وهو رجلٌ من علياء القوم ومُستشارُ ملوك، بأُسلوب شخصيٍّ بعيدٍ جدًّا عن إيليّا بُعدَ وِنستُن تشرشل عن غاندي. إذ إنَّ إشعياء قال: "حقًّا أنت إلهٌ مُحتجب!" وأيضًا: "ليتك تشقُّ السماوات وتنزل، من حضرتك تتزلزل الجبال!"

واعترض إرميا جهرًا على إخفاق "لاهوت النجاح". ففي أيّامه، كان الأنبياء يُطرحون في الآبار والزنزانات، بل يُنشرون بالمنشار شطرَين أيضًا. وقد شبّه إرميا الله بشخصٍ ضعيف، "إنسانٍ قد تحيَّر، جبّارٍ لا يستطيع أن يخلِّص". حتّى ڤولتير المُلحِد ما كان ليُعبِّر عن الأمر بصورةٍ أفضل: كيف يُعقَل أنّ إلهًا كلّيَّ القدرة والمحبّة يسمح بمثل هذا العالم الفاسد المتخبِط؟

ودعا حبقوق الله كي يشرح لماذا لا تستظهر العدالة أبدًا، أو بتعبيره: "لا يخرج الحُكم البتّة".

حتّى متى يا ربُّ أدعو،

وأنت لا تسمع؟
أصرخ إليك من الظُّلم،
وأنت لا تُخلِّص؟
لِمَ تُريني إثمًا،
وتُبصِرُ جورًا؟

شأنَ سائر بني إسرائيل، كان الأنبياء قد تربَّوا على قصص الانتصار. ففي صغرهم تعلَّموا كيف حرَّر الله شعبه من العبوديّة، ونزل كي يُقيم في وسطهم، وأتى بهم إلى أرض الآباء. أمّا الآن، ففي رؤى المستقبل التي لاحت لهم، بتفصيلٍ بطيء الحركة، تتبخّر تلك الانتصارات كلُّها. وفي نقيضٍ لافتٍ للمشهد الذي لا يُنسى من أيّام سليمان، شاهد النبيُّ حزقيال مجد الله يرتفع ويُرفرِف فوق الهيكل هُنَيهةً، ثُمّ يختفي.

وما رآه حزقيال في رؤيا، شهده إرميا في الواقع الفاقع. إذ دخل العسكر البابليّ الهيكل- وثنيُّون في قدس الأقداس!- ونهبوه، ثمّ أحرقوه حتّى سُوِّيَ بالأرض. (روى مؤرّخون بأنّ الجنود لوّحوا برماحهم في الهواء الخالي عند دخولهم الهيكل بحثًا عن إلهَ العبرانيّين غير المنظور.) وطاف إرميا في شوارع أُورشليم مصدومًا، كناجٍ من هيروشيما يترنّح مصعوقًا بين الرُّكام. آنذاك كُبِّل الملك بالقُيود وأُعميت عيناه، وذُبِح أُمَراء الأُمّة. وفي الحصار النهائيّ طبختِ النساء الحنائن أولادهنّ وأكلنهم.

فأيُّ شعور يُخالج مَن كان نبيًّا في حالٍ كتلك؟ ها هو إرميا يُطلِعنا على ذلك:

من أجل سحق بنت شعبي انسحقتُ،
حزنتُ، أخذتني دهشة...
يا ليت رأسي ماء،
وعينيَّ ينبوع دموع!

فأبكي نهارًا وليلًا

قتلى بنت شعبي...

انسحق قلبي في وسطي،

ارتخت كلُّ عظامي.

صرتُ كإنسان سكران،

ومثل رجُل غلبته الخمر.

ولكنَّ اللمحة الأكثر إذهالًا بين ملامح الأنبياء ليست إطلالتهم "الحديثة" ولا صراخ خيبتهم المشبوب. فالسبب الذي يجعل أسفارهم السبعة عشر تستحقُّ نظرةً عن كثب هو أنّها تشتمل على جواب الله الخاصّ عن أسئلة الأنبياء المُربِكة.

الشواهد الكتابيّة: ١ ملوك ١٧-١٩، ٢٢؛ المراثي ٥؛ إشعياء ٤٥، ٦٤؛ إرميا ١٤؛ حبقوق ١؛ إرميا ٨-٩، ٢٣.

١١

المُحِبُّ المجروح

لقد ردَّ الله الجواب، مدافعًا عن طريقة تسييره للعالم. استشاط غضبًا وبكى، وتكلَّم. وهاك ما قاله:

لستُ صامتًا، فما برحتُ أتكلَّم بأنبيائي!

ونحنُ نميل إلى ترتيب إعلانات الله بحسب تأثيرها الدراميّ، فنضع في القمَّة الظهورات الشخصيَّة الرائعة، وتحتها قليلًا المعجزات الخارقة، ثمَّ كلام الأنبياء في الأسفل. فكُرة النار على جبل الكرمل مثلًا تبدو أكثر إقناعًا من إحدى عظات إرميا الكئيبة. ولكنَّ الله لم يعترف بمثل هذا الترتيب. فبالتفاتةٍ ساخرة، أشار إلى الأنبياء أنفسهم- أولئك الذين كانوا يتساءلون عن صمته بالذات- بُرهانًا على اهتمامه. إذ كيف يُعقل أن تتذمَّر أُمَّةٌ من صمت الله وعندها أمثالُ حزقيال وإرميا ودانيال وإشعياء؟

إنَّ الله لم يعدَّ "مجرَّد الكلام" شكلًا أدنى من أشكال البُرهان. فرُغمَ كلِّ شيء، لم يكن للمعجزات قطُّ تأثيرٌ دائم في إيمان بني إسرائيل. ولكنَّ من شأن الأنبياء أن يكتبوا سجلًا باقيًا، يتمُّ تناقُله عبر الأجيال، عن مُفاتحات الله لشعبه. وكان الله أحيانًا يُشير إلى معجزات الماضي كبراهين على محبَّته، ولكنّه أغلب الأحيان قال شيئًا من قبيل ما يلي، باللهجة المعهودة لدى أبٍ مُغضَب: "من اليوم الذي خرج فيه آباؤكم من

أرض مصر إلى هذا اليوم، أرسلتُ إليكم كلَّ عبيدي الأنبياء، مبكِّرًا كلَّ يوم ومُرسِلًا، فلم يسمعوا لي ولم يُميلوا أُذنَهم". وخلَصَ الله إلى القول إنَّ الشعب لم يريدوا حقًّا كلمةً من الربِّ، فبرهنوا صدق كلامه، مُنبِّهين إشعياء أن "كلِّمونا بالناعمات، انظروا مُخادِعات... اعزلوا من أمامنا قدُّوس إسرائيل".

لقد حجبتُ حضوري حقًّا.

لمّا تشكّى الأنبياء جهرًا مِن احتجاب الله، لم يُجادلهم الله. فقد وافقهم، ثمَّ علَّل ابتعاده عنهم.

فلإرميا، عبَّر الله عن اشمئزازه ممّا رآه في إسرائيل: كسبُ غير شريف، سفك دم بريء، ظلمٌ، ابتزاز. وقال إنَّه حجب عينيه، رافضًا أن يرى حتّى الأياديَ الممدودة في وضعيَّة صلاة، لأنَّها أيدٍ مُغطّاةٌ بالدم.

ولحزقيال، بيَّن الله أنَّه لمَّا جاوز عصيان بني إسرائيل حدًّا معيَّنًا "أسلمهم لخطاياهم فحسب. لقد انسحب، تاركًا الشعب يختارون طريقهم ويتحمَّلون العواقب.

ولزكريَّا قال: "كما ناديتُ فلم يسمعوا، كذلك يُنادون هم فلا أسمع".

تمهُّلي في التصرُّف علامة رحمة، لا ضعف.

لمّا لم يُعاقِب الله سريعًا، افترض بنو إسرائيل أنَّه فقد قدرته: "ليس هو، ولا يأتي علينا شرٌّ، ولا نرى سيفًا ولا جوعًا!" ولكنَّهم كانوا مُخطئين. فإن تمهَّل الله آنذٍ بمُهلة رحمة، بفترةِ اختبارٍ منحها للشعب. ثمَّ على مضض، كأبٍ لا يعود له خِيار، لجأ الله إلى العقاب.

لقد نزل العقاب على بني إسرائيل في صورة اجتياحات أجنبيَّة. ولكنَّ الأنبياء يتحدَّثون أيضًا عن حلول "يوم الربِّ" في آخِر الزمان. ففي سياق أوصافٍ مُشرِقة لسماءٍ جديدة وأرضٍ جديدة هنالك بعضٌ من الرؤى الأُخرويَّة الأشدِّ هولًا ورهبةً بين كلِّ ما عبَّرت عنه الكلمات على الإطلاق. وكما قال دايترش بونهويفر، فقبل أن نسمع الكلمة الأخيرة يجب أن نسمع الكلمة التي قبل الأخيرة. وكلّما أمعنتُ في دراسة أوصاف الأيّام الأخيرة، ازددتُ قناعةً "بحياء" الله الظاهريِّ في التدخُّل بشؤون البشر.

في أوقات خيبة أملي بالله شخصيًّا، دعوتُه كي يتصرَّف بقوَّة. فصلَّيتُ للحدِّ من الطغيان السياسيِّ والظُّلم والجَور. وصلَّيتُ طالبًا معجزة، برهانًا على وجود الله. ولكنْ حين قرأتُ أوصاف الأنبياء لليوم الذي سينزع فيه الله أخيرًا كلَّ قناع، طغت على سائر الصلوات صلاةٌ واحدة: "يا ربّ، أرجو ألاَّ أكون حاضرًا حينذاك!" إنَّ الله يُقِرُّ صراحةً بأنَّه يكبح قدرته، ولكنَّه يُقيِّد ذاته لأجل خيرنا. ولجميع المستهزئين الذين يطالبون بتدخُّل فعليٍّ مباشر من قِبَل السماء، يُقدِّم الأنبياء نصيحةً تُنذِر بالويل: ما عليكم سوى الانتظار!

لئن بَدَت أحكام دينونتي صارمة، فأنا أُعاني معكم.

لقد عبَّر الله للأنبياء عن أعمق مشاعره. فإليك مثلًا شعوره حيال خراب موآب، أحد أعداء بني إسرائيل قديمًا:

أُوَلوِل على موآب،

وعلى موآب كلِّه أصرخ...

يُصوِّت قلبي لموآب كناي.

وبالنسبة إلى شعب اختاره الله، فأيُّ خزيٍ وذلٍّ تحمَّلوه تحمَّله هو أيضًا. فإنَّ بني إسرائيل أخذوا يُراقِبون مرعوبين فيما حَمَلة الفؤوس البابليُّون يُشقِّقون عوارض الأرز في الهيكل؛ ولكنَّ المغزوَّ كان بيت الله، فكان لذلك الغزو لدى الله وقْعُ التدنيسِ الشخصيِّ. فإذ دُكَّ الهيكل، دُكَّ مكانُ سُكناه. وإذ سِيق العبرانيُّون أسرى، لم يهزإِ الناس بهم هم بل بالههم العاجز. "لمَّا جاؤوا إلى الأُمم، حيث جاؤوا نجَّسوا اسمي القدُّوس، إذ قالوا لهم: هؤلاء شعب الربِّ وقد خرجوا من أرضهم!"

وفي سفر إشعياء عبارةٌ رائعة تُلخِّص وجهة نظر الله: "في كلِّ ضيقهم تضايق".

فلئن حجب الله وجهه، فإنَّ ذلك الوجه توخَّط بالدموع.

رغمَ كلِّ شيء، أنا مستعدٌّ للغفران في أيِّ آن.

غالبًا ما كان الله، في وسط توبيخ صارم، يتوقَّف- في منتصف الجملة تمامًا- ليتوسَّل إلى الشعب أن يتوبوا. فأخاب، ملكُ إسرائيل الأشرُ، مُنح فُرصةً أخرى بعد حَدَث جبل الكرمل، ثُمَّ أُخرى، ثُمَّ أُخرى. وقد وضَّح الله لحزقيال قائلًا: "ارجعوا، ارجعوا عن طرقكم الرديئة! فلماذا تموتون يا بيت إسرائيل؟" وقال لإرميا إنَّه إن وجد في أُورشليم صدِّيقًا واحدًا يعفو عن المدينة كلِّها.

ولا يُعبِّر عن اشتياق الله لبذل الغفران أفضلُ من سفر يونان. فهذا السفر يحتوي على نبوَّةٍ في سُطَيرٍ واحد فقط: "بعد أربعين يومًا تنقلب المدينة". ولكنْ، لاشمئزاز يونان، ذلكَ الإعلانُ البسيط للخراب المُقبِل أضرم شرارة نهضة روحيَّة في نينوى المكروهة وبدَّل خُطط الله بشأن العقاب. وإذ قبع يونان تحت تعريشة اليقطين الذابلة، أقرَّ بأنَّه ما انفكَّ يرتاب بقلب الله الرقيق طولَ الطريق: "علمتُ أنّك إله رؤوفٌ ورحيم، بطيء الغضب وكثير الرحمة، ونادمٌ على الشرّ". وهكذا، فإنَّ كامل السيناريو الذي انعقد على النبيِّ الحَرون، والنَّوء البحريِّ، وانعطاف الحوت، حدث لأنَّ يونان لم يستطع أن يثق بالله، أعني أنه لم يستطع أن يثق بأنَّه تعالى سيكون قاسيًا وغير شفوق تُجاه نينوى. وقد لخَّص روبرت القصَّة حسنًا: "بعدَ يونان، ليس في وسعك أبدًا أن تثق بأنَّ الله لن يكون رحيمًا مرَّةً ثانية".

العاطفة

مع أنَّ الله أجاب عن أسئلة الأنبياء مباشرةً، فإنَّ تفسيراته لم تُرضِ بني إسرائيل. فمعرفة السبب الكامن وراء بليَّةٍ ما، لا يُقلِّل إحساس الألم والخيانة. وبالحقيقة أنَّ "دفاع" الله المنطقيَّ يبدو مطروحًا جانبًا كأنَّه حديثٌ جانبيٌّ تقريبًا. فالأنبياء ليسوا مَعنيِّين بالأسئلة العقليَّة كما هم مَعنيُّون بعاطفة الله. أيُّ شعور يخالج الله لكونه إلهًا؟ لفهم هذا، فكِّر في اثنتَين من الاستعارات البشريَّة التي يُشدِّد عليها الأنبياء مرارًا وتكرارًا: الله أبًا، ثُمَّ مُحِبًّا.

راقِب أبوين يُرزَقان ولدًا بِكرًا، يبدو لك أنَّ حديثهما يقتصر على موضوع واحد: الولد. إنَّهما يتبجَّحان بأنَّ طفلهما المتغضِّن المتورِّد هو أجمل ولدٍ وُلد يومًا. وهما يُنفِقان مئات الدولارات على تجهيزاتٍ تُيسِّر لهما أن يُصوِّرا ويُسجِّلا أوَّل كلمات متلعثمة وأوَّل خطوات متعثِّرة، وهي مهاراتٌ عاديَّة يُتقِنها تقريبًا جميع أهل الأرض الذين يُناهِز عددُهم السبعة مليارات. فمثل هذا السلوك الغريب يُعبِّر عن فخر أبٍ جديد وفرحه بعلاقةٍ بشريَّة لا مثيلَ لها.

وباختيارِ الله لبني إسرائيل قديمًا، كان تعالى يتوخَّى علاقةً من هذا النوع. فقد أراد ما يريده أيُّ أب: أُسرةٌ من الأولاد الذين يُبادِلون أباهم المحبَّة. ويتهلَّل صوتُه فخرًا إذ يستعيد ذكرى الأيَّام الباكرة: "هل أفرايمُ ابنٌ عزيزٌ لديَّ، أو ولد مُسِرّ؟" ولكنَّ البهجة تتلاشى إذ ينتقل الله فجأةً من منظورِ أبٍ إلى منظورِ مُحِبٍّ... مجروح. فإنَّه يسأل بلهجة حزنٍ واشمئزاز وسخط: فيمَ أخطأتُ فعلًا؟

لمَّا أشبعتُهم زنَوا،

وفي بيت زانيةٍ تزاحموا.

صاروا حُصُنًا معلوفةً سائبة،

صهلوا كلٌّ واحد على امرأة صاحبه.

أما أُعاقِب على هذا؟

عند قراءتي أسفار الأنبياء، لا يسعني إلاَّ أن أتصوَّر مُستشارًا يجلس الله أمامَه زبونًا، حيث يتفوَّه المستشار بجملةٍ أساسيَّة واحدة: "أخبرني بحقيقة شعورك". ثمَّ يتولَّى الله الكلام.

"إنِّي مُخبرُك بحقيقة شعوري! أنا أشعر شعورَ أبٍ مرفوض. وجدتُ طفلةً مرميَّةً في خندق، توشِك أن تموت. فحملتُها إلى بيتي وجعلتُها ابنتي. نظَّفتُها، وأنفقتُ

على تعليمها، وأطعمتُها. شُغِفتُ بها، وكسوتُها، وحلَّيتُها بالجواهر. ثُمَّ هربَت ذات يوم. وتصلني أخبارٌ عن حياتها المُنحطَّة. وإذا ذُكر اسمي أمامها، تلعنني.

"إنِّي مُخبرُك بحقيقة شعوري! أنا أشعر شعورَ مُحِبٍّ منبوذ. وجدتُ حبيبتي هزيلةً مريضة مظلومة، فأتيتُ بها إلى البيت وجعلتُ جمالها مُشرِقًا. إنَّها محبوبتي الغالية، أجملُ امرأةٍ في الدُّنيا عندي، وأنا أُغدِق عليها الهدايا والحُبّ. ومع ذلك هجرتني، وهي تلهث وراء أعزِّ أصدقائي، ووراء أعدائي... وأيِّ شخص كان. وهي تقف بجانب الطريق العامّ، وتحت كلِّ شجرةٍ غبياء. وأسوأ من المومس، تدفع مالًا كي يُواقِعَها الرجال. فأنا أشعر بأنِّي مخذول ومهجور وزوجُ فاسقة!"

لا يُخفي الله وجعه. وهو يستخدم لُغةً مُروِّعة، إذ يُصوِّر الأُمَّة القديمة "ناقةً خفيفة ضَبِعة في طرقها... أتانَ الفرا قد تعوَّدتِ البرِّيَّة، في شهوة نفسها تستنشق الريح، عند ضَبَعها مَن يردُّها؟"

وكأنَّما الكلمات وحدها كانت أضعف من أن تُعبِّر عن شغفه، طلب تعالى من نبيٍّ شُجاع، اسمُه هوشع، أن يعيش مَثَلًا حيًّا. فبأمرٍ من الله، تزوَّج هوشع بجومر، وكانت امرأةً سيِّئة السمعة للغاية. ومن ذلك الحين فصاعدًا، عاش المسكين دراما عاطفيَّة مُضنية. فمرَّةً بعد مرَّة، زاغت جومر وأحبَّت رجلًا آخر ورحلت. وكلَّ مرَّة، على نحوٍ لا يُصدَّق، أرشد الله هوشع أن يُرحِّب بعودة جومر ويغفر لها.

فقدِ استخدم الله قصَّة هوشع التَّعِسة إيضاحًا لعواطفه الإلهيَّة المحطَّمة. وقال الله إنَّ نبضة الحبِّ الأُولى حين وجد الأُمَّة كانت أشبه بالعثور على عنب في الصحراء. ولكنْ إذ نقضتِ الأُمَّة ثقته مرَّةً بعد مرَّة، اضطُرَّ إلى تحمُّل العار الرهيب الذي يلحق بمُحِبٍّ مجروح. وفي كلماته نَغَم غير بعيدٍ عن رثاء الذات: "أنا لأفرايم كالعُثّ، ولبيت يهوذا كالسُّوس!"

إنَّ صورة المُحِبِّ المنبوذ، بما فيها من قوَّةِ تعبير، تُبيِّن لماذا يبدو الله، في خطاباته للأنبياء، "مُغيِّرًا فكره" كلَّ بضع ثوان. فها هو يتأهَّب لإزالة الأُمَّة عن وجه الأرض-

مهلًا، هوذا يبكي ويمدُّ ذراعيه المفتوحتين- لا، بل هو ينطق بالدينونة ثانيةً بحزم وصرامة. وهذه الحالاتُ النفسيَّة المتقلِّبة تبدو مُنافيةً للعقل والمنطق بحيث يُفقَد معها كلُّ أمل، إلاَّ في نظر مَن نبذه حبيب.

وتُشبِه كلماتُ الأنبياء كلماتِ شجارٍ بين حبيبَين تتناهى إلينا عبر جدرانٍ رقيقة. وقد تحمَّلت إحدى جاراتي شجارًا كهذا على مدى سنتين. ففي تشرين الثاني (نوڤمبر) همَّت بأن تقتل زوجها الخائن. وفي شباط (فبراير) سامحته ودعته للرجوع إلى البيت. وفي نيسان (أبريل) أقامت دعوى طلاق. وفي آب (أُغسطس) أسقطتِ الدعوى وطلبت من زوجها أن يعود ثانيةً. وقد استغرق الأمر سنتين حتَّى واجهتِ الحقيقة المُرَّة بأنَّ حُبَّها قد نُبِذ إلى الأبد.

هذه تمامًا دورةُ الغضب والحزن والمسامحة والغيرة والحبِّ والألم، تلك التي اجتازها الله بالذات. ويُظهِر الأنبياءُ الله متوسِّلًا لغة، أيَّةَ لُغة، من شأنها أن تخترق الحُجُب لتبلغَ قلب شعبه. وكما كانت جارتي تُقفِل خطَّ الهاتف في وجه زوجها المُبعَد، كان الله أحيانًا يقول للأنبياء إنَّه لن يعود يسمع صلوات شعبه. ومثلما كانت جارتي تلين، كان قلبُ الله يرقُّ أحيانًا ويترجَّى من الشعب أن يُحاوِلوا من جديد. وقد كان حبُّه وغضبه يتصادمان أحيانًا على ما يبدو. ولكنْ أخيرًا، بعد استنفاد الخيارات كلِّها، قرَّر الله أنَّ عليه أن يكفَّ: "أيُّ شيء آخر يُمكن أن أفعله عقابًا لخطايا أورشليم؟"[١]

لقد وصف لي صديقي رشيد شعوره العميق بالخذلان لمَّا "تخلَّى عنه" الله. فقد شعر تمامًا الشعور عينَه حين نبذته خطيبته فجأةً. ولكنَّ الأنبياء، ولا سيَّما هوشع، يُبلِّغون رسالةً فوق جميع الأُخَر: أنَّ الله هو المخذول المنبوذ. فالأُمَّة هي التي فسقت وفسدت.

١ إرميا ٩:٧ (ترجمة كتاب الحياة).

وقد عبَّر الأنبياء العبرانيُّون عن خيبةٍ مُرَّةٍ بالله، مُتَّهمين إيَّاه بالتصرُّف باستعلاء ولامبالاة وصمت. ولكنْ لمَّا تكلَّم الله، أفضى بمشاعرَ كان قد كبتها قرونًا. ثمَّ إنَّه هو، لا الأُمَّة، كان الفريقَ الخائب الأمل حقًّا.

"ماذا أعمل بعد؟" سؤالُ الله الحادُّ هذا لإرميا يدلُّ على مأزق إلهٍ كلِّيِّ القدرة أفسح للحرِّيَّة في المجال. فاللَّقلق في السماوات يعرف ميعاده، وموجة البحر تنقلب في حينها، والثلج يُغطِّي دائمًا الجبال العالية، غير أنَّ الكائنات البشريَّة لا تُشبه أيَّ شيءٍ آخر في الطبيعة. فليس في وسع الله أن يسيطر عليهم ويتحكَّم فيهم. إلاَّ أنَّه أيضًا لا يسعه أن يدفعهم ويطرحهم جانبًا. إنَّه لا يستطيع أن يطرد البشريَّة من فكره.

الشواهد الكتابيَّة: إرميا ٧؛ إشعياء ٣٠؛ إرميا ٥؛ حزقيال ٢٠؛ زكريّا ٧؛ إرميا ٥، ٤٨؛ حزقيال ٣٦؛ إشعياء ٦٣؛ حزقيال ٣٣؛ يونان ٣و٤؛ إرميا ٣١، ٥، ٢؛ هوشع ٩، ٥؛ إرميا ٩.

١١

أروعُ من أن يكونَ صحيحًا

الحزن يذوب ويتضاءل،
كالثلج في شهر نوّار،
وكأن لم يكُن شيءٌ باردٌ كهذا!

جورج هربرت، "الزَّهرة"

ذاتَ يوم كان جورج مكدونلد، الواعظ والكاتب الأُسكتلنديُّ الكبير، يتحدَّث مع ابنه، فتطرَّق الحديث إلى السماء ورؤيا الأنبياء لنهاية كلِّ شيء. وقال الابن عند إحدى النقاط: "يبدو الأمر أروعَ من أن يكون صحيحًا". فارتسمتِ ابتسامةٌ عريضة على وجه مكدونلد ذي الشاربين، وأجاب: "لا، بل هو رائعٌ جدًّا بحيث يجب أن يكون صحيحًا!"

أَيْنَ عواطف البشر أعمقُ جذورًا من الرجاء؟ فالحكايات الخياليَّة تنقل عبر الأجيال رجاءً وطيدًا بنهاية سعيدة، اقتناعًا بأنَّ الساحرة الشِّريرة ستموت في آخر الأمر والأولاد الشجعان الأبرياء لا بدَّ أن يعثروا على سبيلٍ للنجاة بطريقةٍ ما. وأكثرُ من عشرة عروض صُوَر متحرِّكة دفعةً واحدة على شاشة التلفزيون صبيحةَ السبت تغرس رسالةً مُماثلةً في عقول الصغار الذين يجلسون مفتونين، وهم أصغر سنًّا من أن يَستهجِنوا

الختامات البهيجة غير المعقولة. وفي الحياة الواقعيَّة، رُبَّ أُمٍّ عالقة في منطقة معارك تشدُّ طفلها إلى صدرها وتُربِّت على رأسه، هامسةً بغير منطق: "سنكون بخير!" ولو كانت الانفجارات المُدوِّية تزداد اقترابًا.

من أين يأتي مثلُ هذا الرجاء؟ بحثًا عن كلماتٍ لتفسير افتتان الناس دائمًا بالحكايات الخيالية، قال تُولكين:

> لا تنكر الحكايات الخيالية وجود الحزن والفشل: فاحتمالُ هذين ضروريٌّ لبهجة النجاة؛ بل إنَّها تُنكر (في مواجهة كثير من البيِّنات، إن شئتَ) الهزيمة النهائيَّة الكونيَّة، مُقدِّمةً لمحةً زائلة من الفرح، الفرحِ خارجَ أسوار هذا العالم، لاذعةً كالحزن.

ولا تكتمل أيَّة خُلاصة للأنبياء بمعزلٍ عن رسالةٍ أخيرة تكمن في إصرارهم عالي النبرة على أنَّ العالم لن ينتهي إلى "الهزيمة النهائيَّة الكونيَّة"، بل إلى الفرح. فقد تكلَّموا في أزمنة مُنذِرة بالشرِّ إلى جماهير استولى عليها الخوف، وكثيرًا ما أضرمت تنبُّؤاتُهم الرهيبة ذلك الخوفَ بأزمنة القحط، وضربات الجراد، وحصارات الأعداء. ولكنَّ أنبياء العهد القديم دائمًا، في كُلٍّ من أسفارهم السبعة عشر، انعطفوا إلى كلمة رجاء. فإنَّ المُحبَّ المجروح سوف يتعافى من ألمه، على ما وعد به إشعياء: "لُحَيظةً تركتُكِ، وبمراحمَ عظيمة سأجمعك".

حتَّى إذا التفتَ الأنبياء أخيرًا كي يَصِفوا الفرح القائم خارج أسوار العالم الحاضر، تصدحُ أصواتهم عاليةً كأصوات الطيور المغرِّدة. ففي ذلك اليوم الأخير، سوف يلفُّ الله الأرض كسجَّادة ثمَّ ينسجها من جديد. وسوف تأكل الذئاب والخراف معًا في حقلٍ واحد، كما يرعى الأسد بسلام إلى جانب الثور.

ويقول ملاخي إنَّنا ذات يوم سنقفز مثل العجول التي تُطلَق من الحظيرة. آنذاك

لن يكون خوفٌ ولا ألم. فلا أطفالَ يموتون، ولا دموعَ تجري. وسوف يفيض السلام بين الأُمم كنهر، وتصهر الجيوش أسلحتها لتتحوَّل إلى أدواتٍ للزراعة. ولن يتشكَّى أحدٌ يومذاك مِن احتجاب الله. فإنَّ مجده سيملأ الأرض، حتَّى إنَّ الشمسَ سَتبدو قاتمةً إذا ما قورنت به.

ففي نظر الأنبياء، ليس التاريخ البشريُّ غايةً في ذاته، بل فترةُ انتقال، مرحلةٌ فاصلة بين عدن والسماء والأرض الجديدتين اللتين سوف يكوِّنهما الله بعد. حتَّى حين يبدو كلُّ شيءٍ خارجًا عن السيطرة، يكون الله ماسكًا زمام الأُمور بإحكام، ولسوف يؤكِّد ذاته يومًا.*

المدَّة الفاصلة

ولكنْ ما القول بشأن الوقت الراهن؟ أعلينا أن ننتظر إلى ما بعد الموت للحصول على جميع الأجوبة المُفعَمة بالمعنى عن مسألة خيبة الأمل بالله؟ بعد زوال الأنبياء بالموت واحدًا إثرَ واحد، بدأ العبرانيُّون يطرحون أسئلة من هذا القبيل، إذ عادتِ السماء إلى الصمت مرَّةً أخرى: "آياتنا لا نرى. لا نبيَّ بعد، ولا بيننا مَن يعرف حتَّى متى! حتَّى متى، يا الله، يُعيِّر المُقاوم ويُهين العدوُّ اسمك إلى الغاية؟"

بعدما سُلخ العبرانيُّون عن وطنهم، وبيعوا مرَّةً أُخرى عبيدًا، تمسَّكوا بوعود الأنبياء

* لا يجد بعضهم عزاءً في رؤيا عالَم المستقبل لدى الأنبياء، قائلين إنَّه مُجرَّد حُلم ورديّ. ويقولون إنَّ الكنيسة قد عزفت هذا الوتر طوال قرون لتسويغ العبوديَّة والطغيان وكلّ ضربٍ من ضروب الظُّلم. فهُم يعزِّزون الرجاء بالسماء لدى الفقراء كي يصرفوهم عن طلب الكثير على الأرض. وتلتصق التُّهمة بالكنيسة لأنَّها قد أساءت استعمال رؤيا الأنبياء. ولكنَّك لن تجد أبدًا لذاك الحلم الورديّ أساسًا منطقيًّا عند الأنبياء أنفسهم. فقد تفوَّه عاموس وهوشع وإشعياء وإرميا بكلام قاسٍ جدًّا عن وجوب الاعتناء بالأرامل والأيتام والغرباء، وعن وجوب تطهير القضاء الفاسد، وإصلاح النُّظم الدينيَّة. إذ ليس على شعب الله أن يكتفوا بتسجيل الوقت وهم ينتظرون تقدُّم الله كي يُقوِّم كلَّ ما هو خطأ. بل إنَّ عليهم بالأحرى أن يقدِّموا نموذجًا عن السماء والأرض الجديدتين، وبعملهم هذا يضرمون الاشتياق لِما سوف يُجريه الله فعلًا ذات يوم.

بمجيء مُخلِّص وحلول مستقبل آمِن. وإذ مرَّت العقود، بل القرون أيضًا، قامت وسقطت إمبراطوريّات- بابل وفارس ومصر واليونان وآرام وروما- وطارد جيوشُها بعضُهم بعضًا على سهول فلسطين. وقد أخضعت كلُّ إمبراطوريَّة جديدة العبرانيِّين بسهولة فائقة، كمن يمسح قدميه على ممسحة أرجُل. وأحيانًا أشرف الجنس بكامله على الزَّوال.

فلم يظهر شخصٌ كموسى ليُخرِج الأُمَّة من العبوديَّة. ولا قام أمثال إيليا ليستنزِلوا كُرات النار من السماء. ولا شعَّ من الهيكل في أورشليم أَلَقٌ نيِّر. وإلى أن جاء الملك هيرودس ذو الوَلَع بالمباني الفاخرة المُعجِبة، ظلَّ موقع الهيكل غيرَ مُكتمِل البناء، إذ بقي كومةً من الركام تستدعي الخِزيَ أكثرَ من الفخر.

عند نهاية العهد القديم، كان الله مُحتجبًا. وقد سبق فتوعَّد بأن يحجب وجهه، فلمّا فعل ذلك أخيرًا خيَّم على كوكبنا ظلٌّ قاتم. وخيبةُ أملنا بالله بعد ذلك بخمسة وعشرين قرنًا هي صدمةٌ ارتداديَّة لِما شعر به بنو إسرائيل لمّا أدار الله ظهره. وربَّما كان لنا اليوم أن نجد بعض العزاء في الالتفات إلى الدروس المستفادة من الماضي. ولنا أن نرى "أضرار تدخُّلات الله المباشرة: أنَّ حضوره، وهو أبهى من أن نحتمله، يُخلِّف لدينا آثار انسِفاع، ويُوجِد مسافةَ تباعُد، وأسوأُ من ذلك بعدُ أنّه أيضًا لا يُعزِّز الإيمان على ما يبدو. ولنا أن نجد عزاءً في التطلُّع قُدمًا إلى الحياة الأبديَّة الخالية من الدموع والأوجاع، في بُعدٍ جديدٍ بمكانٍ ما، بعد تحويلنا إلى كائنات قادرة على احتمال حضرة الله. ولكنْ ما حُكم الفترة الفاصلة بل المدَّة الرديئة؟ شأنُنا شأنُ العبرانيِّين، نشعر باحتجاب الله في شكلِ خيبة أمل، وغمٍّ في القلب، وشكٍّ لا يقرُّ له قرارٌ البتَّة.

تفصل بين آخِر كلمات ملاخي في العهد القديم وأوَّل كلمات متّى في العهد الجديد أربعةُ قرون يُطلَق عليها عنوان "سنو الصمت الأربع مئة". وهذا التعبير يؤشِّر إلى حقبة تحفُّ بها خيبةُ الأمل بالله. هل كان الله مهتمًّا؟ لا بل هل كان حيًّا؟ لقد بدا أصمَّ حيال صلوات اليهود. ومع ذلك، رغمَ كلِّ شيء، ظلُّوا ينتظرون مسيحًا، إذ لم يكن عندهم أيُّ رجاء آخر.

كان الله قد سأل: "ماذا أفعلُ بعدُ؟" وقد كان ثمَّة شيءٌ بعد. فما لم يكن ممكنًا الفوزُ به بالقوَّة، كان مُزمِعًا أن يفوز به بالألم.

يبكي الله معنا حتّى يُتاح لنا ذات يوم أن نضحك معه.

يورغِن مُلتمَن

الشواهد الكتابيَّة: إشعياء ٥٤؛ ملاخي ٤؛ المزمور ٧٤.

القسم الثالث

الاقترابُ الأقرب: الابن

١٣

التنازُل

يبدأ كيركيغارد قصَّةً كتبها، فيقول:

هَبْ ملكًا أحبَّ فتاةً وضيعة. ولم يكن لذلك الملك مثيلٌ بين الملوك. وكان كلُّ واحدٍ من رجال الدولة يرتعد أمام جبروته. ولم يجرؤ أحدٌ أن ينبس بكلمة عليه، إذ كان قادرًا على سحق خصومه جميعًا. ومع ذلك ذاب قلبُ هذا الملك الجبّار حبًّا بعذراء وضيعة.

كيف يمكنه أن يُعلن حبَّه لها؟ تدعو إلى الاستغراب، بطريقة قام بوضع يديه في الأغلال مع كونهِ الملك. فلو أتى بها إلى القصر وكلَّل رأسها بالجواهر وكسا جسمها بالأثواب الملوكيَّة، ما كانت لتُقاوِم طبعًا... فلا أحد كان يجرؤ أن يُقاومه. ولكن هل تُبادله الحبَّ يا تُرى؟

طبعًا، ستقول إنَّها أحبَّته، ولكن هل أحبَّته فعلًا؟ أم هل تعيش معه في خوف، مُضمِرةً حزنًا دفينًا على الحياة التي خلَّفتها وراءها؟ أتكون سعيدةً إلى جانبه؟ وكيف يعلم؟

لو استقلَّ مركبته الملوكيَّة وتوجَّه إلى كوخها في الغابة، يُحيط به موكبٌ مسلَّحٌ تخفق راياته الباهرة، لَخَلَبَ ذلك أيضًا لُبَّها. ولكنَّه لم يُرِد تابعةً ذليلة، بل أراد مساويةً له. فقد أراد لها أن تنسى أنَّه ملك وأنَّها صبيَّة وضيعة، وأن يدع

الحبَّ المتبادَل يُجسِّر الهوَّة بينهما.

ثمَّ يخلص كيركيغارد إلى القول: "فإنَّه بالحبِّ وحده يمكن أن يُجعَل غير المُساوي مُساويًا". وإذِ اقتنع الملك بأنَّه لا يستطيع أن يُرفِّع تلك الصبيَّة بغير أن يسحقها، قرَّر أن يتنازل. فارتدى ثياب مُتسوِّل واقترب من كوخها مُستخفيًا، بعباءةٍ بالية مُتهدِّلة حوله. ولم يكن ذلك مجرَّد تنكُّر، بل هويَّةً جديدةً اتَّخذها. فقد تخلَّى عن العرش كي يفوز بقلبها.

إنَّ ما عبَّر عنه كيركيغارد بمَثَل رمزيّ، عبَّر عنه الرسول بولس بالكلمات التالية عن يسوع المسيح:

إذ كان في صورة الله،
لم يحسب خلسةً أن يكون معادلاً لله،
لكنَّه أخلى نفسه،
آخذًا صورة عبد،
صائرًا في شبه الناس.
وإذ وُجد في الهيئة كإنسان،
وضع نفسه وأطاع حتى الموتَ،
موتَ الصليب!

وفي الواقع أنَّ الله، في معاملاته مع البشر، كثيرًا ما وضع نفسه. فأنا أرى كتاب العهد القديم بمثابة سجلٍّ طويلٍ واحد يُبيِّن "تنازُلات" الله. إذ تَنازَل الله بطُرق شتَّى ليتكلم إلى إبراهيم، وإلى موسى، وبني إسرائيل والأنبياء. ولكنْ ما من تنازُل يمكن أن يُضاهيَ ما حصل تاليًا، بعد فترة الصمت التي دامت أربع مئة سنة. فإنَّ الله، مثلَ الملك في قصَّة كيركيغارد، اتَّخذ هيئة جديدة، إذ صار إنسانًا. وكان ذلك أعجب تنازُل مُذهِل يمكن تصوُّره.

لا تخافوا

كلمتان نسمعهما كلَّ موسمٍ ميلاديٍّ في المهرجانات الكنسيَّة، عندما يرتدي الأولاد أرواب حمّام ويمثِّلون أحداث ولادة المسيح. "لاتخافوا!" تخرج من بين شفتَي الملاك الصغير، ابن السنوات الستّ، وزيُّه الشبيه بملاءة الحرير ينسحب على الأرض، وجناحاه المعلَّقان على كتفيه يهتزّان قليلًا من ارتجاف جسمه. ثمَّ يختلس نظرةً إلى الورقة المكتوبة المخفيَّة في طيَّة كُمِّه ليقول: "لا تخافوا! فها أنا أُبشِّركم بفرحٍ عظيم".

وكان قد ظهر لزكريّا (أخيه الأكبر ذي اللحية القطنيَّة المعلَّقة على خدَّيه) ولمريم (الشقراء المنمَّشة من الصفّ الابتدائيّ الثاني). وقد استهلَّ كلامه إلى كليهما بالعبارة عينها: "لا تخف... لا تخافي!"

أيضًا كانت العبارة نفسُها أوَّل كلمتين من الله لإبراهيم، وهاجر، وإسحاق. وقال الملاك: "لا تخف!" عند تحيَّة جدعون، والنبيِّ دانيال. فبالنسبة إلى الكائنات الفائقة للطبيعة، كادت تلك العبارة تؤدّي دور مُعادلٍ للقول "مرحبًا! كيف الحال؟" ولا عجب. فقبل أن يتكلَّم الكائن الفائق، يكون الكائن البشريُّ قد خرَّ على وجهه في حالة إغماء. ومتى تواصلَ الله مع كوكب الأرض، كانت المقابلة الخارقة أحيانًا تُدوِّي دويَّ الرعد، وأحيانًا تُحرِّك الريح كالزوبعة، وأحيانًا تنوِّر المشهد كومضة فوسفور. وكلَّ حين تقريبًا كانت تبعث الخوف. غير أنَّ الملاك الذي زار زكريّا ومريم ويوسف بشَّر بأنَّ الله يوشك أن يظهر بهيئةٍ لن تُخيف.

فأيُّ شيءٍ يمكن أن يكون أقلَّ إخافةً من طفلٍ وليد لتوِّه ذي أطرافٍ مرتعشة وعينين لا تقويان على التركيز؟ ذلك أنَّه بيسوع، وقد وُلِد في حظيرةٍ أو كهف وأُضجع في معلفٍ لإطعام البهائم، وجد الله أخيرًا طريقةَ مُقاربة لا داعيَ لأن يخافها البشر. لقد طرح الملك رداءه جانبًا.

فكِّر في التنازُل المُتضمَّن: أنَّ التجسُّد الذي شطر التاريخ قسمين (حقيقةٌ تعترف بها روزناماتنا ولو على مضض) كان له شهودٌ من الحيوانات أكثر منهم من البشر. وفكِّر

أيضًا في المجازفة. ففي التجسُّد، مدَّ الله جسرًا فوق هوَّة الخوف الشاسعة التي جعلته في السابق بعيدًا عن خلائقه البشر. ولكنَّ إزالة ذلك الحاجز جعل يسوع عرضةً للآلام على نحوٍ رهيب. وهاك ما قاله فردريك بوخنرْ في هذا:

الطفلُ مولودًا في الليل بين الحيوانات، أنفاس الحيوانات الطيِّبةُ وروثُها المبخِّر، ولا شيءَ على حاله أبدًا في ما بعد.

أُولئك الذين يؤمنون بالله لا يمكنهم البتَّة، بطريقةٍ ما، أن يتيقَّنوا أمره بعد. فما إن رأوه في إسطبل، حتَّى باتوا غير قادرين أبدًا أن يتأكَّدوا أين سيظهر، ولا إلى أيَّة أبعاد سيمضي، ولا إلى أيَّة أعماقٍ مُستغرَبة من الاتِّضاع الذاتيِّ سينزل في سعيه الحثيث وراء الإنسان...

فللذين يؤمنون بالله، هذه الولادة تعني أن الله ليس بمأمنٍ منّا البتَّة. ولعلَّ ذلك هو الوجه المُظلِم من الميلاد: هولُ الصمت. فها هو يأتي على طريقةٍ يمكننا بها دائمًا أن نخذله ونقهره، إذ نستطيع أن نسحق جمجمة الطفل كقشرة بيضة، أو نعلِّقه مسمَّرًا حين يصبح أكبر من أن نفعل به ذلك!

أيُّ شعور خالج الله يومَ الميلاد؟ تصوَّر لحظةً أنَّك صرتَ طفلًا من جديد: مُتخلِّيًا عن اللُّغة والتناسُق العضليّ والقدرة على تناول الطعام القويّ وضبط المثانة. الله جنينًا! أو تصوَّر أنَّك يرقانة بحريَّة... فهذه المشابهة ربَّما كانت أقرب. ذلك اليومَ في بيت لحم، اتَّخذ صانعُ كلِّ ما هو كائن هيئة طفلٍ مولودٍ لتوِّه عاجزٍ يحتاج إلى مَن يُعيله.

"إخلاءُ الذات" هو التعبير التِّقنيُّ الذي يستخدمه اللاهوتيُّون لوصف إخلاء المسيح نفسَه من مزايا الألوهية. ومن العجب أنَّ الإخلاء، فيما اشتمل على كثيرٍ من الاتِّضاع، اشتمل أيضًا على نوعٍ من الحرِّيَّة. وقد تكلَّمتُ سابقًا عن "عوائق اللامحدوديَّة". فالجسم المادِّيُّ وفَّر للمسيح حرِّيَّة التصرُّف على صعيدٍ بشريّ، بمعزلٍ عن تلك "العوائق". إذ بات في وسعه أن يقول ما يشاء بغير أن يُصوِّح صوتُه قِمَمَ

الشجر، وفي وسعه أن يُعبِّر عن غضبه بتسمية هيرودس ثعلبًا، أو يمدَّ يده لالتقاط سوطٍ في الهيكل، بدل أن يُزلزل الأرض بحضوره العاصف. وفي وسعه أن يتكلَّم إلى أيِّ شخص- إلى ساقطةٍ أو أعمى أو أرملة أو أبرص- بغير أن يُضطرَّ أوَّلًا إلى أن يقول مُطمئنًا: "لا تخافوا!"

كان كثيرًا أن صُنِعَ الإنسانُ على صورة الله قبلًا،
أمَّا أن يصير الله في صورة الإنسان فذاك أكثر جدًّا!

الشاعر جون دَنّ

الشاهد الكتابيُّ: فيلبّي ٢.

١٤

آمالٌ كبار

مع اقتراب موسم الميلاد كلَّ سنة، يتموَّج الأثير بأناشيد الوعد المتعلِّقة بالمسيح. فمن مُنشِدي الجوقات في المدارس الثانويَّة إلى الموسيقيِّين المُجلِّين، ينصرف الموسيقيُّون إلى ممارساتٍ كَمَنْ في رحلة حجّ، مُتشبِّثين بأوراق نُوتات بَلِيت من فرط الاستعمال. ولا لزومَ اليوم لأنْ تكون في جوقة أصلًا لكي تُرنِّم النبوّات الشهيرة التي لحَّنها هاندل. فمُعظم المدن الكبرى في الغرب تُيسِّر للجميع المشاركة في ترنيم مقطوعة "المسيّا" الشهيرة لهاندل.

وما ذاك الذي نحتفل به في حفلات موسيقيَّة فخمة؟ إليك الكلمات التي استلَّها هاندل من أنبياء الكتاب المقدَّس:

> كلُّ وادٍ يمتلئ، وكلُّ جبل وأكمة ينخفض، وتصيرُ المُعْوجَّات مستقيمة، والشعاب طُرقًا سهلة، ويُبصِر كلُّ بشر خلاص الله.
>
> الشعب السالك في الظُّلمة أبصر نورًا عظيمًا؛ الجالسون في أرض ظلال الموت أشرق عليهم نور.
>
> فإنَّه يُولَد لنا ولد ونُعطى ابنًا، وتكون الرئاسة على كتفه، ويُدعى اسمُه

عجيبًا، مشيرًا، إلهًا قديرًا، أبًا أبديًّا، رئيس السلام.

هذه الكلمات عينها تردَّدت على شفاه المؤمنين من بين اليهود في سني صمت الله. ذلك أنَّ الخيبة، بل اليأس، استشريا بين أبناء الأُمَّة جميعًا فيما بدَّد التاريخ، المُزدادُ ضراوةً، جميع الآمال إلاَّ واحدًا: وعدَ الأنبياء بقدوم ملكِ مُلوك. فعندما يجيء المسيح المُنتظَر، يتدفَّق عندئذٍ السلام كنهر... بذلك الوعد تشبَّث اليهود كما يتشبَّث البحَّارة المنقلبون بطَوف النجاة.

وبعد أربع مئة سنة من آخر نبيٍّ توراتيّ، بدأت تسري شائعاتٌ غريبة: أوَّلًا عن نبيٍّ في البريَّة اسمه يوحنّا، ثُمَّ عن يسوع، ابنِ نجّارٍ من الناصرة. وإذ بدأت ترشَح أخبارٌ عن قوّات يسوع المعجزيَّة، انتشر الحَزر والتخمين. أيُحتمَل أن يكون هو ذاك؟ وقد أصرَّ بعضٌ على أنَّ المسيح جاء فعلًا. فبأعيُنهم شاهدوا يسوع يشفي العُميَ ويجعل العُرج يمشون. وقد هتفوا: "ها قد جاء الله ليُعين شعبه!" لمَّا أقام يسوع شابًّا من الموت. وآخرون ظلّوا على شكوكهم. ذلك أنَّ يسوع أتمَّ الوعود المسيانيَّة، ولكن (لكن مهمَّة!) ليس بالطريقة التي توقَّعها أحد.

لمَّا تصفَّحتُ الكتاب المقدَّس بحثًا عن أمارات خيبة الأمل بالله، توقَّعتُ أن أجد تغييرًا حاسمًا عند وصولي إلى الأناجيل. فمن شأن مسيح الأنبياء- كما تبيِّن بسهولةٍ لمحةٌ سريعة على أُوبرا هاندل- أن يبدوَ مُبدِّدًا لتلك المشاعر السلبيَّة. إنَّما بالعكس، لم تتبدَّد خيبة الأمل من على الأرض في زمن يسوع، وما تبدَّدت بعدُ وقدِ انقضى على مجيئه أكثر من ألفَي عام! فأيُّ خطبٍ جرى؟ أو لنَضع السؤال في صيغةٍ أُخرى: أيَّ إسهامٍ قدَّمت حياةُ يسوع للإجابة عن الأسئلة الثلاثة التي تتخلَّل هذا الكتاب؟

هلِ الله صامت؟ "اتبعني!" "هكذا ينبغي لكم أن تُصلُّوا". "ها نحن صاعدون

إلى أُورشليم". فمن بعض النواحي، جعل يسوع مشيئة الله أوضح ممّا كانت عليه قبلًا في أيَّة مرَّة من المرّات. وعلى نحوٍ لا يُصدَّق، كشف نفسه أمام أُسلوب الاستقصاء العلميّ، وهو تمامًا ما لَقِيَهُ من الفرِّيسيين والصدُّوقيِّين وغيرهم من الشكّاكين. فقد كان في وسع أيِّ شخص أن يتقدَّم إلى ابن الله ويطرح عليه سؤالًا أو يُناقشه في أمر. وكما تُفيد الأناجيل، خرج الله عن صمته بصوتٍ عالٍ ومُقنع إذ عاش يسوع على الأرض، حيثُ إنَّ الكلمة صار جسدًا.

هلِ الله مُحتجِب؟ بيسوع، اتَّخذ الله بالفعل هيئةً في هذا العالم، وصار له وجهٌ واسمٌ وعنوانُ إقامة. فكان إلهًا في وسعك أن تلمسه وتشمَّه وتسمعه وتراه. وقد قال المسيح صراحةً: "الذي رآني فقد رأى الآب".

ومع ذلك فإنَّ كون يسوع مَرئيًّا عند مجيئه إنسانًا سويًّا أتى بمعضلة جديدة لليهود الذين تربَّوا على قِصَص جبل سيناء وجبل الكرمل. فأين الدُّخان والنار وفيضُ النور؟ لم يُضاهِ المسيح تصوُّرهم عمَّا ينبغي أن يكون الله عليه. فإنَّه كان إنسانًا- ويا للعجب!- طلع من بلدة الناصرة شبه المغمورة وعُرف بأنَّه وليدُ مريم ونجّارٌ من العامَّة. حتَّى إنَّ جيران يسوع، الذين سبق أن رأوه يلعب مع أولادهم في الشارع، لم يقدروا قطُّ أن يُصدِّقوا أنَّه هو المسيح المُنتظَر. ثُمَّ إنَّ مَرقُس، في ملاحظةٍ خاصَّةٍ لافتة، يُشير إلى أنَّ أقرباء يسوع أنفسَهم حكموا مرَّةً "أنَّه مُختلّ!" أُمُّه وإخوته! مريمُ التي لمّا رأت الملاك جبرائيل انطلق لسانُها تلقائيًّا بنشيد بشارة العذراء، وإخوته الذين قضوا معه وقتًا أكثر ممّا قضاه أيُّ شخص آخر، هؤلاء أيضًا لم يقدروا أن يتقبَّلوا المزيج الغريب بين ما هو عجيب وما هو عاديّ. فإنَّ جِلد يسوع اعترض السبيل.

هلِ الله ظالم؟ لعلَّ هذا السؤال الدائم أنتج أكبر شكٍّ في يسوع، إذ آمن اليهود بأنَّ المسيح سيُسوِّي كلَّ ظُلمٍ في العالم. أمَا وعد الأنبياء بأنَّ الربَّ سيُبطِل الموت إلى الأبد

ويمسح الدموع عن جميع الوجوه؟ صحيحٌ أنَّ يسوع شفى بعض الناس، ولكنَّ كثيرين أكثر ظلُّوا بلا شفاء. وقد أقام لعازر من بين الأموات، ولكنَّ كثيرين آخرين ماتوا في أثناء حياته على الأرض. فهو لم يمسح الدموع عن جميع الوجوه. إنَّ معضلة الظُّلم تُقضّ مضاجع كثيرين ينجذبون إلى حياة المسيح في سوى ذلك. فاللاهوتيُّ الكبير أُغسطينوس مثلًا حيَّرته اعتباطيَّة الشفاءات في الإناجيل: إذا كانت ليسوع القدرة، فلماذا لم يشفِ كلَّ إنسان؟ وقد لفتتِ انتباه أُغسطينوس على الخصوص حادثةٌ واحدة من إنجيل يوحنّا.

كان مرضى أورشليم، من عُمي وعُرج ومشلولين، يعجُّون حول بركةٍ معيَّنة في المدينة، وكأنَّها مزار لُورد في زمانهم. وأحيانًا كانت مياه البركة تتحرَّك، فيركضون أو يعرجون أو يزحفون للنزول في البركة ومياهُها تتحرَّك. وذات يوم بادر يسوع بمحادثة شخصٍ يُرثى له كان منطرحًا هناك. وقد كان ذاك مشلولًا منذ ثمانٍ وثلاثين سنة، وقال ليسوع إنَّه لم يستطع الوصول قطُّ إلى البركة. فإذا تحرَّكت المياه، سبقه دومًا سِواه. وبغير أن تطرف عينٌ من يسوع، أمر المريضَ بأن ينهض ويمشي. "فحالًا برئ الإنسان وحمل سريره ومشى". بعد ثمانٍ وثلاثين سنة من الاستلقاء، مشى! وإذ به أسعدُ إنسان في أُورشليم.

ولكنَّ الراوي، يوحنّا، لا يُضيف أيًّا من التفاصيل ذاتِ الشأن. إذ إنَّ يسوع انسلَّ ومضى وسط الجمع. لقد تجاهل باقيَ ذلك الجمهور من المرضى، تاركًا إيَّاهم جميعًا ما عدا ذاك الذي شُفي. لماذا؟ تساءل أُغسطينوس: "كان منطرحًا هناك كثيرون، ولكنَّ واحدًا فقط شُفي، في حين كان في وسع المسيح أن يُقيمهم جميعًا بكلمةٍ واحدة. فلماذا؟"

وكان أحد أقرباء المسيح شخصًا آخر عذَّبه الظُّلم. فإنَّ يوحنّا المعمدان- وهو مؤمن حقيقيٌّ إن وُجِد واحدٌ على الإطلاق- أنعش آمال الأُمَّة بشأن يسوع. وفي الأيّام الباكرة، عندما كان الناس يتساءلون عن يوحنّا المعمدان أيكونُ هو المسيح، كان يشفي

غليلهم في الحال: "يأتي بعدي مَن هو أقوى منِّي، الذي لستُ أهلًا أن أنحنيَ وأحلَّ سُيور حذائه". ذلك الموعودُ به، يسوع الناصريُّ، جاء إلى يوحنّا طلبًا للمعموديَّة، ووقف هذا يُشاهِد مدهوشًا إذ هبط روح الله من السماء على شكل حمامة. وكأنَّما لتبديد جميع الشكوك بشأن يسوع، تكلَّم صوتٌ من السماء، هادِرًا كالرَّعد.

ولكنْ بعد ذلك بسنتين، داخلت يوحنّا المعمدانَ شكوكُه الذاتيَّة، إذ خاض أزمة خيبته الخاصَّة. فمع أنَّه خدم الله بأمانة، انتهى به الأمر إلى سجن هيرودس. وبينما دبَّ فيه الوهن وهو ينتظر ساعة إعدامه، هرَّب رسالةً إلى يسوع: "أنت هو الآتي، أم ننتظر آخر؟" ذلك السؤال الوحيد- من يوحنّا المعمدان!- يُصوِّر اللايقينَ الذي يُخالِطه بعضُ الأمل، أوِ التأرجُحَ بين الشكِّ واليقين، ذاك الذي حامَ حول يسوع.

الملكوت في الداخل

لو أنَّ المسيح تجنَّب فقط كلمةً واحدة مشحونةً بالمشاعر، ألا وهي الملكوت، لربَّما كان كلُّ شيءٍ مختلفًا. فما إن تفوَّه بها، حتَّى انبعثت في أذهان سامعيه صُوَرٌ شتَّى: راياتٌ زاهية، جيوشٌ باهرة، الذهب والعاج الموفوران في أيّام سليمان، أُمَّةٌ أُعيدت إليها عظمتُها وأُبَّهتها. ولكنْ ما لبث أن حدث ما بدَّد تلك الآمال وجعل جميع مشاعر الخيبة تطفو من جديد. فكما اتَّضح أخيرًا، كانت الكلمة "ملكوت" تعني للجمهور شيئًا، وليسوع شيئًا آخر مختلفًا تمامًا.

لقد أرادت الجموع ما يتعدَّى نثر المعجزات هنا وهناك. لقد أرادوا ملكوتًا منظورًا ذا سطوة ومجد. ولكنَّ يسوع تكلَّم بدلًا من ذلك عن "ملكوت السماوات"، عن مملكة غير مرئيَّة. صحيحٌ أنَّه حلَّ بعض المشكلات المنتشرة في العالم حوالَيه، ولكنَّه بصورةٍ رئيسة استخدم طاقته لمحاربة قوًى غير منظورة. ومرَّةً قابل مفلوجًا مُستقتِلًا للشفاء حتَّى أقنع أربعة أصدقاء بأن ينقبوا سقفًا ويُدَلُّوه عبر الفتحة إلى حيث كان يسوع. فإذا به يُجيب: "أيُّما أيسر: أن يُقال «مغفورةٌ لك خطاياك»، أم أن يُقال «قُم احمل فراشك،

وامش»؟" ثُمَّ يُبيِّن أيُّ الأمرين كان أسهل. فما من عاهةٍ طبيعيَّة تقوى على الصمود أمام لمسته الشافية. إذ كانتِ المعركة الحقيقيَّة ضدَّ قوىً روحيَّة، غير مرئيَّة.

فالإيمان وغفران الخطايا وسلطان الشرِّير، هذه كانتِ الاهتمامات التي حملت يسوع على الصلاة إلى أبيه كلَّ يوم. وقد أربك هذا التشديدُ الجماهير الذين نشدوا بصورة جوهريَّة حلولًا لمشاكلهم في العالم المادِّيّ، من فقرٍ ومرض وطُغيان سياسيّ. وفي آخر الأمر، أخفق المسيح في الارتقاء إلى مستوى آمالهم بشأنِ مَلِك. (تُرى، هل تغيّر شيء؟ فأنا أعرف جمعيَّاتِ خدمةٍ كثيرة تُشدِّد على الشفاء البدنيّ والنجاح المادِّيّ، لكنَّ عددًا قليلًا من الجمعيّات التي تُركِّز اهتمامها على مشكلات بشريَّة ثابتة مثل الكبرياء والرياء والناموسيَّة، من نوع المشكلات التي عُني بها المسيح كثيرًا).

ومهما كانت المفاهيم التي أضمرها أتباعُ يسوع بشأن سُلَيمانٍ جبّار يسود الأُمَّة من جديد، فقد تبخَّرت كلُّها وهم يُشاهِدون ما جرى في أُورشليم. فبعد أيَّام قليلة من إقامة "موكبِ انتصار" – والذي لا يعدو كونه كوميديا فظَّة إذا ما قورِن باستعراضات الرومان الباذخة– أُلقي القبض على يسوع وتمَّت محاكمته. وقد قال للحاكم الرومانيّ إنَّه بالحقيقة ملك، لكنَّه أردف: "مملكتي ليست من هذا العالم. ولو كانت كذلك لكان خُدَّامي يُحاربون حتَّى يمنعوا اليهود من اعتقالي. ولكنِ الآن ليست مملكتي من هنا".

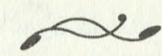
يسوع ملكًا؟ فليكُن ملكًا هُزأةً إذا كان ملكًا، وثوبه الأُرجوانيُّ مُلطَّخٌ بالدم المتجمِّد بعد جَلدِه، وعلى رأسه تاجُ شوكٍ أُقحِم فيه. وقد هرب تلاميذه إذ دحر خوفُهم من الخطر المُحيق ولاءهم له. فإن كان يسوع يأبى أن يحميَ نفسه، فلماذا يُقدِم على حمايتهم؟ إنَّ عالَمَ الجبروتِ الرومانيِّ المنظورَ واجه عالَم ملكوت السماء وبدا إلى حين أنَّه وضع له حدًّا.

في "سريرُ الهرّ"، يُصوِّر الروائيُّ المعاصر كُورت فُنِّغوت عالِمَ فيزياء ساهم في اختراع القنبلة الذرِّيَّة يتفقَّد مُختبره في أثناء موسم الميلاد. ويظهر موظَّفو المكتب جميعًا واقفين حول لوحةٍ تتوسَّطها مريم والطفلُ في المذود، يُنشِدون ترانيم الميلاد. "آمالُ كلِّ السنين ومخاوفُها تلاقَت فيكَ الليلة!" هكذا كانوا يُرنِّمون. إنَّه مشهد سخرية لاذعة، يُشكِّل قسيمًا حديثًا لتبدُّد أحلام اليهود في أيَّام المسيح. أيُصدِّق المُنشِدون حقًّا أنّ آمال كلِّ السنين ومخاوفَها- تلك السنين التي ستتلاشى في لَحيظة إذا ضَغطَ أحدٌ الزِّرَّ الخطأ- تستقرُّ على الإيمان بمولودٍ ابن ساعته في بيت لحم مُقدَّرٍ له أن يعيش ثلاثًا وثلاثين سنةً فقط؟

الشواهد الكتابيَّة: لوقا ٧؛ يوحنَّا ١٤؛ مرقس٣؛ يوحنَّا ٥؛ يوحنَّا ١؛ متّى ١١؛ يوحنَّا ١٨.

10

التحفُّظ الإلَهيُّ



إنَّ مشروعي هو أوَّل اختبار في التاريخ لحسم مسألة وجود الله مرَّةً وإلى الأبد. فكما تقوم الأُمور حاليًا، قد تتوافر علاماتٌ على وجوده. ولكنَّها تتَّجه كلا الاتّجاهين، ولذلك فهي غامضة، ومن ثَمَّ لا تُبرهن أيَّ شيء. فإنَّ عجائب الكون مثلًا لا تُقنع الأكثر اطّلاعًا على العجائب، أي العُلَماء. أمَّا كون هذا يشهد- أو لا يشهد- لجهالة العُلَماء أو لنجاح الله في إخفاء نفسه فأمرٌ لا يهمّ.

وُكَر پرسي، المجيء الثاني

إذا كان الأوان قد آن يومًا لحسم مسألة وجود الله، فقد كان ذلك فيما المسيح يسير على الأرض. إذ توافرت ليسوع فرصةٌ رائعة لإفحام النُقّاد مرَّةً وإلى الأبد.

فلو أنَّ صديقي رشيدًا، على سبيل المَثَل، عاش في أيّام يسوع، لكان في وسعه أن يطلب منه البُرهان وجهًا لوجه مُتحدّيًا: "أتقول أنت إنَّك ابن الله؟ حسنًا، أثبت لي هذا!" فلمّا طلب إليه خُبرَاء الدين في زمانه أن يُريَهم علامةً مُعجزيَّة، التفت إليهم غاضبًا، ناعتًا إيَّاهم بأنَّهم "جيلٌ شرّير وفاسق". ولمّا طلب منه ملكٌ فضوليٌّ مُعجِزة، أبى

تلبية طلبه، رُغم أنَّ ذلك كان يمكن أن يُنقِذ حياته.

فلماذا التحفُّظ الإلهيّ إذًا؟ ربَّما وجدنا مفتاحًا في أوَّل "حادثة" شَهِدتها خدمة يسوع، أعني التجربة، وقد كانت أشبه بامتحانٍ نهائيٍّ مهّد لمباشرته حياتَه العلنيَّة.

ما كان في وسعك أن تطلب مواجهةً أكثر دراميَّةً: يسوع مُقابِل المُشكِّك الأوَّل، ألا وهو الشيطانُ بنفسه، حيث شكّلت تِلال فلسطين المُصدَّعةُ والوعرة ستارةَ المشهد الخلفيَّة. وقد أراد الشيطان بُرهانًا ما: "إن كنتَ ابنَ الله..." إذ تحدّى يسوع كي يصنع خبزًا من الحجارة، وطلب أن يرى عيِّنةً من قُدرات يسوع على حماية نفسه، وعرض أن يُعطيَه السُّلطة على ممالك العالم كلِّها.

أنا على يقين بأنَّ تحدّيات الشيطان كانت تجربةً حقيقيَّةً ليسوع، لا مُباراةً مُسرحة مُعَدَّة سلفًا. فإنَّ رغيفَ خُبزٍ لا بُدَّ أن يُغريَ أيَّ شخصٍ قد صام أربعين يومًا. وضمانةُ السلامةِ البدنيَّةِ انطوت يقينًا على جاذبيَّة لامرئٍ يواجه العذاب والإعدام. وأُبَّهةُ ممالك الأرض كلِّها... أما تنبَّأ الأنبياءُ بها مُعطاةً للمسيح؟ إنَّ جميع "التجارب" الثلاث كانت في مُتناول يد يسوع، بل إنَّ الثلاث جميعًا كانت بالحقيقة من امتيازاته. وفي الواقع أنَّ الشيطان كان يعرض عليه "طريقًا مختصرًا" لإحراز أهدافه المسيانيَّة.

لقد جعل الروائيُّ الروسيُّ فَيورد دوستويڤسكي مشهد التجربة حدثًا مركزيًّا في رائعته "الأخوةُ كَرامازوف". إذ يصِفُ إيڤان كَرامازوف التجربة بأنَّها أعجب مُعجزة على الأرض: معجزةُ التقييد. فلو فرضنا أنَّ يسوع استسلم للتجربة، لكان فاز بأوراق اعتماده، لا عند الشيطان فحسب بل عند بني إسرائيل أجمعين، مُرسِّخًا ذاته بلا نزاع. وبحسب نِظرة دوستويڤسكي، عرض الشيطان ثلاث وسائل يسيرة للحثّ على الإيمان– المعجزة والغموض والسُّلطة– ورفض المسيح الثلاث جميعًا. وبكلمات إيڤان كَرامازوف: "لم تقبل استعباد الإنسان بمعجزة، وتُقتَ إلى الإيمان يُبذل طوعًا واختيارًا، لا على أساس مُعجِزة".

عند دراستي خبر التجربة الوجيزة في إنجيل متّى، ثُمَّ صياغة دوستويڤسكي

المُزخرفة لها، خطر في بالي فجأةً سؤالٌ مزعج: فيمَ تختلف التجربة في البرِّيَّة عمَّا جرى في شقَّة رشيد بضاحية المدينة؟ فهو أيضًا طلب استعراضًا فائقًا للطبيعيّ: نُورًا أو صوتًا، أو أيَّ شيء يُثبِت قدرة الله على نحوٍ لا يحمل على الشك. أو لأكونَ شخصيًّا أكثر: فيمَ تختلف التجربة عن الأوقات التي أتوسَّل فيها، بل أكاد أطلب طلبًا، أن يتدخَّل الله ويُنقِذني من بليَّةٍ ما؟

لا شكَّ أنَّ هنالك فُروقًا، وسُرعان ما يُسوِّيها دفاعي عن نفسي. فالمُفترَض أنَّ رشيدًا كان مُخلِصًا، في حين كنتُ أنا محتاجًا. وكلانا كنَّا نلتمس من الله أن يُعيننا، ولم نُقرِّعه أو نطلب العبادة. ومع ذلك لا يمكنني أن أُقصيَ بسهولةٍ التشابهَ المُمِض بين قول الشيطان: "اطرح نفسك إلى أسفل!" وقول رشيد "أظهِر ذاتك!" ففي كلتا الحالتين يبقى التحدِّي واحدًا: مطالبة الله بكشف النِّقاب وإثبات ذاته. وفي كلتا الحالتين، أحجم الله.

هذا، ويخطر في بالي مَثَلٌ آخر على التحفُّظ الإلهيّ في ما جرى في أُورشليم على مقربة من موقع تحدِّي الشيطان الثالث. فقد ألقى يسوع نظرَه من على تلَّةٍ عالية وقال راثيًا: "يا أُورشليم، يا أُورشليم، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسَلين إليها، كم مرَّةٍ أردت أن أجمع أولادكِ كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها، ولم تُريدوا!" ويتَّصف هذا الرثاء الشجيُّ لأُورشليم بما يشبه الحياء. فالمسيح، رغمَ قدرته على تدمير أُورشليم بكلمةٍ واحدة، ورغم قدرته على استدعاء جيوشٍ من الملائكة لإخضاعها بالقوَّة، يؤثِر بالأحرى أن يُجيل نظره على المدينة ويبكيَها.

ها هو الله ينكفئ، ويختبئ، ويبكي! فلماذا؟ لأنَّه يرغب في ما لا تقدر القوَّة على كسبه أبدًا. فهو ملكٌ لا يبتغي الخضوع والخنوع، بل المحبَّة والمودَّة. وهكذا، فبدلًا من دكِّ أُورشليم وروما وكلِّ سلطةٍ عالميَّة أُخرى، اختار السبيل الصعب البطيء المتمثِّل في التجسُّد والمحبَّة والموت: إخضاعًا من الداخل!

وقد لخَّص جورج مكدونَلد مقاربة المسيح: "بدلًا من سحق المسيح سُلطةَ الشرّ

بالقوَّة الإلَهيّة؛ بدلًا من فرض العدالة عنوةً وإهلاك الأشرار؛ بدلًا من إحلال السلام على الأرض بحُكم رئيسٍ كامل؛ بدلًا من جمع أولاد أورشليم تحت جناحيه، سواءٌ أشاؤوا أم أبَوا، وتخليصهم من الأهوال التي أضنت نفسَه العليمة- سمح للشرّ بأن يجريَ في مجراه على هواه ما دام له وجود؛ وقنع بطُرق العون الجوهريّ، البطيئة وغير المشجِّعة، جاعلًا الناس صالحين؛ طاردًا الشيطان، لا مسيطرًا عليه فقط... فأن تحبَّ البرَّ يعني أن تجعله ينمو، لا أن تثأر له... وطيلةَ حياته على الأرض، قاوم كلَّ دافع إلى العمل بمزيدٍ من السرعة في سبيل خيرٍ أدنى، ذاك الدافع الذي ربّما اشتدَّت وطأتُه عند رؤية المسيح الشيخوخةَ والبراءة والبرَّ تُداس تحت الأقدام".

المعجزات

طبعًا، لم أروِ قصّة المسيح بكاملها. صحيحٌ أنَّ ناسوته مثَّل نوعًا من التنكُّر، على الأقلّ بالمُباينة مع مجد الله في العهد القديم. وصحيحٌ أنّه أبدى بعض التقييد، رافضًا أن يقهر الناس بعرض مُباغتٍ لجبروته. ولكنْ ما القولُ في المعجزات التي أجراها فعلًا، وتروي الأناجيل ستًّا وثلاثين منها؟ لا أحدَ شاهده يوفِّر الغذاء لخمسة آلاف نسمة، أو يأمر لعازر الميّت بالخروج من قبره، أو يُسكِّن عاصفةَ صيفٍ بكلمة، يمكن أن يتكلَّم بسهولة عن صفةٍ من قبيل "التحفُّظ الإلهيّ".

ومع ذلك، فإنَّ يسوع- رغم كونه قادرًا بداهةً على إجراء مُعجزة في أيّ يوم من حياته إذا أراد- بدا مُحجمًا على نحوٍ مُستغرَب بشأن المعجزات. فمع تلاميذه، استخدمها برهانًا على حقيقة هُويّته ("صدِّقوني أنّي في الآب، والآبَ فيّ؛ وإلاّ فصدِّقوني لسبب الأعمال المعجزيّة نفسها") لكنّه حتّى عندما أجراها، غالبًا ما بدا مُقلِّلًا من التشديد عليها. فلمّا أقام من الموت ابنة شخصٍ ذي شأن بين اليهود، أصدر أوامر مشدَّدة بإبقاء الأمر سرّيًا. وقد سجَّل مرقس سبع مناسبات مستقلّة، قال فيها يسوع لشخصٍ شَفاه: "لا تقل لأحد!"

لقد كان المسيح عليمًا بتأثير المعجزات السطحيّ في أيّام موسى، وأيّام إيليّا: فهي اجتذبت الجماهير طبعًا، ولكنّها قلّما شجّعت على الأمانة الطويلة الأمد. فإنّه كان آتيًا برسالة صعبة قوامُها الطاعة والتضحية، لا بعرضٍ جانبيٍّ للتافهين وطالبي الإثارة. (لا ريب أنّ شُكوكيّي زمانه الحقيقيّين- وهم يُشبهون كثيرًا أهل عصرنا- سفّهوا قوّاته. فإن تكلّم صوتُ الله من السماء، أقصى بعضُ ذلك بقولهم إنّه رعد. وآخرون نسبوا مواهبه إلى الشيطان. وقد رفض خصومُه الألِدّاء أن يثقوا به حتّى عندما واجههم بالبيِّنات القاطعة. ومرّةً عقدوا محكمة رسميّة لدراسة شفاءٍ بلغهم خبرُه. وإذ تجاهلوا شهادة المَعنيّ مباشرةً- "إنّما أعلم شيئًا واحدًا. أنّي كنتُ أعمى والآن أُبصِر!"- كالُوا الشتائم لنائل الشفاء وطردوه من مجمعهم. وبالمِثل، لمّا ظهر لعازر حيًّا بعد أربعة أيّامٍ في قبره، تآمر هؤلاء الأعداء على قتله للتخلُّص منه).

فإنَّ أخبار الكتاب المقدَّس، بثباتٍ لافت، تُبيِّن أنَّ المعجزاتِ- المعجزاتِ المشهديّة الآسِرة كالتي ما زال كثيرون منّا توّاقين إليها- لا تُعزِّز الإيمان العميق فعلًا. ولا حاجة بنا طلبًا للبرهان إلى سوى النظر إلى حادثة التجلّي، لمّا صار وجه يسوع مُشرِقًا كالشمس وثيابُه بيضاءَ كالثلج باهرةً "لا يقدر قصّار على الأرض أن يُبيِّض مثل ذلك". ولدهشة التلاميذ، ظهر في سحابةٍ معهم اثنانِ من عمالقة العهد القديم كان قد مضى على رحيلهما زمانٌ طويل، هما موسى وإيليّا. وقد تكلَّم الله بصوتٍ مسموع. فإنَّ ذلك المشهد كان أعظم من أن يُستوعَب؛ حتّى سقط التلاميذ على وجُوهِهم مرتعبين.

ولكنْ أيُّ تأثير كان لهذه الحادثة الرائعة في أصدقاء يسوع الثلاثة الأقربين، بطرس ويعقوب ويوحنّا؟ هل أخرست أسئلتهم إلى الأبد وأفعمتهم بالإيمان؟ بعدَ أُسبوعٍ واحد، ويسوعُ في أمسّ الحاجة إليهم، تركوه كلُّهم وفرُّوا.

قرأتُ كُتبًا عن الآيات والعجائب تفترض إفحام الشكّاكين، كما لو كانت

معجزات المسيح تُبرهِن أنّه هو الحلُّ لمشكلات العالم. ولكنْ عليَّ أن أعترف بأنَّ معظمَ هذه المُحاجّات تستوقِفني بوصفها لا تعني شيئًا للخائب أملُهم بالله. فهي أكثر اهتمامًا بالمعجزات التي لم يُجرِها المسيح. فلماذا يختار إلهٌ قادرٌ على تقويم ما هو خطأ ألّا يُبادِر إلى التدخُّل أحيانًا؟ أو لماذا كلَّف يسوع نفسه إجراء المعجزات أصلًا؟ ولِمَ شفاءُ مشلولٍ واحد قرب بركة بيت حسدا... واحد فقط دون غيره؟

ربَّما وجدنا إلماعًا في رواية خياليَّة لسيرة يسوع لم تجد قطُّ سبيلًا لأنْ تُعتبَر من الأسفار المقدَّسة، وذلك لسببٍ وجيه طبعًا. فإنَّ إنجيل حداثة يسوع المسيح المُزيَّفَ يزعم أنّه يكشف قصصًا غير معروفة عن حداثة يسوع، وهو يُصوِّر المسيح كما قد يرغب المرء أن يكون. وبحسب هذا الكتاب القديم، كان يسوع يؤدّي "حِيَلًا" غِبَّ الطلب لإدهاش رفقائه، الأمرُ الذي رفض يسوع الحقيقيُّ دائمًا أن يقوم به. فإنَّ يسوعَ المزيَّفَ كانت له فِتنةُ جنّيٍّ داجن أو غواية ساحرٍ أهليّ. وكلَّما أفسد أبوه يوسف النجّار قطعة أثاثٍ مهمَّة كُلِّف إنجازها، كان يسوع الصغير يتدخَّل ويُصلِح الخَلَل سحريًّا.

ولم يكن يسوعُ الخُرافيُّ هذا يخشى أن يستخدم قدرته للانتقام أيضًا. فلمّا آذت إحدى الجارات واحدًا من رفقاء يسوع في اللَّعِب، سقطت بطريقةٍ غامضة في بئر وماتت بتهشُّم جمجمتها. ولمّا اقترب يسوع من إحدى المدن، تحطَّمت أصنامُها وصارت أكوامًا من الرَّمل.

إنَّما هذه الأفعال الطائشة ليست من شِيَم يسوع كما تُصوِّره الأناجيل، إذِ استخدم قدراته برفق لسدِّ حاجات البشر، وليس لعرض الحِيَل المُبهِرَة. فكلَّما طلب منه أحدٌ مباشرةً، شفاه. ولمّا جاع جمهورُه أطعمهم، ولمّا عطش ضيوف العُرس صنع لهم نبيذًا. ويسوع الحقيقيُّ انتهر تلاميذه لاقتراحهم عليه أن ينتقم من مدينةٍ مُقاوِمة. ولمّا جاء جنودٌ لإلقاء القبض عليه، استخدم قدرته الفائقة مرَّةً واحدة فقط، وذلك لشفاء أُذنٍ مشلوخة لواحدٍ من مُعتقِليه. وبالاختصار، فإنَّ معجزات الأناجيل الأصيلة مَعنيَّة بالمحبَّة، لا بالقوَّة.

ولئن كانت معجزات المسيح مُغرِقةً في الانتقائيَّة بحيث لا تحلّ كلَّ خيبة أملٍ بشريَّة، فقد أدَّت دور آياتٍ تؤيِّد رسالته، ومَشاهِد مُسبَّقة لِما سوف يفعله الله ذات يومٍ لأجل الخليقة كلِّها. وعلى حدِّ تعبير هِلمُت ثاليكِ، فقد كانت المعجزات "نيران إشارةٍ تُعلِن ملكوت الله الآتي". فبالنسبة إلى مُختبِري المعجزات- مثل المفلوج الذي دُلِّيَ من فتحة السَّقف- قدَّمتِ الشفاءاتُ برهانًا دامغًا على كون الله نفسه يقوم آنذاك بزيارةِ تفقُّدٍ للأرض. وبالنسبة إلى كلِّ شخصٍ آخر، أيقظت أشواقًا لن تُلبَّى كليًّا إلى أن يحدث الإصلاحُ الشامل الذي يضع حدًّا لكلِّ ألمٍ وموت.

إنَّ المعجزات فعلت تمامًا ما سبق المسيح فأنبأ بأنَّها ستفعله. فالذين اختاروا أن يُصدِّقوه، قدَّمت لهم سببًا إضافيًّا بعدُ كي يؤمنوا به. أمّا الذين صمَّموا على نكرانه، فلم تُحدِثِ المعجزات كبيرَ فرقٍ عندهم. فإنَّ بعض الأُمور ينبغي حقًّا الإيمان بها حتّى تتيسَّر رؤيتُها!

الشواهد الكتابيَّة: متّى ١٢، ١٦؛ لوقا ٤؛ متّى ٢٣ ولوقا ١٣؛ يوحنّا ١٤، ٩؛ مرقس ٩.

١٦

المعجزةُ المؤجَّلة



لمَّا سمع شارلمان، ملك الفرنجة، أوّل مرّة بقصّة اعتقال يسوع وإعدامه، انفجر سخطًا. ثمّ أمسك بمقبض سيفه وخشخش به في غِمده، وصاح: "ليتني كنتُ هناك، فأذبحَهم كلَّهم بفيالقي!" ونحن نبتسم إزاءَ ولاءِ المُحارِب البسيط لدى شارلمان، أو لدى سمعان بطرس الذي استلَّ سيفًا بالفعل دفاعًا عن يسوع. ولكن وراء سخطهما يكمن سؤالٌ حَرِجٌ مُحرِج. فرُغمَ كلِّ شيء، لم يكن شارلمان حاضرًا في بستان جَثسَيماني فتُتاحَ له المُساعدة. ولكنَّ الله الآب، وقد كان قادرًا على المساعدة، لم يُحرِّك إصبعًا لمصلحة ابنه المُدان.

فلماذا لم يتصرَّف الله؟ أيُّ مَن يُفكِّر في خيبة الأمل بالله يجب أن يتوقَّف عند جَثسَيماني، وعند قصر بيلاطس، وعند الجُلجُثة- مَواقع اعتقال يسوع ومُحاكمته وإعدامه. إذ في هذه الأماكن الثلاثة اختبر يسوع نفسُه حالةً شبيهة بخيبة الأمل بالله.

بدأتِ المِحنة فيما يسوع يُصلّي في بستان زيتون هادئٍ بارد، وثلاثةٌ من تلاميذه ينتظرونه بعيدًا وعيونُهم مُثقَلة بالنُّعاس. داخلَ البستان، بدا كلُّ شيءٍ ساكنًا؛ ولكنْ خارجَه أُفلِتت قوى الجحيم ذاته من معاقلها. وكان واحدٌ من التلاميذ قدِ انقلب خائنًا، والشيطان يجوس للانقضاض، وحشدٌ غفير بسيوفٍ وعُصيٍّ مُتوجِّهٌ نحو جَثسَيماني.

عندئذٍ قال يسوع للتلاميذ الثلاثة: "نفسي حزينةٌ جدًّا حتّى الموت." ومع أنّه أفصح عن حقّه باستدعاء جيشٍ جرّارٍ من الملائكة للدفاع عنه، لم يفعل ذلك. فهو قد جاء ليعيش في عالَمِ جلدٍ ودمٍ وخلايا، ولا بدَّ أن يموت أيضًا حسب قوانينه. وذاتَ لحظةٍ انكبَّ أرضًا على وجهه وصلّى لأجل سبيلٍ مَا، أيِّ سبيلٍ، للخروج. حتّى إنَّ عَرَقه أخذ يتساقط على الأرض في نقاط كبيرة، كالدم.

ولكنَّ الله ظلَّ صامتًا.

وفي قصر بيلاطس، استمرَّ الرَّبط والضَّبط. فبأقوى معنًى حرفيٍّ، أبقى الله- في يسوع- يَدَيه مُوثَقتَين. وصاح بعضُهم: "تنبَّأ! مَن ضربك؟" ساخرين منه تحدّيًا عسى أن يصنع مُعجزة. ولم يُقاوِم ابن الله إذِ انهالت قبضاتُهم على وجهه المعصوب العينين وسالت بصقاتُهم على لحيته.

أمّا المشهد التالي، في جُلجُثة، فقد تمَّ تصويرُه لنا مرّاتٍ كثيرةً جدًّا في مسرحيّات الآلام وعِظاتها ولوحاتها حتّى اعترانا الخَدَر بحيثُ لا نكاد نقوى على تصوُّره بأنفسنا. فابدأ بتذكُّر اللحظة التي اختبرتَ أنت فيها خيبتك الأدهى. إذ علّقتَ كلَّ آمالك على ما بدا داخلَ نطاق قدرة الله- ربّما إبلال[1] من السرطان، أو ولادةُ طفلٍ مُعافى، أو تدخُّل الله لإصلاح زواجٍ مُنهار. ولكنَّ كلَّ شيءٍ آل إلى سراب. فالسرطان فتك بضحيّته، رغم صلواتك؛ والطفلُ وُلِد بتلف في الدماغ؛ ووافاك البريد بعاملة الطلاق. فكِّر في جُلجُثة بوصفها وقتًا مثل هذا الوقت... أو وقتًا مثل الليلة التي قضاها رشيد في شقّته، راكعًا على الأرض، متوسّلًا إلى الله. أو فكِّر فيها باعتبارها وقتَ اللامُعجزة.

آنذاك ترجّى كلُّ واحدٍ حصول مُعجزة: بيلاطسُ وهيرودس، بعد سماع الشائعات المُثيرة؛ النساءُ اللواتي تبعن يسوع طول الطريق من الجليل؛ التلاميذ الذين انكمشوا

[1] شفاء من مرض

خوفًا في الظِّلال. حتّى إنَّ لصًّا مائتًا توسَّل أن تُجرى مُعجزة، والآخر عيَّر واستهزأ، كما أطلق الناظرون هذه الصَّرخة: "لينزلِ الآن عنِ الصليب فنؤمنَ به!... ليُنقِذهُ الله الآن إن أراده!"

إنّما لم يجرِ إنقاذٌ ولا مُعجزة، بل كان فقط صمتٌ مُطبق. ويلتفت تشارلز وليمز إلى المشهد فيقول: "الهُزء المُتحدّي المُنهال على المسيح، في لحظة عجزه الأكثر إذهالًا، كان: "خلَّص آخرين، أمّا نفسُه فما يقدر أن يُخلِّصها!" وقد كان هذا تعريفًا دقيقًا جدًّا، شأنُه شأن أيِّ تعريفٍ نقع عليه في آثار أساتذة القرون الوسطى".

وأخيرًا صرخ المسيح: "إلهي، إلهي، لماذا تركتَني؟" وكانت هذه الصرخة عبارةً اقتُبِست من المزامير، تعبيرًا عن انتحاب الخيبة الأقصى. لقد أدار الله ظهره، أو هكذا بدا يقينًا، تاركًا التاريخ يجري مجراه، تاركًا كلَّ ما هو باطل في العالم يستظهر على كلِّ ما هو حقّ. حتّى الطبيعة ذاتُها اضطربت أيَّ اضطراب: إذ زُلزِلتِ الأرض زلزالًا وتصدَّعت الصخُّور وتفتَّحتِ القبور؛ وارتعد النظام الشمسيُّ إذ عَرَته القُشَعْريرة، فاحتجبتِ الشمس واسودَّتِ السماء.

صباح الأحد

وبعد يومين حدثتِ القيامة، بهديرٍ كالزِّلزال ووميضٍ كالبرق. أفما كان ينبغي أن يُزكّي ذلك الله ويحلَّ معضلة الخيبة مرّةً وإلى الأبد؟

يا لها من فرصةٍ مفوَّتة! لو أنَّ المسيح المُقام ظهر فقط على شُرفة بيلاطس لينفخ أعداءه بنفخةٍ تُبيدُهم، لكان ذلك كفيلًا بإفحامهم! غير أنَّ ظهورات المسيح، بعد قيامته، وهي لا تتعدّى بضعة عشر ظهورًا، تنمُّ عن نموذجٍ مُبين: أنَّ المسيح تراءى فقط لأشخاص سبق أن آمنوا به. فعلى حدِّ علمنا، لم يُشاهِد يسوعَ بعد موته وقيامته شخصٌ واحد غير مؤمن.

فكِّر في شخصَين كان يمكن أن يريا المسيح مُقامًا، لو لَبِثا وقتًا يكفي. هذان الحارسان

الرومانيّان الفظّان كانا واقفَين خارج القبر لمّا حدثت معجزة المعجزات. فأخذتهما الرِّعدة، وصارا مثل الأموات. ومن ثَمّ أبدَيا ردَّ فعلٍ بشريًّا عُضالًا، إذ ركضا إلى السُّلطات؛ وفي وقتٍ متأخِّرٍ من عصر ذلك النّهار، وافق الشاهدان الوحيدان لحادثة القيامة الفعليَّة على طمس الحقيقة. إذ بدت أكداسٌ من الفضَّة اللمَّاعة أكثرَ أهميَّةً بكثيرٍ من قيامة ابن الله. وهكذا، فإنَّ شاهدَي العِيان لذلك اليوم العظيم، رجُلَي الفصح المَنسيَّين، ماتا وهُما غيرُ مؤمنيَن كما هو جليّ.

والیوم، يُشار إلى الأحداث الكُبرى في حياة يسوع على أوراق الروزنامات حول العالم: الميلاد، الجُمعة العظيم، الفصح. ولكنْ من بين الثلاثة، أوسطُها فقط، أي الصَّلب، حدث جهارًا بحيث أُتيح للعالم أجمع أن يراه. فلحظةَ بدا الله عاجزًا بكلِّ معنى الكلمة، سُلِّطت كاميراتُ التاريخ لتُسجِّل الواقعة كلَّها. وقد شاهدت حشودٌ غفيرة كلَّ تفصيلٍ مُمِضّ. ولمَّا كتب أربعةُ رجال سيرة حياة يسوع في أربعة سجلّات، كرَّس كلٌّ منهم ثُلثَ إنجيله لوقت الإخفاق الظاهريِّ ذاك.

إنَّ مشهد الصليب، وهو الحادثة الأكثر علنيَّةً في حياة المسيح، يكشف الفرق الشاسع بين إلهٍ يُثبِت ذاته بالجبروت وإلهٍ يُثبِت ذاته بالمحبَّة. فالآلهة الآخرون، كآلهة الرومان مثلًا، تلقوًا العبادة بالإكراه: إذ في أثناء حياة يسوع بالذات، ذُبح بعض اليهود لرفضهم السجود للقيصر. ولكنَّ يسوع المسيح لم يُكرِه أحدًا قطُّ على الإيمان به، بل آثر أن يتصرَّف على أساس المناشدة، مُجتذِبًا الناس للإقبال إليه من تلقاء ذواتهم.

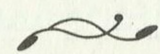
وممّا ينمّ عن تناقُضٍ ظاهريٍّ أنَّ مشهد الضعف ذاك بثَّ رجاءً جديدًا. فقد خلص الرسول بولس إلى القول: "إن كان الله معنا، فمن علينا؟" مُرسِيًا إيمانه في المحبَّة اللامُتناهية التي يزخر بها قلبُ إلهٍ "لم يُشفِق على ابنه، بل بذله لأجلنا أجمعين". فالمحبَّة تكون أكثر إقناعًا حين تنطوي على تضحية، والأناجيل تُوضِح بجلاء أنَّ يسوع

جاء لكي يموت. وبكلمته هو: "ليس لأحدٍ حبٌّ أعظم من هذا: أن يضعَ أحد نفسه لأجل أحبّائه". فبطريقةٍ ما، تطلَّبت إمكانيَّةُ السعادة الأبديَّة هذا الوقتَ المُفعَم بالصمت وخيبة الأمل المُرَّة.

الشواهد الكتابيَّة: متّى ٢٦و ٢٧؛ رومية ٨؛ يوحنّا ١٥.

١٧

التقدُّم



قلتُ: "يا سيِّدتي، لو كان إلهنا إلهًا وثنيًا، أو إله أرباب الفِكر- وكلا الأمرين سيّانِ عندي- لكان يطير إلى سمائه القُصوى، ثُمَّ يُرغمه غمُّنا على النزول إلى الأرض من جديد. ولكنَّك تعرفين أنَّ إلهنا جاء ليكون بيننا. فهُزّي قبضتك عليه، وابصقي في وجهه، واجلديه، ثُمَّ اصليبه أخيرًا: ماذا يهمُّ ذلك كلّه؟ يا ابنتي، لقد فُعِل به هذا كلّه حقًا!"

جورج برنانُس، مفكّرة كاهنٍ قرية

لأقُلها بصراحة: أيُّ فرقٍ يُحدِثه المسيح لمشاعر خيبتنا بالله؟ وكيف يُساعِدنا أن نعلم أنّه هو أيضًا عانى الخيبة؟

يُفسِّر اللاهوتيّين، على خُطَى الرسول بولس، عادةً إسهام المسيح بألفاظٍ قضائيّة: التبرير، المُصالحة، الكفّارة. ولكنَّ هذه الكلمات إنَّما تُلمِّح إلى ما حدث فعلًا. فلكي نعيَ الفرق الذي يُحدِثه المسيح بالنسبة إلى معضلة الخيبة، علينا أن نتخطّى ببصرنا كلماتٍ من هذا النَّوع إلى تلك القصَّة التي تكمن وراءها والتي تتحدَّث عن سعي الله الحثيث وراء الكائنات البشريَّة.

عُد بأفكارك إلى واحدةٍ من الصُّوَر البيانيَّة الرئيسة في أسفار الأنبياء: أبٌ عطوف

مُغتمٌّ من أجل ولده العاقِّ الهارب. فإنَّ قصَّة يسوع عن الابن الضالّ تُقدِّم خاتمةً سعيدة في آخر الأمر. لقدِ انتظر الأبُ طويلًا كفاية؛ وها هو يفتح الباب على مصراعيه ويركض كي يُرحِّب بالهارب الآيب تحت سقفه، بغيرِ سؤالٍ قطعًا.

الستارة المشقوقة

أيَّ فرقٍ أحدث المسيح؟ بالنسبة إلى الله وإلينا على السواء، أتاح إنشاء علاقةٍ حميمة لم تنوجد قطُّ من قبل. ففي العهد القديم، كان اليهود الذين يلمسون تابوت العهد المقدَّسَ يُصرَعون توًّا؛ أمَّا الأشخاص الذين لمسوا يسوع، ابن الله الظاهر في الجسد، فقد مضوا مُعافَين أصحّاء. واليهود الذين ما كانوا يتلفَّظون باسم الله ولا ينطقون بأحرُفه، علَّمهم يسوع طريقةً جديدة في مخاطبة الله: أبًا، أو "بابا". ففي يسوع المسيح اقترب الله إلينا أقربَ اقتراب.

وفي "اعترافات" أُغسطينوس وصفٌ لكيفيَّة تأثير هذا الاقتراب فيه. فهو قد تعلَّم من الفلسفة اليونانيَّة عن إلهٍ كاملٍ سرمديٍّ خالد، ولكنَّه لم يستطع أن يفهم كيف يتأتّى لشخصٍ شهوانيٍّ وغير منضبطٍ مثله أن يدنوَ من إله بهذه الطبيعة. ثمَّ جرَّب مختلف البِدَع الشائعة في عصره، فوجدَها كلَّها غيرَ مُرضية أو مُشبِعة، إلى أن قابل أخيرًا يسوع الأناجيل فوجده جسرًا بين الكائنات البشريَّة العاديَّة والإله الكلِّيِّ الكمال.

ويعمد سِفرُ العبرانيِّين إلى سَبر أغوار هذه النُّقلة الجديدة المذهلة على صعيد العلاقة الوثيقة الحميمة. فأوَّلًا يُفصِّل الكاتب القولَ في ما كان مطلوبًا للاقتراب إلى الله في أزمنة العهد القديم مُجرَّدَ اقتراب. فمرَّةً واحدة في السنة فقط، في يوم الكفّارة، كان في وسع شخصٍ واحد، هو رئيسُ الكهنة، أن يدخل قُدس الأقداس. وقد تضمَّن ذلك الاحتفال اغتسالًا طقسيًّا، ولباسًا خاصًّا، وخمس ذبائح حيوانيَّة منفصلة؛ ومع ذلك كان الكاهن الأعلى يدخل قدس الأقداس مُتهيِّبًا مرتعدًا. إذ كانت تُعلَّق أجراسٌ في

أهداب ثوبه وحبلٌ حول كاحله، حتّى إذا مات وكفَّتِ الأجراس عن الجَلجَلة يتمكَّن كهنةٌ آخرون من سحب جُثَّته.

مِن ثَمَّ يرسم سِفرُ العبرانيِّين المُفارقةَ الجليَّة: في وسعنا الآن أن "نتقدَّم بثقة إلى عرش النعمة"، بلا خَوف. الدخول بجسارة إلى قُدسِ الأقداس: ما مِن صورة يُمكِن أن تتضمَّن دلالةً أكثر إدهاشًا للقرّاء اليهود! إنَّما لحظةَ موتِ يسوع، انشقَّت ستارةٌ صفيقة داخل الهيكل انشقاقًا فعليًّا شطرها شطرين من فوقُ إلى أسفل، وبذلك انفتح سبيلُ القُدوم إلى داخل قدس الأقداس. وعليه، يخلص كاتبُ العبرانيِّين إلى القول: "لنقترِب إلى الله"!

إنَّ يسوع يُقدِّم هذا الإسهام على الأقلّ بالنسبة إلى مشكلة خيبة الأمل بالله: بفضلِه يمكننا أن نتقدَّم إلى الله مباشرةً. فلا حاجةَ بنا إلى وسيطٍ بشريّ، لأنَّ الله نفسه صار لنا هذا الوسيط.

وَجهٌ

لم يكن في وسع أحدٍ في العهد القديم أن يدَّعيَ أنَّه يعرف وجه الله. بل بالحقيقة لم يكُن في وسع أحد أن يبقى حيًّا بعد إلقائه نظرةً مباشرة على الحضرة الإلهيَّة. والأقلاء الذين كانت لهم لمحةٌ على مجد الله مضوا مُتألِّقين كالكائنات غير الأرضيَّة، في حين أنَّ جميع الذين شاهدوه اختبأوا خوفًا. ولكنَّ المسيح يسَّر إلقاء نظرة مُتأنيَّة وطويلة على وجه الله. وقد قال: "الذي رآني، فقد رأى الآب". فكلُّ ما هو يسوع، هو الله. وكما عبَّر مايكل رامزي: "ليس في الله شيءٌ يخلو من شَبَه المسيح إطلاقًا".

ينشأ الناس على كلِّ نوع من المفاهيم بشأن حقيقة الله. فقد ينظرون إلى الله نظرتَهم إلى عدوّ، أو شرطيّ، أو حتّى أبٍ ظالم. أو ربَّما لا ينظرون إلى الله أيَّةَ نظرة، ولا يسمعون سوى صمته. ولكنْ بفضل الربِّ يسوع، لم نعُد مُضطرِّين إلى التساؤل عن مشاعر الله ولا عن هيئته. فإذا خامرَنا الشكّ، يمكننا أن ننظر إلى يسوع لتستقيم رؤيتُنا المشوَّشة.

إذا تساءلتُ كيف ينظر الله إلى المشوَّهين أو المعوَّقين، يمكنني أن أُراقِب المسيح بين المشلولين والمكفوفين والمجذومين (البُرص). وإذا تساءلتُ بشأن الفقراء، وهل قدَّر الله لهم حياةَ البؤس، يمكنني أن أقرأ كلمات المسيح في الموعظة على الجبل. وإذا تساءلتُ مرَّةً عن ردَّة الفعل "الروحيَّة" السليمة على الألم والمُعاناة، يمكنني أن ألاحِظ كيف كانت ردَّة فعل المسيح على آلامه: بخشية ورعدة، بصُراخ ودموع.

ليس بَعد

لا يَسعُني إلاَّ أن ألاحِظ تحوُّلًا مفاجئًا في وتيرة الكتاب المقدَّس حوالَي سفر الأعمال. فإنْ تصفَّحتَ باقيَ كتاب العهد الجديد، فلن تجد شيئًا من حَنَق أيُّوب، ولا من يأس الجامعة، ولا من غَمّ سِفر المراثي. إذ يبدو جليًّا أنَّ كُتَّاب العهد الجديد كانوا مُقتنعِين بأنَّ يسوع قد غيَّر الكون إلى الأبد. فالرسول بولس مثلًا، وهو ينثر شظايا الجُمَل على الصفحة، لم يُوفِّر أيَّة صيغة امتيازٍ وتفوُّق: في المسيح "يقوم الكلّ"، وقد سُرَّ الله "أن يُصالح به الكلَّ لنفسه... سواءٌ كان ما على الأرض، أم ما في السماوات،" والله قد "أجلسه عن يمينه في السماويّات، فوق كلِّ رئاسة وسلطان وقوَّة وسيادة، وكلِّ اسمٍ يُسمَّى، ليس في هذا الدَّهر فقط، بل في المستقبَل أيضًا".

ولكنْ بينَما كان بولس يكتب هذه الكلمات بالذات، كانت الإمبراطوريَّة الرومانيَّة ماضيةً في دُوَّامة حروبها وطُغاتها الكئيبة، والناس في كلِّ مكانٍ ما زالوا يكذبون ويسرقون ويقتلون بعضُهم بعضًا، والأمراضُ ما زالت تنتشر، والمسيحيُّون أنفسُهم تُلهِب ظهورهم السِّياط ويُطرحون في غياهب السجون. إلاَّ أنَّ مثل هذه الأسباب الشائعة الداعية إلى الشكِّ وخيبة الأمل لم يبدُ أنَّها زعزعت ثقة الرُّسل بأنَّ يسوع سيأتي ثانيةً، كما وعد، بقوَّةٍ ومجد عظيم. إنَّما كانت المسألة مسألة وقتٍ لا أكثر. ولئن سبق أن شكُّوا فيه مرَّةً، فلن يشكُّوا فيه ثانيةً بعد القيامة.

بيدَ أنَّ نغمة كُتَّاب العهد الجديد الواثقة الراسخة تُثير مُعضِلة: لماذا، بعد نحو

عشرين قرنًا من زمن الرسول بولس، أُضطَرُّ إلى تخصيص كتابٍ بكامله لموضوع خيبة الأمل بالله؟ وأُولئك الذين أخبروني بقصصهم التي تعتصر القلوب، لماذا يفتقرون إلى اليقين الجسور الذي كان لدى كُتَّاب العهد الجديد؟ لماذا لم تتلاشَ خيبتُنا تمامًا؟

بينما أُفكِّر في هذه الأُمور، أَظلُّ أعود إلى السؤال عن الظُّلم دون سواه: هل الله ظالم؟ فبطريقةٍ رائعة، قدَّم يسوع إجابةً مباشرةً عن مسألتَي احتجاب الله وصمته. ولكنَّ مشكلة الظُّلم لم تزدَد إلاَّ سوءًا. فحياة يسوع نفسه انتهت بأعظم جَور في التاريخ: أفضلُ إنسان عاش على وجه الأرض معانيًا أسوأ العقوبات. ضحيَّةٌ إضافيَّة أُخرى من ضحايا كوكبٍ قاسٍ. ولم تكد الأحوال تتحسَّن بعد موته، حين تلقَّى تلاميذه "مُكافآت" السجن والاضطهاد والتعذيب والاستشهاد. فإنَّ مُشكِلة الظُّلم لم تختفِ.

وممَّا يُدهِش أنَّ كاتب العبرانيِّين توقَّع ذلك الوضع عينه كما يبدو، في ما يُشبِه إقرارًا غامضًا بأنَّ الناس سيظلُّون يُعانون خيبة الأمل بالله. ففي أوائل الأصحاح الثاني سؤالٌ رفيع من المزامير عن إخضاع الله كلَّ شيءٍ تحت قدمي المسيح. ثُمَّ تلي هذه العبارة الوحيدة الحافلةُ بالدلالة: "على أنَّنا الآن لسنا نرى الكُلَّ بعدُ مُخضعًا له".

بوصفي كاتبًا، أعلم وقعَ كلامي حين أكتب ما أعتقده صَحيحًا، ثُمَّ أسأل بُعيد كتابته: أأعني ذلك حقًّا؟ وكاتبُ العبرانيِّين، بعدما دوَّن زُبدة المفهوم اللاهوتيِّ الرفيع مُستشهِدًا بالمزامير، يبدو كذلك أنَّه يتوقَّف ويُعيد النظر في ما يقوله. نعم، صحيحٌ أنَّ يسوع مُمسِكٌ بزمام السيطرة... ولكنْ لا يبدو واقعُ الحال هكذا يقينًا: "الآن لسنا نرى الكُلَّ بعدُ مُخضعًا له". فهذه الجُملة الوجيزة تضمُّ في نطاقها كلَّ ظُلم: كلَّ حربٍ وعُنف، كلَّ بغضٍ وشهوة، كلَّ استظهارٍ للشرِّ على الخير، كلَّ مرض وموت، كلَّ دموع وأنين، كلَّ ما في هذا العالم الفوضويِّ من خيبةٍ ويأس. لعلَّ هذه "أصدقُ" عبارة في الكتاب المقدَّس!

ثُمَّ تمضي الفِقرة لتقول إنَّ يسوع عانى الموت: "لكي يذوق بنعمة الله الموت لأجل كلِّ واحد". فعلى نحوٍ لافت، لا تستدعي رسالة العبرانيِّين صورة ظافرة ليسوع على

جبل التجلّي، ولا في جسد قيامته؛ بل تُرينا المسيح على الصليب. ثُمَّ يمضي الكاتب ليستخدم شيئًا من لغة العهد الجديد الأكثر غموضًا. إذ يتكلّم عن المسيح "مُكمَّلًا" و"متعلّمًا الطاعة" عبرَ ما عاناه. وكثيرًا ما يتفادى المفسّرون من هذه العبارات، لأنّها غيرُ سهلةِ التوفيق مع المفاهيم المُتوارَثة بشأنِ إلهٍ عديمِ التغيُّرِ وشُبوبِ العواطف. ولكن عليَّ ألاّ أتفادى منها، لأنّها مُقدَّمة في العبرانيّين بوصفها إسهامَ يسوع المباشرَ في ما يتعلّق بمشكلة خيبة الأمل بالله، تلك المشكلة المُستديمة.

من سِفر العبرانيّين، يبدو واضحًا أنّ التجسُّد كان ذا معنًى لله كما لنا أيضًا. فقد كان الطريقةَ الحاسمة عنده للتماهي[1] معنا. فإنّه، وهو روح، لم ينحصر قطُّ في عالم المادّة، ولم يختبر قطُّ انجراحيّةَ[2] الجسم البشريّ الرقيقة، ولم يحسَّ قطُّ الإنذارات المُمِضّة[3] الصادرة من خلايا الألم. وقد غيَّر يسوع ذلك كلَّه. فقَدْ اجتاز كامل الاختبار البشريّ، من دم الولادة وألمها إلى دم الموت وألمه.

يمكننا أن نكتسب من العهد القديم كثيرًا من التبصُّر بشأن الشعور الذي يُخالج الله من حيث كونُه إلهًا. ولكنَّ العهد الجديد يُسجِّل ما حدث لمّا تعلّم الله حقيقة الشعور الذي يُخالِجه عند صيرورته كائنًا بشريًّا. فكلُّ ما نشعر به، شعر به الله. ونحن بالفطرة نُريد إلهًا ليس يعلم بأمر الألم فقط بل يشترك فيه أيضًا؛ نُريد إلهًا يتأثّر بألمنا الخاصّ. على حدِّ ما خربش اللاهوتيُّ الشابُّ دايترش بُونهويفر على بطاقة في معسكر اعتقالٍ نازيّ: "الإله المُتألِّم وحده يقدر أن يُعين." فبفضل يسوع، لنا إلهٌ كهذا. وتُفيدنا رسالة العبرانيّين أنّ الله يستطيع الآن أن يرثيَ لضعفاتنا. والفعل "يرثي" ترجمةٌ لِلفظة يونانيّة مُكوَّنة من كلمتين "سِم باثوس" بمعنى "يتألّم مع...".

أيكون من المُبالغة أن نقول إنّ الله، بفضل يسوع، يفهم مشاعر خيبتنا به؟ وإلاّ، فكيف

[1] التماهي هو دمج المرء نفسه مع شخص أو جماعة
[2] الانجراحية تعني سهولة الجرح والعطب، سهولة التعرض للهجوم.
[3] الممضة تعني المؤلمة أو المعذِّبة.

نُفسِّر بغير هذا دموعَ يسوع، أو صرخته مِن على الصليب؟ حتّى ليَكادُ المرء يستطيع أن يصبَّ أسئلة هذا الكتاب الثلاثة في تلك الصرخة الرهيبة: "إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟" فإنَّ ابن الله "تعلّم الطاعة" من آلامه، كما تقول رسالة العبرانيّين. ولا يتعلّم المرءُ الطاعة إلاّ إذا جُرِّب بألاّ يُطيع، كما لا يتعلّم الشجاعة إلاّ إذا جُرِّب بأن يهرب.

لماذا لم يُلوِّح يسوع بسيف في جَثْسيماني، أو يستدعِ جيوشه الملائكيّة؟ ولماذا رفض تحدِّيَ الشيطان بأن يبهر العالم؟ لهذا السبب: لو فعل ذلك، لأخفق في مهمّته الأهمّ - أن يصير واحدًا منّا، وأن يعيش ويموت كواحدٍ منّا. فقد كانت تلك هي الطريقة الوحيدة التي يمكن بها أن يتصرَّف الله "ضمن إطار القوانين" التي أرساها عند الخَلق.

في الكتاب المقدَّس كلِّه، ولا سيّما في أسفار الأنبياء، نرى صراعًا يحتدم داخلَ الله. فهو من جهة أحبَّ بشغفٍ البشر الذين صنعهم، ومن جهةٍ أُخرى كان لديه حافزٌ مُروِّع لإبادة الشرِّ الذي استعبدهم. وعلى الصليب، حسم الله ذلك الصراع الداخليّ: فهنالك امتصَّ ابنُه القوّة المُدمِّرة وحوّلها إلى محبّة.

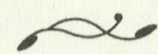
الطريقة الحاسمة الوحيدة لقهر الشرّ هي أن ندعه يخمد داخل كائنٍ بشريٍّ طائعٍ حيّ. فعندما يُمتَصّ هناك، كالدَّمِ في إسفنجة أو كرُمحٍ يُغرز في قلب امرئٍ، عندئذٍ يفقد قوّته ويكفُّ عن التقدُّم.

غايل دي وَبّ، الليل واللاشيء

الشواهد الكتابيّة: عبرانيّين ٤، ١٠؛ يوحنّا ١٤؛ كولوسّي ١؛ أفسس ١؛ عبرانيّين ٢-٥.

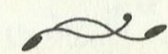
القسم الرابع

الانتداب: الروح



١٨

تسليمُ الأمانة



ها هي معدتك تخبط من فرط توتُّرك المُصاحِب لأوَّل يوم لك في عمل جديد. هل أُبلي بلاءً حسنًا؟ ماذا لو فعلتُ ما هو خطأ؟ هل أروق المُعلِّم؟ ثُمَّ تَسترِق النظر إلى الآخرين الذين يُغمِضون عيونهم نصفَ إغماضة مقابل وهج الشمس، متنقِّلين من ساقٍ إلى ساق، وهم يرسمون بعصبيَّة أشكالًا في الرمل بأطراف صنادلهم. فأنتم السبعين تلقيَّتم استدعاءً للحضور في سبيل مهمَّة خاصَّة.

ها هو يسوع يُلقي خُطبةً مُحكَمة. ويُخيَّل إليك أنَّه قَلِق، كما أنَّ كلماته تُعبِّر عن تنبيه إلى الخطر: "ها أنا أُرسلكم مثل حُملان بين ذئاب. لا تحملوا كيسًا ولا مِزوَدًا ولا أحذية، ولا تُسلِّموا على أحدٍ في الطريق". حتَّى إذا وصل إلى الجُملة الختاميَّة، ارتفع صوتُه في جَرْسٍ يستحوذ على الانتباه: "الذي يسمع منكم يسمع منِّي؛ والذي يُرذِلكم يرذلني؛ والذي يرذلني يرذل الذي أرسلني". ماذا يُفترَض أن يعني هذا؟ ثُمَّ تبدأ الجماعة تتفرَّق، فتبتلع شكوكك وتنطلق مع رفيقك المعيَّن لتأدية المهمَّة المحدَّدة.

وتالي مرَّةٍ ترى يسوع، بعد أيَّام قليلة، يبدو لك كمن غيَّر وجهه. فقد تلاشت منه كلُّ صرامة وتوجُّس. وها هو يبتسم ابتسامات عريضةً لأخبارك، ملتمسًا منك أن تُفصِّل. فلا يبدو مكتفيًا بالتفاصيل التي تسردها عن الشفاءات ووقائع طرد الأرواح

الشرِّيرة وتغيِّر حياة الناس. لقد أبليتَ حسنًا بالفعل، إذ نجحت في هذه المهمَّة الخطرة وسط القُرى الجبليَّة، ويسوع مبتهج جدًّا. إنَّها حفلةُ انتصار. فأصغِ إليه طويلًا بما يكفي، ولَسوف تؤمن بأنَّك تستطيع أن تفعل أيَّ شيء: تدوس الحيَّات والعقارب، وتقتحم كلَّ صعوبة.

وفي منتصف سردك الأخبار، يرفع يده ليُقاطعك. إنَّه لا يُطيق اصطبارًا. ولم يسبق لك أن رأيتَه منفعلًا هكذا وهو يُعلن أنْ "رأيتُ الشيطان ساقطًا مثل البرق من السماء!" ومع أنَّك لا تملك أدنى فكرةٍ عمَّا يقصد، تغمرك موجة الحماسة المفاجئة. لا بدَّ أنَّ اختراقًا هائلًا ما قد حصل للتوّ. ثُمَّ ينحني مقتربًا أكثر ليقول بصوتٍ خفيض: "إنَّ أنبياء كثيرين وملوكًا أرادوا أن ينظروا ما أنتم تنظرون ولم ينظروا، وأن يسمعوا ما أنتم تسمعون ولم يسمعوا".

الامتحان الأخير

مشهدٌ آخر، بعد نحو ستَّة أشهر. وأنت هذه المرَّة تتعشَّى مع باقي الاثني عشر في غرفة صغيرة بمدينة القُدس، حيث يعمُّ المكانَ شعورٌ بانسداد الأُفق والانغلاق، وتعتريك دوخةٌ يسيرة بعد الوليمة والنبيذ. كلُّ شيء يحدث بسرعة. ففي وقتٍ سابق من هذا الأُسبوع، سمح يسوع باستعراضٍ نادر وسط مُناداة علنيَّة وهُتاف إذ دخل المدينة مُمتطيًا جحشًا في موكبٍ ظافر. وبدا أنَّ جميع أحلامك توشك أن تتحقَّق في آخِر المطاف. غير أنَّ جوَّ الليلة يُنذِر بالسوء.

أوَّلًا حصلت واقعة غسل الأرجل، حين أربك يسوعُ بطرس. بلِ الآن، فيما يسوع يتكلَّم، مزاجُه يترجَّح. فدقيقةً يبدو عليه الحنينُ والتشجيع، والتاليةَ ينتهرك فجأةً للبلادة وقلَّة الإيمان. وما ينفكُّ يُلمع إلى الخيانة. ولا تستوعبُ بعض ذلك. إلاَّ أنَّه يُصِرُّ على أمرٍ واحد، فوق كلِّ اعتراض وهو أنَّه مُغادِر. وسيأتي شخصٌ آخر ينوب عنه، شخصٌ يُسمِّيه المُعزِّي.

ثمَّ تحدث حركة مُفاجئة في الغرفة، كالريح إذ تُحرِّك العشب. لقد مضت أشهر وأنت تنتظر أن يتولَّى يسوع السُّلطة في مملكته. ولكنَّه الآن يُسلِّم الأمرَ برمَّته... إليكم أنتم الاثني عشر! إذ يُجيل نظره في الجالسين إلى المائدة ويقول بطريقة حاسمة: "أنا أجعل لكم، كما جعل لي أبي، ملكوتًا!"

الرحيل

حسنًا، لقد أخفقتم... كلُّكم؛ حتَّى بطرس، بعدما تبجَّح بولائه قبل سُوَيعاتٍ من الإنكار الفظيع. وكان يسوع قد قال، في الغرفة الصغيرة تلك اللَّيلة: "أنا قد غلبتُ العالم!" ولكنَّكم لم تستطيعوا قطُّ أن تُوفِّقوا بين كلامه وما حصل تاليًا. فبعد أقلَّ من أربع وعشرين ساعة رأيتموه معلَّقًا على الصليب مُجرَّدًا، وجسدُه الواهن يبدو غير واضح الملامح في ضوء المشعل. أهذا هو مُخلِّص أُمَّتكم، ملكُ الملوك؟ لا يُعقَل أن تطلبوا من أيِّ امرئٍ أن يؤمن!

ذاك كان يوم الجمعة.

ويومَ الأحد، اخترقت شائعاتٌ غريبة عجيبة حلقة النائحين المُتضامَّة. ثُمَّ في وقتٍ لاحق من ذلك الأُسبوع رأيتَه. إذًا الأمرُ حقّ! وأنتَ لمستَه بيديك. إنَّه يسوع! وقد فعل ما لم يفعله أحدٌ من قبل: إذ مضى إلى الموت طوعًا واختيارًا، ثُمَّ رجع منه حيًّا. فلن تشكَّ فيه بعدُ أبدًا أبدًا.

وعلى مدى أربعين يومًا ظلَّ يسوع يظهر ويختفي كما يبدو مثلما أراد. فإذا تراءى، أصغيتَ بشوق إلى تفسيره لِما جرى. ثمَّ إذا توارى، وضعتُم، أنت والآخرون، خُططًا للملكوت الجديد. فكِّر في الأمر: أُورشليم حرَّةً في آخر الأمر من الحُكم الرومانيّ! لطالما سخر الأصدقاء من تعلُّقك العنيد بهذا الواعظ الفلاَّح. فالآنَ ستُريهم الحقيقة. ولَن يُزيحَك أحدٌ جانبًا بعد اليوم، كما أنَّ أُمَّتك لن تلقى الخسف والعسف بعد. ومن الطبيعيّ أن يُولى بطرس ويعقوب ويوحنَّا المكانةَ الوُثقى في المناصب العُليا.

ولكنَّ المملكة لا بدَّ أن تحتاج إلى كثيرٍ من القُوَّاد... وبعدُ، أفلَم تتبعْ أنت يسوعَ ثلاث سنين؟ والمسيّا، المسيحُ الحقُّ، قد عدَّك من جُملة تلاميذه الحميمين!

وفي أثناء تلكَ الأربعين يومًا، لم يخبُ شيءٌ من الألَق. أنّى ذلك، وكلُّ ظهورٍ من يسوع كان معجزةً جديدة؟ أخيرًا ساق إليه أحدُكم السؤال، السؤالَ المُتّقِد الذي ما برحتُم كلُّكم تتناقشون فيه: "يا ربّ، هل في هذا الوقت تردُّ المُلك إلى إسرائيل؟" وانتظرتُم حابسي الأنفاس إشارةً ما... ربّما دعوةً إلى حمل السلاح، أو خُطّةً حربيّة. فالرُّومان لن يُخلوا الساحة بغير معركة.

ما كان أحدٌ مهيّأً لردَّة فعل يسوع. إذ بدا أوّلًا أنّه لم يسمع السؤال جيّدًا. فلم يُبالِ به، وبدأ يتحدَّث لا عن الأُمّة، بل عن بلدانٍ مُجاوِرة وأماكنَ أُخرى أبعد. وقال إنّ عليكم أن تذهبوا إلى هناك أخيرًا شهودًا له. أمّا الآن فما عليكم إلاّ الرجوع إلى أُورشليم وانتظارُ الروح القدس.

ثُمَّ حدث أعجبُ شيءٍ يفوق التصوُّر. فقد كنتُم واقفين هناك، تُصغون إليه، إذ بدأ جسمُه فجأةً يرتفع عن الأرض. ولبث في الهواء هُنيهةً، ثُمّ وارته سحابةٌ عنِ العِيان. بعد ذلك لم ترَوا يسوع ثانيةً!

ثلاثة مشاهد

تكشف هذه المشاهد الثلاثة- إرسال السَّبعِين والعشاء الأخير والصُّعود- كلُّها شيئًا عن سبب مجيء يسوع إلى الأرض، وسبب مغادرته لها. صحيحٌ أنّه جاء كي يُقِرَّ العدالة الإلهيّة ويُطلِعَنا على حقيقة الله. ولكنّه أيضًا جاء لكي يبني كنيسة، مسكنًا جديدًا لروح الله.

لذلك السبب، حين رجع السَّبعون وأخبروا المسيح بما حصل معهم، كاد يطفر فرحًا. كان قد قال لهم: "الذي يسمع منكم، يسمع منّي!" وإذا الخطّةُ تجري جيّدًا بالفعل. فإنّ رسالتَه- بل أكثر من ذلك: حياتَه- عيشت من خلال سبعين كائنًا بشريًّا من العامّة.

وفي العشاء الأخير مع التلاميذ، عبَّر يسوع عن معنى إلحاحيَّةٍ أعظم. فهم كانوا أصدقاءه الأدنَين في العالم كلّه وقد آن أوانُ تسليم الرسالة بكاملها إليهم... إلى هؤلاء الأصدقاء المُسارِعين حينًا إلى إبداء احتجاجاتهم المؤكّدة لولائهم والمُسارعين بعدَ حينٍ إلى إنكار سيّدهم. ولاحقًا قال لهم: "كما أرسلني الآب أُرسلكم أنا،" عالمًا أنّهم لم يستوعبوا. فهذه الجماعة الصغيرة ستحمل رسالته إلى أورشليم، وإلى كلِّ اليهوديّة والسامرة، ثُمَّ إلى أماكنَ لم يزُرها هو قطُّ... إلى أقصى الأرض.

عند الصُّعود، غادر جسدُ يسوع الأرض أمام أعيُن تلاميذه المدهوشين. ولكنْ سريعًا، سريعًا جدًّا، يومَ الخمسين، سيسكن روح الله في أجسادٍ أُخرى، أجسادهم هُم.

الشواهد الكتابيّة: لوقا ١٠؛ يوحنّا ١٣-١٧؛ أعمال الرُّسل ١.

١٩

تغيُّراتٌ في الرِّيح

سلسلةُ أفلامٍ وثائقيَّة عنِ الدِّين لطلاَّب الجامعات. عظيم! واجبٌ دراسيٌّ آخر تنفغر له الأفواه. "استكشِف صُوَرًا عنِ الأُلوهية عبرَ العصور" أو تعبيرٌ تجريديٌّ آخر من هذا القبيل، كما يقولون. لا بأس. مَن يطلع بهذه المشاريع؟ فبالنسبة إلى المبتدئين، الشخصيَّةُ الرئيسةُ غير مرئيَّة.

حسنًا، إلى أن يهتديَ أحدُهم إلى طريقةٍ لترتيب مقابلة مع الله نفسه، سيكون عليهم أن يركنوا إلى مشاهِد وجيزة عن الله.

القرن الرابع عشر قبل الميلاد. البدء بجولة تصوير من الهليكوبتر لقِمَم سيناء. منطقة غير آهلة، فلا ضرورة لفكِّ هوائيٍّ تلفزيونيٍّ، إلخ. تركِّز عدسة الكاميرا مقتربة إلى مجموعة من البدو يُمثِّلون العبرانيِّين القدامى. تدخُلُ صوتيٌّ يُبيِّن كيف يأكلون وماذا يلبسون. تركيزٌ على فتًى عبرانيٍّ ابن اثنتي عشرة سنة. مقاطعتُه عن اللعب، واستدعاؤه.

يسأله الراوي: "حدِّثني عن إلهكم. كيف هو؟"

تتَّسع حدقتا عينيه: "تقصد... تقصد..." ولا يستطيع التلفُّظ بالكلمة.

"صحيح! يهوه، الإله الذي تعبدونه".

"كيف هو؟ هو؟ أترى ذلك الجبل هناك؟ (عرض صورة بركان. كثيرٌ من البخار والدخان. تقريب منظر الصُّهارة). ذلك هو مسكنُه. لا تقتربوا منه وإلاَّ فإنَّكم ستموتون! إنَّه... إنَّه... حسنًا، فوق كلِّ شيءٍ مخيف، مُخيف فعلًا".

القرن الأوَّل الميلادي. تدوير التصوير عبر أُفقٍ عريض منبسط في فلسطين. جماعة البدو نفسُها، يجوبون الصحراء الآن معًا. تظهر واحة في الخلفيَّة. تركيز على مجموعة من المتفرِّجين، ثُمَّ على امرأة جالسة عند الطَّرَف، مُسنِدةً ظهرها إلى شُجيرةٍ صحراويَّة، تُلقِّنُ ما يلي:

"الله؟ ما زلتُ أُحاوِل أن أتصوَّر حقيقة. ظننتُ أنَّني عرفت، ولكنْ لمَّا بدأتُ أتبع هذا المعلِّم من مكانٍ إلى مكان، وقعتُ في الارتباك. فهو يقول إنَّه المسيح. وصديقاتي يضحكن. ولكنَّني كنتُ بين الجموع يومَ أشبع خمسة آلاف نفس... فمَن غيره يمكن أن يفعل ذلك. وبعينيَّ هاتين رأيتُه يشفي رجُلًا أعمى".

"فبطريقةٍ أو بأُخرى، الله مثلُ ذلك الإنسان المدعوّ يسوع والواقفِ هُناك".

القرن العشرون الميلادي. خُذ طاقم التصوير لنقل مشهد حيٍّ لكنيسةٍ في مدينة صغيرة بأميركا. ركِّز على وجوه الجالسين على المقاعد. وليُسمَع صوت الراوي قائلًا: "وكيف هو الله الآن؟"

يطلب منّا كتابُ العهد الجديد أن نُصدِّق أنَّ الجواب يكمن في تلك الكنيسة الصغيرة، بين أُولئك القوم العاديِّين الجالسين على المقاعد. فالله في المسيح شيء، أمَّا فينا نحن فأيُّ شيء؟ إنَّ الطريقة الوحيدة لتحسُّس الصَّدمة في هذا الأمر هي أن نقرأ الكتاب المقدَّس كلَّه على التوالي، من التكوين إلى الرؤيا، كما فعلتُ أنا في أيَّام الثلج تلك بكولورادو.

إنَّ ربَّ الكون القدير المهيب، المُفعَم عاطفةً ونارًا وقداسة، يطغى على أوَّل ألف صفحة. ثمَّ تلي أربعة أناجيل، في نحو مئةٍ وخمسين صفحة، تسرد سيرة يسوع على

الأرض. ولكنْ بعد أعمال الرُّسل، ينتقل الكتاب المقدَّس إلى سلسلة من الرسائل الشخصيَّة. يونانيُّون ورومانيُّون ويهود، وعبيد ومالكو عبيد، ونساء ورجال وأولاد: هذه الجماعات المتنوِّعة تُخاطِبها الرسائل، ومع ذلك تفترض كلُّ رسالةٍ أنَّ قُرَّاءها ينتمون إلى كِيانٍ جديد مُهيمِن، لكونهم جميعًا "في المسيح".

"ليست الكنيسة سوى شريحة من البشريَّة اتَّخذ فيها المسيح بالحقيقة شكلًا ملموسًا،" هكذا قال دَيترش بونهويفر. وقد عبَّر الرسول بولس تقريبًا عن الفكرة ذاتها بالتعبير "جسد المسيح". فكما رأى بولس ذلك، كان نوعٌ جديد من البشر يبرز على الأرض، فيه يسكن الله نفسُه: الروحُ القدس. وكان هؤلاء امتدادًا لذراعَي الله ورجلَيه وعينيه على الأرض. وما هو أكثر من ذلك أنَّ بولس تصرَّف كما لو كان ذلك غرض الله دائمًا وأبدًا.

"أما تعلمون أنَّكم هيكل الله، وروح الله يسكن فيكم؟" ذلك هو ما كتبه بولس إلى الجماعة الجامِحَة في كورنثوس. وبالطبع، كان الهيكل بالنسبة إلى اليهود مبنًى فعليًّا شكَّل المكان المركزيَّ الذي أقامت فيه الحضرة الإلهيَّة على الأرض. فهل كان بولس يعني- بتعبيرٍ صريح- أنَّ الله قد "انتقل" إلى مقرٍّ جديد؟

تظهر في الكتاب المقدَّس ثلاثة هياكل. وإذا نظرنا إليها معًا، فهي تُمثِّل تواليًا: إذ أعلن ذاته أولًا من حيث هو الآب، ثُمَّ الابن، وأخيرًا الروح القدس*. وقد كان الهيكل الأوَّل بناءً فخمًا شيَّده سليمان ثُمَّ رمَّمه هيرودس. وكان الثاني "هيكلَ" جسد يسوع (كقوله: "انقُضوا هذا الهيكل، وفي ثلاثة أيَّام أُقيمه"). والآن تَشكَّل هيكلٌ ثالث، مُكوَّنٌ من كائناتٍ بشريَّة فردة.

* إنَّني أُدرِك أنَّ الثالوث ليس عقيدة بسيطة على الإطلاق، وأنَّ أنشطة الآب والابن يمكن ترسُّمها في كلِّ موضعٍ من كتاب العهد القديم. ولكنَّنا على الأرجح لن نتكلَّم أبدًا عن الثالوث بمعزلٍ عن التجسُّد ويوم الخمسين. فكلا الحدَثين أعلن عن الله شيئًا لم يكن معروفًا من قبل، وكلاهما أحدث انقلابًا في طريقة تفكير الناس بشأن الله.

التفويض

يبدو أنَّه لا يفعل هو نفسُه أيَّ شيءٍ يمكنه احتمالًا أن يُفوِّضه إلى خلائقه. فهو يأمرنا بأن نفعل ببطءٍ وتعثُّرٍ ما يسعه أن يفعله على نحوٍ كامل وفي طرفة عين.

فالخَلق يبدو تفويضًا بكلِّ معنى الكلمة. وأعتقد أنَّ الحال على هذا المنوال لأنَّه تعالى معطاء. (سي أس لِويس)

وفي الواقع أنَّ توالي الإعلان- الآب والابن والروح القدس- يُمثِّل تقدُّمًا ضخمًا في علاقة المودَّة الوثيقة. ففي سيناء انكمش الشعب أمام الله وتوسَّلوا إلى موسى أن يقترب هو إليه نيابةً عنهم. ولكنْ في أيَّام يسوع تسنَّى للناس أن يتجاذبوا أطراف الحديث مع ابن الله. لقدِ استطاعوا أن يلمسوه، بل أن يؤذوه أيضًا. وبعد يوم الخمسين أصبح التلاميذ الناقصون الذين هربوا عند محاكمة المسيح هم أنفسُهم حَمَلةَ الإله الحيّ. ففي فعل تفويضٍ لا يُسبَر غورُه، سلَّم المسيح ملكوت الله إلى أشباه تلاميذه... وإلينا نحن!

ولكنْ يكفي. إنَّ جميع هذه الأفكار الغامضة بشأن الروح القدس يجب أن تتوافق بطريقةٍ ما مع الواقع المُبهرَج في الكنيسة الفعليَّة. فانظر إلى أولئك الجالسين على مقاعد أيَّة كنيسة. أهذا هو ما كان في فكر الله؟

يستتبع التفويضُ كلَّ حين مُخاطرةً ما، كما يتعلَّم سريعًا كلُّ موظَّف. فعندما تُسلِّم عملًا ما، تُخلي سبيله. وعندما "يَعظ الله بنا" (حسب تعبير بولس)، يقوم بمخاطرة رهيبة: ألا وهي المخاطرة بأن نُسيء تمثيله على نحوٍ شنيع. فالعبوديَّة، والحملات الصليبيَّة، واضطهاد الأقليَّات، والاستعمار، والحروب، والتمييز العرقيُّ البغيض- هذه الحركات كلُّها ادَّعت مُباركة المسيح لقضاياها. والعالَم الذي يُريد الله أن يحبَّه، العالم الذي يتوسَّل الله إليه، ربَّما لا يراه أبدًا؛ إذ قد تعترض وجوهُنا نحن في السبيل.

مع ذلك قام الله بتلك المغامرة، ولأنَّه فعل ذلك فسيعرفه العالم بصورةٍ أوَّليَّة من خلال المؤمنين بالمسيح. والعقيدة الخاصَّة بالروح القدس هي العقيدة الخاصَّة

"بالكنيسة": أنَّ الله ساكنٌ فينا. هذه الخطَّة هي "جهالةُ الله" كما يقول بولس في موضع، ويتعجَّب الكاتب فردريك بوخنر إزاء "الحماقة" المتمثِّلة في "أن يختار الله لأجل عمله المقدَّس في العالم أشخاصًا ضعاف العقول غير أَكْفَاء، وعيَّابين، ومُعتبِرين أنفسَهم أقدس من غيرهم، ومُتزمِّتين مغرورين وغريبي الأطوار، ونرجسيِّين ومترفِّهين، وشهوانيِّين في الخفاء".

ومع ذلك، يمضي بولس ليؤكِّد أنَّ "جهالة الله أحكم من الناس"!

فنحن الذين نعيش بين أهل الكنيسة العاديِّين الناقصين، نحنُ الضِّعاف العقول وغير الأَكْفَاء وغريبي الأطوار في الكنيسة، قد نرغب في تلطيف التصريحات المُغالية عن جسد المسيح، لأنَّنا نعرف إلى أيِّ مدًى ضئيل نُمثِّله. ولكنَّ شهادة الكتاب المقدَّس جليَّةٌ لا لَبْسَ فيها. ففكِّر في مَثلَين فقط.

١- نحن نُمثِّل قداسة الله على الأرض. القداسة، قبل كلِّ شيءٍ آخر، تُكوِّن المسافة الشاسعة بين الله والكائنات البشريَّة. وهي ما جعل قُدس الأقداس أرضًا حرامًا. ولكنَّ الكتاب المقدَّس يُصِرُّ على أنَّ تغيُّرًا زلزاليًّا قد حدث. فالإله الكامل يُقيم الآن داخل كائنات بشريَّة ناقصة جدًّا. ولأنَّ الروح القدس يحترم حرِّيَّتنا، فهو في الواقع "يُخضِع ذاته" لسلوكنا. فالعهد الجديد يتحدَّث عن روحٍ يمكن أن نكذب عليه، أو نُحزِنَه، أو نُطفِئه. وعندما نُخطِئ الاختيار، نُخضِع الله حرفيًّا تمامًا لاختيارنا الخاطئ.

وليس من فصلٍ في الكتاب يوضح هذه الحقيقة الغريبة على نحوٍ أقوى ممَّا يفعل ١كورنثوس ٦، ذلك الفصل الذي يوبِّخ فيه بولس الأفراد الشهوانيِّين في الكنيسة بكورنثوس على مُواقعة الزَّواني. وهو يُحطِّم تسويغاتهم واحدًا إثرَ واحد. ثُمَّ ينتهي به المطاف إلى سَوق التحذير الأقوى الباعث على اليقظة: "ألستم تعلمون أنَّ أجسادكم هي أعضاء المسيح؟" ويبدو أنَّ بولس يعني ذلك بالمعنى الأكثر حرفيَّةً، ولا ينقبض من الاستنتاج المُذهِل التالي: "أفآخذ أعضاء المسيح وأجعلها أعضاء زانية؟ حاشا!"

لا داعيَ لأن تكون عالِمًا بالكتاب المقدَّس كي ترى المفارقة. ففي العهد القديم، كان الزاني والزانية يُرجَمان لعصيانهم شريعةَ الله. ولكنْ في عهد الروح، يُفوِّض الله إلينا سُمعَته، بل جوهرَه أيضًا. فنحن نُجسِّد الله في العالم؛ وما يحدثُ لنا يحدثُ له.

٢- الكائنات البشريَّة تعمل عمل الله على الأرض. أو توخِّيًا للدقَّة المطلقة، الله يعمل عمله من خلالنا... ويبلغ التوتُّر أشدَّه حالما تُحاول صوغ عبارةٍ تفي بالمعنى. وقد قال أُغسطينوس: "بغير الله، لا نستطيع نحن. وبغيرنا نحن، لَن يعمل الله". وعلى نحو مماثِل، كتب بولس في عبارة: "تمِّموا خلاصكم بخوفٍ ورعدة،" وفي تاليتها: "لأنَّ الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا من أجل المسرَّة". ومهما كان معنى عباراتٍ لغزيَّة من هذا النوع، فإنَّها تُناقض الموقف الذي شعاره: "دعِ الأمر لله!"

لقد وفَّر الله الطعام معجزيًّا لبني إسرائيل الهائمين في صحراء سيناء، وعُني أيضًا بألاَّ تبلى نِعالُهم. كذلك أيضًا أطعم المسيح الجياع ولبَّى احتياجهم مباشرةً. وكثيرون من المؤمنين الذين يقرأون هذه الأخبار المؤثِّرة جدًّا يلتفتون إلى الوراء بشعورٍ من الحنين، أو حتَّى الخيبة، مُتسائلين: "لماذا لا يتصرَّف الله كذلك الآن؟ لماذا لا يسدُّ احتياجاتي بطريقة معجزيَّة؟"

غير أنَّ رسائل العهد الجديد تُبيِّن على ما يبدو نموذجَ عملٍ مُغايرًا. فإذ كان بولس محجوزًا في زنزانة باردة، التفت إلى صديقه القديم تيموثاوس لسدِّ حاجاته المادِّيَّة، إذ كتب إليه: "الرداء الذي تركتُه في ترواس عند كاربس، أحضِره متى جئت، والكُتب أيضًا ولا سيَّما الرُّقوق". وأيضًا: "خذ مرقس وأحضره معك، لأنَّه نافع لي للخدمة". وفي ضيقاتٍ أُخَر، تلقَّى بولس "تعزية الله" على شكل زيارةٍ قام بها تيطس. ولمَّا حصلت مجاعةٌ في أُورشليم، أدار بولس بنفسه حملةً لجمعِ التبرُّعات بين جميع الكنائس التي سبق أن أسَّسها. فقد كان الله يسدُّ احتياجات الكنيسة الناشئة كما سدَّ قديمًا احتياجات بني اسرائيل، ولكنَّه فعل ذلك بطريقة غير مباشرة، من خلال أعضاء جسد

المسيح العاملين معًا. ولم يلجأ بولس إلى تفريقٍ من قبيل "الكنيسة فعلت هذا، ولكنَّ الله فعل ذلك". فمن شأن تمييز كهذا أن يُضيِّع الفكرة التي كثيرًا ما أشار إليها.

وربَّما عاد إصرارُ بولس على هذه الحقيقة إلى لقائه الشخصيِّ الأوَّل الدراماتيكيِّ لله. فقد كان آنذاك مُضطهِدًا شرسًا للمؤمنين بالمسيح، صيَّاد جوائز مُشهَّرًا. ولكنَّه على الطريق إلى دمشق رأى نورًا باهرًا جدًّا بحيث أعماه ثلاثة أيَّام، وسمع صوتًا من السماء: "شاول، شاول، لماذا تضطهدني؟"

أضطهدك؟ أضطهد مَن؟ فأنا إنَّما أسعى وراء أولئك الهراطقة المسيحيِّين!

أخيرًا سأل شاول وهو مبطوحٌ على الأرض: "مَن أنت يا سيِّد؟"

فجاءه الجواب: "أنا يسوع الذي أنت تضطهده".

وهذه الجملة تُلخِّص بأجلى بيانٍ التغييرَ الذي أحدثه الروح القدس. فإنَّ يسوع كان قد أُعدِم قبل أشهُر. وكان بولس يُطارد المسيحيِّين، لا يسوع. لكنَّ يسوع، وقد عاد حيًّا، أعلم بولس أنَّ أولئك القوم هم بالحقيقة جسدُه. فما يؤذيهم يؤذيه هو. وكان ذلك درسًا لن ينساه الرسول بولس أبدًا.

وعليَّ ألاَّ أفرغَ من هذه الفكرة بغير أن أُطبِّق معناها بطريقةٍ شخصيَّة للغاية. فإنَّ للعقيدة المختصَّة بالروح القدس أهمِّيَّةً كبرى بالنسبة إلى السؤال الكامن في أساس هذا الكتاب. إذ كان صديقي رشيدٌ قد سأل: "أين هو الله؟ أرِني إيَّاه. أُريد أن أراه". فيقينًا أنَّ جزءًا على الأقلِّ من الجواب عن هذا السؤال هو هذا: "إذا أردتَ أن ترى الله، فانظر إلى القوم الذين ينتمون إليه... فهُمُ "أجسادُه". إنَّهم جسد المسيح.

"سيكون على تلاميذه أن يَظهروا مُخلَّصين أكثر إذا كان عليَّ أن أُومن بمُخلِّصهم،" هكذا قال نيتشه في مواجهة هذا التحدِّي. ولكنْ لو قُدِّر لرشيد أن يعثر على قدِّيس، على شخصٍ ما مثل الأُمِّ تيريزا، يُجسِّد مزايا المحبَّة والنعمة، لربَّما آمن

حينذاك. انظُر هناك... هل تراها؟ على هذه الصورة هو الله. إنَّها تعمل عمل الله.

لا يعرف رشيدُ الأمَّ تيريزا، ولكنَّه يعرفُني أنا فعلًا. وهذه هي الناحية الأكثر إذلالًا من العقيدة الخاصَّة بالروح القدس. فالأرجح أنَّ رشيدًا لن يسمع أبدًا صوتًا من زوبعةٍ يحجب جميع أسئلته ويبتلعها. والمُرجَّح أنَّه لن يحظى البتَّة بلمحةٍ شخصيَّة يرى بها الله في هذه الحياة. إنَّه سيراني أنا فقط.

الشواهد الكتابيَّة: ١كورنثوس٣؛ يوحنَّا ٢؛ ٢كورنثوس ٥؛ فيلبّي ٢؛ ٢ تيموثاوس ٤؛ ٢كورنثوس ٧؛ رومية ١٥؛ أعمال ٩.

٢٠

التأوُّجُ (بلوغُ الذروة)

إذا استطعنا هُنيهةً أن نُنحيَ جانبًا أفكارنا المكوَّنة سابقًا عن الكتاب المقدَّس ونقرأَ هذا الكتاب الضَّخم فقط كقصَّة تتكشَّف أحداثُها تباعًا، فربمَّا برز تطوُّر الحبكة كشيءٍ يُشبِه ما يلي:

في البدء خلق الله، الروحُ الأزليّ، عالَم المادَّة المُترامِيَ الأطراف. ومن بين جميع أعمال الله الرائعة، حازت الكائنات البشريَّة وحدها شَبَهًا أمكن به تسميتُه "صورة الله". وفي الحال كانت صورة الله هذه هبةً عظيمة وعبئًا أعظم. فالرجُل والمرأة، الكائنان الممنوحانِ روحًا، كانا يستطيعان التواصُل مباشرةً مع الله. ولكنْ من بين أنواع المخلوقات كلِّها، كانت لهما وحدَهما حرِّيَّةُ التمرُّد على الله.

وقد تمرَّدا فعلًا، وماتَ داخل آدم وحوّاء شيءٌ ما في ذلك اليوم الكئيب. فإنَّ جسديهما ظلاَّ حيَّين سنينَ طويلة، ولكنَّ روحَيهما فقدتا الشركة الحُرَّة والميسورة مع الله.

والكتاب المقدَّس يحكي لنا عن جهود الله لاستعادة تلك الروح الساقطة.

فقد تعامل أوَّلًا مع عائلاتٍ فرديَّة: أوَّلًا عائلة آدم، ولاحقًا عائلة نوح، وأخيرًا

عائلة إبراهيم، المركزَ الأساسيّ في مُعظَم العهد القديم. يصوِّر الكتاب المقدَّس أحيانًا الله مثلَ أبٍ يُربّي ولدًا، وأحيانًا مثلَ مُحِبٍّ في مسعًى مشبوبِ العواطف، ولكنَّه يُبيِّنه دائمًا ناشدًا "إحداثَ اختراق" لبلوغ الكائنات البشريَّة في سبيل إصلاح ما فسد واستعادة ما فُقِد.

وباستثناءاتٍ قليلة، يسرد العهد القديم أخبار الإخفاق. غير أنَّ العهد الجديد يُستَهل بتحرُّكٍ جوهريٍّ جذريّ قام به الله: "عمليَّة غزو" تمثَّلت في ولادة يسوع. وقد مثَّل يسوع بداءةً جديدة كلِّيَّة. وهو دُعِيَ "آدم الأخير"، رأسَ جنسٍ جديد. فهو أخيرًا دكَّ جميع الحواجز ويسَّر المصالحةَ بين الله والبشر.

وبعد رحيل يسوع، في يوم الخمسين نزل الروح القدس وملأ كائنات بشريَّة فَردة. وهكذا استُعيدت أخيرًا أرواحُهم الساقطة. فأكثرَ من مجرَّد التمشّي مع الكائنات البشريَّة في بُستان، بات الله الآن ساكنًا في داخلهم.

ولا حاجة بك لأن تتوغَّل كثيرًا في قراءة رسائل العهد الجديد حتَّى يأخذك العَجَب. فما كان ممكنًا أن يُعبِّر الرسول بولس عن الأمر بأقوى ممّا فعل إذ كتب أنَّ "انتظار الخليقة يتوقَّع استعلان أبناء الله". وقد صوَّر الكونَ بكامله مُتوقِّفًا يُراقِب الأحداثَ الجارية على الأرض، إذ قضى قصدُ الله بأن "يُعرَّفَ الآن عند الرؤساء والسلاطين في السماويّات، بواسطة الكنيسة، بحكمة الله المتنوِّعة". وأضاف بطرس كلامًا يحبس الأنفاس إذ قال إنَّ هذه الأُمور "تشتهي الملائكة أن تطَّلع عليها".

وفي تلك الأثناء، انتشرت جماعةُ المسيحيِّين الصغيرة نحو السامرة واليونان والحبشة وروما وإسبانيا. وحسْبما يُفيد العهد الجديد، انهمك هؤلاء في حركة انقلاب التاريخ، مُسهِمين في المُطالبة بإرجاع الخليقة كلِّها إلى الله.

لماذا أفضل؟

عقدتُ العزم من مُستهلّ هذا الكتاب على أن أكون صادقًا. وبعدُ، فأنا أكتب

لضحايا وعودٍ مُنمَّقة وآمالٍ مُنهارة. لذلك ينبغي لي أن أقول صراحةً إنَّه يصعب على خائبي الأمل أن يُشارِكوا كُتّاب العهد الجديد في حماستهم. فصديقي رشيد مثلًا يدَّعي أنَّه فقد إيمانه لأنَّ الله يتصرَّف على نحوٍ خفيٍّ جدًّا. وهو يتوق إلى شيءٍ أكثر إقناعًا، ربَّما شيءٍ من قبيل عُلَّيقةٍ مُتَّقدة أو انفلاق البحر الأحمر. أمَّا "حكمة الله المتنوِّعة" مُعرَّفًا بها بواسطة الكنيسة؟ فهل زُرتَ كنيسةً مؤخَّرًا؟ كان من شأن يسوع أن يؤثِّر فيك أبلغَ تأثير، ومن شأن سحابة مجد الشَّكينة أن تُفحِمك وتُوقِفك مدهوشًا. أمَّا الكنيسة... فأنّى؟

كيف يمكننا التوفيق بين كلمات العهد الجديد المُرفَّعة وحقيقة الحياة اليوميَّة حوالينا؟ لدى بعض الناس جوابٌ سريع: "أوه، إنَّما كان بولس يتكلَّم عن كنيسة العهد الجديد، ونحن نأيْنا كثيرًا عن ذلك النموذج الرفيع". لا يمكنني أن أُوافِق. فالرسائل كُتبت إلى حفنةٍ ضئيلة من التائبين الذين كانوا عَبَدة ملائكة ولُصوصًا وعَبَدة أوثان ومغتابين وزناةً وزواني... فبات أُولئك قومًا اتَّخذ فيهم الله له مسكنًا. اقرأ أوصاف بولس "للكنيسة النموذجيَّة" المُفترَضة في مدينةٍ مثل كورنثوس: جماعة من الأفظاظ تُزاحِم أيَّة كنيسة في التاريخ بعدم قداستها. ومع ذلك فإنَّ تصوير بولس الأكثر تأثيرًا للكنيسة بوصفها جسد المسيح يبرز في رسالةٍ إلى هؤلاء.

لا طريقةَ لطرح السؤال بأناقة، ولذا فسأطرحه مباشرةً: ماذا تُنجز تمامًا خُطَّةُ الله للأجيال؟ إذا أُتيح للمرء أن يُجريَ ما يُشبِه "تحليل الكلفة والرِّبح" الذي تُجريه الشركات، فماذا تكون "أرباح" هذه الخُطَّة و"نفقاتُها"... بالنسبة إلى الله وإلينا؟

لا بدَّ أن تبدو عيوب الكنيسة الواضحة أكبرَ كلفة بالنسبة إلى الله. فكما عَهِد باسمه إلى الأُمَّة القديمة فعُفِّر بالتراب، يعهد الآن بروحه إلى كائناتٍ بشريَّة ناقصة. وليس عليك أن تنظر بعيدًا لتجد برهانًا على أنَّ الكنيسة لا ترتقي إلى مستوى النموذج الإلهيّ. يكفي أن تُلقيَ نظرةً على الكنيسة في كورنثوس، أو التمييز العنصريّ في جنوب أفريقيا، أو سفك الدماء في إيرلندا الشماليَّة، أو الفضائح بين مسيحيّي أميركا. ثُمَّ إنَّ

العالَم المُراقِب يحكم على الله بأُولئك الذين يحملون اسمه. فمقدارٌ كبير من الخيبة بالله ينشأ من تبدُّد الأحلام المعقودة على المسيحيِّين.

وقد قالت دوروثي سايَرز إنَّ الله اجتاز ثلاثة إذلالات كُبرى في مساعيه لإنقاذ الجنس البشريّ. أوَّلُها كان التجسُّد، لمَّا اتخَّذ الله قيود جسم بشريّ. والثاني كان الصليب، لمَّا عانى عار إعدام علنيّ. أمَّا الإذلال الثالث، كما ارتأت سايَرز، فهو الكنيسة. ففي فعل نكرانٍ للذاتِ مهيب، استأمن الله بشرًا عاديِّين على سُمعته.

ولكنْ بطريقةٍ من الطُّرق لا نراها نحن، هؤلاء البشر العاديُّون، مملوئين بالروح القدس، يُسهِمون في إرجاع الكون إلى مكانه السليم تحت مُلك الله. فعند توبتنا، تفرح الملائكة. وبصلواتنا، تنزاح الجبال. والربحُ العائد على الله يمكن أن يُرى في فصلٍ سبق ذِكرُه، ألا وهو لوقا ١٠. إذ هتف المسيح مُتهلِّلًا لدى رجوع السبعين يُحدِّثون بأخبار نجاحهم: "رأيتُ الشيطان ساقطًا مثل البرق من السماء!" فكانت استجابتُه أشبه بتصرُّف أبٍ فخور شاهد توًّا أولاده يُنجزون ما يفوق بكثيرٍ ما تصوَّره يومًا ممكنًا.

إنَّما يجب ألاَّ نوُغِل في التشديد على هذه النقطة بحيث نتصوَّر أنَّ الله "يحتاج" إلى تعاوُننا معه. فهو بالأحرى اختارنا الطريقة الفُضلى لاسترجاع خليقته إليه هنا على الأرض. وهو يستخدم الأدوات البشريَّة تمامًا كما يستخدم عقلي أدوات الأصابع واليد والمِعصم لكتابة هذه الأسطر. تلك هي الاستعارة التي استخدمها بولس أغلبَ الأحيان للتعبير عن دور المسيح في العالم اليوم: رأس الجسد موجِّهًا أعضاءه لتنفيذ إرادته.

ولإدراك الربح العائد على الله، عُد بفكرك إلى الصورتين البيانيَّتين اللتين استُخدِمتا في أسفار الأنبياء: الله أبًا، ثُمَّ مُحبًّا. فكلتا هاتين العلاقتَين البشريَّتين تتضمَّنان عناصرَ دأب الله كلَّ حين على طلبِها من البشر. والمفتاح يكمنُ في كلمةٍ واحدة: الاتِّكال- مفتاحٌ لِما هو مُشترَكٌ بينهما، ومفتاحٌ لكيفيَّة اختلافهما.

فبالنسبة إلى الطفل، الاتِّكالُ هو كلُّ شيء؛ إذ ينبغي لشخصٍ آخر أن يُلبِّيَ حاجات الطفل كلَّها، وإلاَّ فإنَّه سيموت. فالوالدان يسهران طول الليل، ويُنظِّفان الطفل

من القيء، ويُدرِّبانه على استعمال المُستراح، ويؤدِّيان واجباتٍ أُخرى غير مُستحبَّة بدافع من المحبَّة، لأنهما يُحِسَّان اتكاليَّة الطفل. ولكنَّ نموذجًا كهذا لا يمكن أن يدوم إلى الأبد. فمن عادة النَّسرِ أن يُحرِّك العُشَّ ليُجبر فراخه على الطيران، والأُمُّ أن تُغطِّيَ صدرها كي تفطم وليدها.

وما من أبٍ مُعافًى يُريد على يديه طفلًا دائم الاتِّكال. وهكذا لا يدفع الأب ابنته هنا وهناك في عربةٍ كبيرة مدى الحياة، بل يُعلِّمها المشي، علمًا منه بأنَّها ذات يوم سوف تمشي وتمضي. فالآباء والأُمهَّات الصالحون يدفعون أولادهم برفقٍ من الاتِّكال نحو الحُرِّيَّة والاستقلال.

أمَّا المُحِبُّون فتنعكس الآية لديهم. إذ يملك المُحبُّ كامِلَ الحُرِّيَّة، ومع ذلك يختار أن يتخلَّى عنها ويغدوَ "اتِّكاليًّا". فالكتاب المقدَّس يقول: اخضعوا بعضُكم لبعض. وفي وسع أيِّ زوجين أن يقولا لك إنَّ ذلك وصفٌ وافٍ لعملية المعايشة اليوميَّة. ففي زواجٍ سليم، يخضع كلُّ شريكٍ لرغبات الآخر طوعيًّا، بدافعٍ من المحبَّة. وفي زواجٍ سقيم، يغدو الخضوع جزءًا من صراع السُّلطة، لعبةَ شدِّ حبلٍ بين ذاتَين متنافستين.

وعندي أنَّ الفرق بين هاتين العلاقتين يُبيِّن ما لم يزلِ الله يطلبه في تاريخه الطويل مع الجنس البشريّ. فهو يشتاق لا إلى الحبِّ المتشبِّث العاجز من قِبَل طفلٍ لا خِيار له، بل إلى الحبِّ الناضج المبذول طوعًا وسخاءً من قِبَل حبيبٍ مُدرِك. فهو تعالى ما انفكَّ "يُغازلنا" ليكسب ودَّنا كلَّ حين.

لم يَنلِ الله قطُّ مثل هذا الحبِّ الناضج من الأُمَّة القديمة. فسجلُّ الوحي يُبيِّن الله دافعًا الأُمَّة الفتيَّة برفقٍ نحو النُّضج: فيومَ دخل بنو إسرائيل أرض الآباء انقطع المنّ. لقد وفَّر لهم الله أرضًا جديدة، فبات من واجبهم الآن أن يُحصِّلوا قوتهم بأيديهم. إنَّما بردَّة فعل صبيانيَّةٍ نموذجيَّة، ما لبثوا أن بدأوا يعبدون آلهة الخصب. لقد أراد الله مُحِبِّين، إلاَّ أنَّه حصل على أولادٍ مُقزَّمين دائمًا.

وما القولُ الآن، في عصر الروح؟ ألدى الله الآن مُحِبُّون لا أولادٌ توقَّف نموُّهم؟

يبدو أن العهد الجديد- ويا للعجب!- يُجيب بالإيجاب. فالعينة التالية من العبارات الواردة في العهد الجديد تُبيِّن كيف ينظر الله إلينا: "أحبَّ المسيح الكنيسة... كنيسةً مجيدة، لا دنس فيها ولا غضن أو شيء من مثل ذلك، بل مقدَّسة وبلا عيب"؛ "بلا عيبٍ في وسط جيل مُعوَّج ومُلتوٍ، تُضيئون بينهم كأنوار في العالم"؛ "أنتم الذين كنتم قبلًا بعيدين، صرتم قريبين"؛ "لستمُ إذًا بعد غُرباء ونُزلًا، بل رعيَّةٌ مع القدِّيسين وأهل بيت الله... مبنيُّون معًا مسكنًا لله في الروح".

وبالحقيقة أنَّ الكتاب المقدَّس يُقدِّم اتِّحاد بشرٍ عاديِّين بروح الله على أنَّه إنجازُ الخَلق الأسمى. وما برح غرض الله كلَّ حين أن يؤهِّبنا نحن لإتمام مشيئته في العالم. وهذه العمليَّة البطيئة والصعبة ستؤول ذات يومٍ إلى إصلاحٍ شاملٍ للأرض كلِّها.

ربحُنا

على أنَّ مثل هذه الأفكار الجليلة- ككَونِنا وُكَلاءَ الله وإنجازَ الخَلق الأسمى- تُمثِّل وجهة نظر الله، من إطلالةٍ غير مُتاحةٍ لنا. فما هي نفقاتُ خُطَّة الله وأرباحُها بالنسبة إلينا نحنُ العائشين على الأرض؟ إنَّنا ما نزال مُقيمين في عالَم مُبتلى بلعنة الألم والمأساة والخيبة. وما سبق أن عرضتُه بوصفه تقدُّمًا عظيمًا في الدُّنوِّ- من دُخانِ سيناء إلى شخص يسوع المسيح إلى الروح القُدس ساكنًا في المؤمنين- قد يبدو على نحوٍ يدعو إلى السخرية أشبهَ بانسحاب الله من الانهماك المباشر.

يتوق بعضُ الناس توقًا شديدًا إلى "أيَّام الخير القديمة" في العهد القديم، حين اعتمد الله مُقاربةً ملموسةً أكثر وضوحًا. فالتوراة تُحدِّثنا عن معاهدة فعليَّة وقَّعها الله تضمن السلامة الطبيعيَّة والازدهار المادِّيّ، بموجب شروط محدَّدة. ولا يُقدِّم العهد الجديد معاهدةً كهذه. فالتحوُّل من حضور الله المرئيّ في البرِّيَّة إلى حضور الروح القُدس غير المرئيّ ينطوي على نوع من الخسارة أيضًا. إذ نخسر البرهان الأكيد الجليّ على أنَّ الله موجود. فاليوم، لا يرفُّ الله فوقنا في سحابة يمكننا أن نُحدِّق إليها لتجديد اليقين.

وفي نظر بعضهم، مثل رشيد، تبدو هذه خسارةً فادحة حقًّا.

وفي الواقع أنَّ اعتماد الله على الكنيسة يكاد يضمن أنَّ خيبة الأمل بالله ستكون دائمة ومتفشِّية. ففي الأيَّام القديمة، إذا أراد العبرانيُّون معرفة مشيئة الله بشأن مُناورة عسكريَّة، أو أيِّ نوع من الخشب يستخدمون في بناء المَقدِس، كان لدى رؤساء الكهنة طُرق لتمييز الجواب. ولكن ١,٢٧٥ طائفة في الولايات المتَّحدة وحدها يشهدون صعوبة اتِّفاق الكنيسة من جهة مشيئة الله بشأنِ أيِّ أمرِ اليوم. فإنَّ الصوت المُشوَّش في الكنيسة المعاصرة هو جزءٌ من الكلفة: الظَّرف المُعوِّق في كوننا نعيش اليوم وليس مع العبرانيِّين في الصحراء، ولا بين التلاميذ الذين اتَّبعوا المسيح.

فما هو الرِّبح إذًا؟ إنَّ كُتَّاب العهد الجديد يبذلون جهدًا كبيرًا للتعبير عن مقدار هذا الربح، ولا سيَّما في الرسائل إلى العبرانيِّين وإلى أهل رومية وإلى أهل غلاطية. وأكاد أتصوَّر الرسول بولس، وهو النَّوع السريع التأثُّر، يُجيب عن سؤالٍ مثل: "ما هو الرِّبح؟"

> ماذا؟ أأنت مُغفَّل؟! الرِّبح؟ عُد فاقرإ اللاويين والعدد والتثنية في جلسةٍ واحدة، ثُمَّ يمكننا أن نتحدَّث. هل تدعو تلك "أيَّام الخير القديمة"؟ مَن ذا يُريد أن يعيش كذلك؟ أتُريد أن تقضي كلَّ يوم من حياتك قلقًا بشأن مصيرك الأبديّ؟ أتُريد أن تزحف طول النهار لتتيقَّن بأنَّك حفظتَ تلك الشرائع كلَّها؟ أتُريد أن تمرَّ عبرَ طقوسٍ طويلة وذبائح حيوانيَّة ورئيس كهنة بهيِّ الثياب كي تقترب إلى الله فحسب؟ ها أنا قد قضيتُ نصف عمري محاولًا أن أرتقيَ إلى مستوى تلك المطالب، ولك أن تأخذها. إنَّ الفرق بين الناموس والروح هو الفرق بين الموت والحياة، بين العبوديَّة والحرِّيَّة، بين الطفولة الدائمة والرُّشد. فلماذا يرغب امرؤٌ أن يعود إلى ذلك كلِّه؟

وبكلمات بولس الخاصَّة، فإنَّ طريقة العهد القديم تُوصَف بأنَّها «خدمة الموت المنقوشة

بأحرفٍ في حجارة». وقد كان الناموس "مؤدِّبنا" بانتظار مجيء المسيح. فمن يُريد أن يبقى في روضة الأطفال إلى الأبد؟ وكما يقول بولس، فإنَّنا لسنا مثل موسى إذ كان "يضع برقعًا على وجه، لكي لا ينظر بنو إسرائيل إلى نهاية الزائل... وأمَّا الربُّ فهو الروح، وحيث روح الربِّ هناك حرِّيَّة".

إنَّ خُطَّة الله تنطوي على مخاطرة لدى كِلا الطرفَين. فبالنسبة إلينا، تعني المخاطرةَ باستقلالنا إذ نلتزم أن نتبع إلهًا غير منظور يطلب منَّا الإيمان والطاعة. وبالنسبة إلى الله، تعني المخاطرةَ باحتمالِ ألاَّ ننضج نحنُ البتَّة، شأنُنا شأنُ بني إسرائيل قديمًا؛ وتعني المخاطرةَ باحتمال ألاَّ نحبَّه أبدًا. فمن الجليِّ أنَّه رأى في ذلك مغامرةً تستحقُّ أن تُخاض.

ثالوثُ أصوات

فكِّر في خُطَّة الله كما لو كانت سلسلةً من الأصوات. الصوتُ الأوَّل، العالي كالرعد، كان ذا مزايا معيَّنة. فلمَّا تكلَّم الصوت من على الجبل المرتعد في سيناء، أو لمَّا لحستِ النارُ المذبحَ على جبل الكرمل، ما كان أحدٌ يستطيع إنكاره. ولكنَّ المُذهِل أنَّه حتَّى أولئك الذين سمعوا الصوت وخافوا منه- بنو إسرائيل في سيناء وعلى الكرمل تمثيلًا- تعلَّموا سريعًا أن يتجاهلوه. فإنَّ جهارة الصوت بحدِّ ذاتها اعترضت في السبيل. وإذا التمس قليلون منهم ذلك الصوت، وأقلُّ بعدُ ظلُّوا على ثباتهم عندما صمت الصوت.

ثُمَّ اعتدلت طبقة الصَّوت على يد يسوع، الكلمة الذي صار جسدًا. فعلى مدى بضعة عقود من الزمن، اتّخذ صوتُ الله جرْسَ صوتٍ يهوديٍّ ريفيٍّ في فلسطين وجهارتَه ولهجتَه القرويَّة. وقد كان صوتًا بشريًّا سويًّا، وعلى الرُّغم من كونه قد تكلَّم بسلطان فهو لم يدفعِ الناس إلى الهرب. فإنَّ صوت يسوع كان رقيقًا جدًّا حتى أمكنت مجادلتُه، بل رقيقًا جدًّا بحيث أمكن قتلُه.

وبعد رحيل يسوع اتَّخذ الصوت أشكالًا جديدة. ففي يوم الخمسين نزلت ألسنة، ألسنةٌ من نارٍ على المؤمنين، وبدأت الكنيسة- جسدُ الله- تتشكَّل. وذلك الصوت الأخير قريبٌ كالنَّفس، ولطيفٌ كهمسة. إنَّه الصوت الأكثر رقَّةً وانجراحًا، والأسهل احتمالًا للتجاهُل. ويقول الكتاب المقدَّس إنَّ الروح يمكن أن "يُطفأ" أو "يُحزَن"... حاولْ إطفاء علِّيقة موسى المُتَّقدة أو صخور سيناء المصهورة! ومع ذلك فإنَّ الروح هو أيضًا الصوت الأكثر حميميَّةً. ففي لحظات ضعفنا، حين لا نعلم ما نُصلِّي، يشفع بنا الروح الساكن فينا بأنَّاتٍ لا تستطيع الكلمات أن تعبِّر عنها. وهذه الأنَّات هي نوبات ألم الولادة الباكرة، أوجاعُ مخاض الخليقة الجديدة.

لن يُزيل الروح كلَّ خيبةِ أمل بالله. فألقابُ الروح القدس ذاتُها تعني ضمنيًّا أنَّ المشاكل ستبقى، إذ يُدعى المعزِّي أو المُعين أو المُرشِد أو الشفيع. ولكنَّ الروح أيضًا هو "عربون ميراثنا، لفداء المقتنى،" كما قال بولس مستعملًا استعارةً جليَّة من عالَم التجارة، حيث تضمن الدفعة الأوليَّة إتمام الصفقة بكاملها. فالروح يذكِّرنا بأنَّ خيباتنا وقتيَّة، تُشكِّل مقدِّمةً لحياةٍ أبديَّة مع الله. إذ قد رأى الله من الضروريِّ أن يستعيد الحلقة الروحيَّة قبل خلق السماء والأرض من جديد.

هذا، ويُشبِّه كتابُ العهد الجديد، في موضعَين، الامتلاءَ بالروح القدس بحالةِ السُّكر. فكلتا الحالتين تُغيِّر طريقة نظرك إلى تجارب الحياة، ولكنَّ بينهما فرقًا جوهريًّا شاسعًا. ذلك أنَّ كثيرًا من الناس يلجأون إلى الكحول لإغراق أحزان البطالة والمرض والمآسي الشخصيَّة، ولكنْ لا بدَّ للسكران في آخر الأمر من أن يصحو ويعود من عالَم السُّكر الوهميِّ إلى واقعٍ لم يتغيَّر. غير أنَّ الروح يهمس بحقيقة جديدة، بعالَمٍ وهميٍّ جميل هو حقيقيٌّ فعلًا، عالَمٍ سنستيقظ فيه ونبقى إلى الأبد!

الشواهد الكتابيَّة: رومية ٨؛ أفسس ٣؛ ١بطرس ١؛ ١كورنثوس ١٢؛ أفسس ٥؛ فيلبي ٢؛ أفسس ٢؛ ٢كورنثوس ٣؛ غلاطية ٣؛ ٢كورنثوس ٣، ٥.

الكتاب الثاني

الرؤية في الظلام

قلتُ لنفسي: اهدإي، وليهبطْ عليكِ الظلام

ذاك الذي سيكونُ ظلام الله...

قلتُ لنفسي: اهدإي، وانتظري بلا رجاء

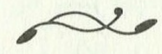
لأنَّ الرجاء سيكون رجاءً لِما هو خطأ؛

انتظِري بلا محبّة لأنَّ المحبَّة ستكون حبًّا لما هو خطأ؛

إنَّما يبقى إيمانولكنَّ الإيمان والمحبَّة والرجاء

كلُّهنَّ في الانتظار.

تي أس إليوت، "شرقُ كوكر"



١١

مُقاطَعٌ

ذات ليلة وفي وقتٍ متأخر بعض الشيء، جلستُ في مكتبي بالطابق السفلي وشرعتُ أضع تصميمًا للقسم التالي من هذا الكتاب، وقد قصدتُ له أن يكون مراجعة ومحصِّلة. وكنت على مرِّ السنين قد ملأت بضع حافظاتٍ للأوراق بملاحظاتٍ شتَّى في موضوع خيبة الأمل بالله، فبدأت أُغربل وأُنخّل قُصاصات الورق تلك، مراجعًا إيّاها في ضوء ما تعلّمتُه من الكتاب المقدَّس.

وبينما أنا أشتغل، فكّرتُ في أوّل لقاءٍ بيني وبين رشيد في غرفة الجلوس عندي، حيث برزَت أوّلَ مرّة أسئلتُه الثلاثة الكُبرى. فإنّ تلك الأسئلة الثلاثة عن عدالة الله وصمته واحتجابه باتت أسئلتي أنا، وأطلقَت تنقيبي في الكتاب المقدَّس. ولمّا باشرتُ ذلك التنقيب، كنتُ أُريد إلهًا أكثر نشاطًا، إلهًا يُشمّر عن ساعديه عند الضرورة ويتدخّل في حياتي باقتدارٍ منظور. ثُمّ فكّرتُ بأنّني على الأقلّ أُريد إلهًا لا يبقى محتجبًا وصامتًا إلى هذا الحدّ، إلهًا يعمل بطرقٍ أقلّ غموضًا بقليل. ويقينًا أنّ ذلك لم يكن مُبالغةً في الطلب.

غير أنّ الكتاب المقدَّس يشتمل على بعض المفاجآت. وأجدرُها بالذكر أنّ تلك الأوقات التي تواترت فيها المعجزات لم تُعزّز عادةً إيمانًا طويل المدى. بل على العكس، فإنّ معظمها تبرز كأمثلة على قلّة الإيمان. فكلّما درستُ الكتاب المقدَّس أكثر، قلّ اشتياقي

إلى "أيّام الخير القديمة" حين كان المنُّ يُعطى كلَّ يوم وكُرات النار تنزل من السماء.

والأهمُّ أنّي التقطتُ في الكتاب المقدَّس لمحةً على وجهة نظر الله. فليس "هدف الله- إذا جاز للمرء أن يتكلَّم بألفاظٍ كهذه- أن يهزم جميع الشكوكيّين بمعجزة تخطف الأبصار. ولو أراد، لفعل ذلك في لحظة واحدة. إلاّ أنّه بالحريّ يسعى إلى أن يُصالح: أن يُحِبَّ وأن يُحَبّ. ويبيِّن الكتاب المقدَّس تواليًا واضحًا في مساعي الله للقيام باختراقٍ نحو الكائنات البشريَّة بغير أن يسحقهم: من الله الآب الذي رفَّ على العبرانيّين بعاطفته الأبويَّة؛ فإلى الله الابن الذي علَّم مشيئة الله "من القاعدة إلى فوق (إلى السماء)" لا بالأمر والنَّهي، من فوق (من السماء)؛ وأخيرًا، إلى الروح القدس الذي يملأنا بحضور الله فعليًّا. فنحن العائشين الآن لسنا مغبونين بل ممنوحون امتيازاتٍ عجيبة، لأنَّ الله اختار أن يعتمد علينا نحن بصورة رئيسيَّة لتنفيذ مشيئته على الأرض.

راجعتُ هذه الأفكار بحماسة متزايدة وأنا أشتغل بتصميمي تلك الليلة. ثُمَّ عثرتُ على رسالة مِن مغ وُدسُن وأنا أتصفَّح كُدسًا آخر من الأوراق.

تعرَّفتُ بمغ منذ عقدٍ ونيِّف. وهي مؤمنة تقيَّة، وزوجة قِسِّيس، وكاتبة بارعة. إلاّ أنّني لا أستطيع التفكير فيها بغير أن أشعر بطعنةِ حزن.

فقد رُزق آل وُدسُن ولدَين- پغي وجُوي- ولدا كِلاهما مُصابَين بالتليُّف الكُيَيسيّ. وقد بقيَ پغي وجُوي جلدًا على عظم مهما أكلا من طعام. وكانا يسعلان دائمًا ويُجاهِدان للتنفُّس، وقد اضطُرَّت مغ إلى أن تقرع صدرَي الصغيرين مرَّتين كلَّ يوم لإخراج البلغم. وكانا كلَّ سنة يقضيان بضعة أسابيع في مستشفًى محلِّيّ، وقد نشأ كلاهما وهما يعلمان أنّهما قد يموتان قبل بلوغ سنِّ الرُّشد*.

* كتبت مغ كتبًا مؤثِّرة وقويَّة عن ولدَيها كِليهما: «السَّير وراء جُوي إلى الديار»؛ «سأذهب إلى السماء قبلكم!؛» زمانُ حياتها.

أمّا جُوي الفتى الذكيُّ السعيد ذو الملامح الأميركيَّة المميَّزة، فقد مات في الثانية عشرة. وأمّا پغي فقد تحدَّت جميع العوائق وعاشت مدَّةً أطول بكثير. وقد تضافرتُ مع مغ في صلواتِ يأسٍ لأجل پغي. فعلى الرَّغم من عدم علمنا بحصول أيِّ شفاء مُعجِزيٍّ من التليُّف الكُيَيسيّ، صلَّينا لأجل الشفاء على كلِّ حال. وقد نجت پغي من بضع أزمات صحيَّة في مرحلة الدراسة الثانويَّة، وانتقلت إلى الجامعة. وبدا أنّها تتقوّى بدل أن تضعف، فارتفعت آمالُنا بأن تُوهَب الشفاء رغم كلِّ شيء.

ولكنْ لم تحدث مُعجِزة: فقد ماتت پغي في الثالثة والعشرين. وتلك الليلة في مكتبي بالطابق السفلي، عثرتُ على الرسالة التي كتبتها مغ إليَّ بعد موت پغي.

أجِدُني راغبةً في إطلاعك على شيءٍ من أحوال وفاة پغي. ولستُ أعرف سببًا لذلك ما عدا كون الحاجة إلى التحدُّث عن الأمر ملحَّة عليَّ جدًّا. وبما أنّني أرفض أن أروي الأمر لأصدقائي هنا أكثر من مرَّة، فلم يعُد لي أحدٌ أُخبِره سواك.

في العطلة الأُسبوعيَّة السابقة لآخر مرَّة دخلتِ فيها المستشفى، جاءت إلى البيت متأثِّرةً جدًّا باقتباسٍ لوليم باركلي استشهد به القسِّيس. وقد بلغ من إعجابها به أنّها كتبته على بطاقة صغيرة لأجلي: "الاحتمال ليس مجرَّد القدرة على تحمُّل أمرٍ قاسٍ، بل على تحويله إلى مجد". وقالت إنّه لا بدَّ أن يكون الخادم قد اجتاز أُسبوعًا قاسيًا، لأنّه بعد قراءة الاقتباس ضرب المنبر بقبضته ثُمَّ أدار ظهره وأجهش باكيًا.

بعد مكوث پغي في المستشفى مدَّةً، وعدم تحسُّن حالتها، نظرتْ حواليها إلى جميع ممتلكاتها الشخصيَّة التي ستتركها عند وفاتها والتي كانت متعلِّقةً بها. ثُمَّ قالت: "هاي! ماما، هل تذكرين ذلك الاقتباس؟" وأجالت نظرها ثانيةً على جميع الأنابيب، ومدَّت رأس لسانها من زاوية فمها، وحَنَت رأسها، ورفعت بصرها مبتهجةً بالاختبار التي كانت مُسلِّمةً نفسها إليه.

وقد ظلَّت على التزامها ما دامت تعي ما يدور حولها في عالم الواقع. ومرَّةً،

عادها رئيس جامعتها وسألها هل من طلبة خاصّة يذكرها في صلاته لأجلها. وإذ كانت أضعف من أن تتكلّم، أومأت لي كي أشرح اقتباس باركلي، وأطلبَ من الرئيس أن يُصلّيَ كي تُحوِّل محنتُها إلى مجد.

وقبل بضعة أيّام من وفاتها، بينما كنتُ جالسةً بقرب سريرها، بدأت تصرخ فجأةً. ولن أنسى أبدًا الصرخات الحادّة العالية المَهولة. وقد هُرِعتِ الممرِّضات من كلّ جهة وأحطْنَها بمحبّتهنّ. وقالت إحداهُنّ: "لا بأس، يا بِغي. جيئّي هُنا!"

أخذت الممرِّضات يُمسِّدن جسمها، حتّى استطعن أخيرًا بكلماتهنّ ولمساتهنّ أن يُهدِّئن من روعها (وإن كان أعياهُنّ ذلك بمرور الوقت واستمرار الصُّراخ). ونادرًا ما رأيتُ حنانًا كهذا. حتّى إنّ وَندي، الممرِّضة الصديقة لبِغي صداقةً وثيقة، قالت لي إنّه ليس في الطابق كلّه مُمرِّضةٌ واحدة ليس لها على الأقلّ مريضٌ واحد هي مستعدّةٌ أن تهبَ له إحدى رئتيها لإنقاذه إذا أمكن ذلك. إذًا، إزاء هذه الخلفيّة من تفرُّق الكائنات البشريّة وتصدُّعها- حيث لا تستطيع المُمرِّضات أن يمكثن طويلًا في ذلك الطابق لأنهنّ لا يقدرن أن يفعلن المزيد في سبيل المساعدة- نظر الله من علٍ، وهو القادرُ على المساعدة، إلى شابّةٍ مُكرَّسةٍ له ومستعدّةٍ كلّيًّا لأنْ تموتَ لأجله كي تُعطيَه مجدًا، وقرَّر أن يظلَّ جالسًا على يديه ويدعَ موتها يُتوِّج جداول الرُّعب الغاصّة بالوَفَيات من جرّاء التليُّف الكيْسيّ.

أصدقُك القول، يا فيليب، إنّني لا أجد عونًا في التحدُّث عن الخير الذي ينتج من الألم. وليس من عونٍ أيضًا في التكلُّم عن كون الله، كلَّ حين تقريبًا، يدع سيرورة المرض الطبيعيّة تجري مجراها. لأنّه إذا تدخَّل مرّةً، فعند كلِّ نقطة من المعاناة البشريّة يتَّخذ قرارًا بالتدخُّل أو بعدمه. وفي حالة بِغي، كان خِياره أن يدع داء التليُّف الفتّاك يفعل فعله. هذا، وتمرُّ بي هُنيهاتٌ لا أستجيب فيها بسوى الحزن والغضب كأعنفِ ما خبرتُهما يومًا. كما أنَّ التعبير عن مشاعري لا يُبدِّدها أيضًا.

لم تتذمَّر بِغي على الله قطّ. وما كان ذلك برادعٍ من تقوى: فلستُ أعتقد

أنَّه خطر لها مرّةً أن تتذمَّر أو تتشكَّى. ولا أحدَ منّا، نحن الذين عايشنا معاناتها وهي تُحتضَر، تذمَّر أيضًا آنذاك. فقد كُنّا محمولين ومدعومين. إذ كانت محبّة الله حقيقيّة واقعيّة جدًّا بحيث يتعذَّر أن يشكَّ فيها المرءُ أو ينهالَ عليها باللّوم والشكوى بسبب طُرقها الغريبة.

لو أخبرتك بهذا كلّه في مسعًى لبلوغ نوع مَا من الحلّ لمشكلةِ ألَم بِغي وألمي، لربّما جيءَ بي مرّةً أُخرى أيضًا إلى الأمر الوحيد الذي يُساعِدني على اختبار محبّة الله، ألا وهو تربيَتُهُ المتمثّل في قوله: "أنا هُنا، يا مغ!" ولكنّني أعود فأُسائل نفسي: كيف يُعقَل أن يكون أمامه وضعٌ كهذا ويبقى مكتوف اليدين؟

وإذ أُفكِّر في الأمر، أرى أنّني لم أُعبِّر عن هذا كلّه لأحدٍ من قبل، خشيةَ أن أُزعزِع إيمان أحد. فلا تظنَّ أنَّ عليك أن تقول أيَّ شيءٍ كي تجعلني أشعر بأنّني أحسنُ حالًا. إنّما شكرًا على الإصغاء. فمعظم الناس ليس لديهم فكرة عن مدى المساعدة التي ينطوي عليها ذلك.

بعدَ قراءتي رسالة مغ، لم أعُد أستطيع مُتابعة عملي تلك الليلة.

المشهد من هُنا

عادتِ الأسئلة القديمة تجيشُ من جديد، أسئلتي عنِ المظالم الاجتماعيّة، والصلواتِ غير المستجابة، والأجساد العليلة، وحالات الضيق الأُخرى التي لا تُحصى. وعادت أسئلة رشيد زاخرةً بقوّةٍ عاطفيّة جديدة ما هي إلاَّ كِسرٌ من القوّةِ التي لا بدَّ أن تكون مغ قد شعرت بها وهي تجلسُ عاجزةً بجانب سرير ابنتها في المستشفى.

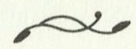
كنتُ قد فتَّشتُ الكتاب المقدَّس بحثًا عن تبصُّراتٍ من جهةِ ما هو اللهُ بصدده في هذا العالَم وكيف لا بدَّ أن يشعر من حيثُ كونه الله، عالمًا بالطبع أنْ ليس في وسعنا البتّةَ أن نُدانيَ استيعابَ وجهة نظرٍ رفيعة كهذه. غير أنَّ رسالة مغ دفعتني في اتّجاه آخر وغيرَّت كامل مُقاربتي للقسم الأخير من هذا الكتاب.

يحسن بنا أن ننظر بعين الاعتبار إلى مُستوى نظر الله، ولكنْ ماذا بشأن وجهة نظرنا نحن؟ فبعدما عكفتُ على استكشاف أيِّ شعورٍ ينطوي عليه كونُ الله إلهًا، دفعتني رسالةٌ مغ دفعًا إلى تلمُّس الشعور الذي ينطوي عليه كونُ الإنسان إنسانًا. فأسئلتها أسئلةٌ من القلب، لا الرأس. وهي أمٌّ رأت ولديها يموتان موتًا بطيئًا مروِّعًا. إلاَّ أنَّها، بوصفها مؤمنةً بالمسيح، تؤمن بالله الآبِ المُحبّ. فكيف يسعها أن تُوفِّق بين الأمرين؟

تلك الليلة، أدركتُ أنَّ هذا الكتاب لم ينتهِ. فالمفاهيم اللاهوتيَّة لا تُحرِز مكانةً مرموقةً إلاَّ إذا تأتَّى لها أن تتكلَّم إلى شخصٍ مثل وُدسُن التي تتلمَّس طريقها بحثًا عن محبَّة الله في عالم يحيط به الهمُّ والغمّ. وتذكَّرتُ رجل دين متعثرًا في إحدى روايات جان أبدايك إذ قال: "لقد فسد شيءٌ ما. ليس عندي إيمان. أو بالأحرى، عندي إيمان ولكن لا يبدو أنَّه يصحّ". فكيف يصحّ؟ وماذا يحقُّ لنا أن نتوقَّع من الله؟

فقال الربُّ للشيطان: "هل جعلتَ قلبك على عبدي أيُّوب؟ لأنَّه ليس مثله في الأرض: رجلٌ كامل ومستقيم، يتَّقي الله ويحيد عن الشرّ".

أيُّوب ١: ٨



٢٢

المشكلةُ الوحيدة



توجد هنا كنيسةٌ واحدة، وهكذا أذهب إليها. ففي أيَّام الأحد صباحًا، أُغادر المنزل وأتهادى هابطةً التلَّ إلى الكنيسة ذات الشَّكل الأبيض بين شجر التَّنوب. يومَ الأحد المُميَّز، قد يحضُر منَّا عشرون شخصًا. وغالبًا ما أكون أنا الشخص الوحيد تحت سنّ الستّين، فأشعر كما لو كنتُ في جولةٍ على آثار روسيا السوفياتيَّة. والحضور ينتمون إلى طوائف شتَّى. أمَّا الخادم فاستقلاليٌّ، وهو يرتدي قميصًا أبيض. والرجل يعرف الله حقًّا. فمرَّةً، في منتصف صلاةٍ تشفُّعيَّة لأجل العالم كلّه- لأجل عطيَّة الحكمة لرؤسائه، ولأجل الرجاء والرحمة للحزانى والمتألّمين، والفَرَج للمضطهدين، ونعمة الله للجميع- في منتصف هذه الصلاة توقَّف وجأر: "يا ربّ، إنَّنا نرفع إليك هذه الطَّلبات نفسَها كلَّ أُسبوع!" وبعد وقفةٍ ذاهلة، تابع تلاوة الصلاة. من أجل هذا، يروقني الرجُل كثيرًا.

آنّي ديلارد، هُولي ذا فِيرم

حتَّى الآن، تجنَّبتُ سفرًا واحدًا من الكتاب المقدَّس، سفرًا يتصدَّى للمسائل عينها التي أثارها الواعظ الاستقلاليُّ، ورشيد ومغ، ويُثيرها تقريبًا كلُّ مَن يفكّر في الله. فلا

عجب إذًا إن كنتُ بعد قراءة رسالة مغ قد وجدت نفسي متحوِّلًا نحو سفر أيُّوب.

ربَّما كان سِفر أيُّوب السِّفرَ الأقدم في الكتاب المقدَّس. ولكنَّ مَن يقرأه يجده شبيهًا بأكثر الكُتب حداثةً. فالصُّورة المهولة التي يرسمها- رجلٌ يواجه الهاوية في كونٍ يبدو عديم المعنى- تُنذر بمأزق البشريَّة المُعاصِرة. حتَّى إنَّ أولئك الذين يرفضون كلَّ ما في الكتاب المقدَّس تقريبًا ما ينفكُّون يرجعون إلى أيُّوب للاستلهام. فإنَّ موضوعه المتواتر- كيف يُعقَل أن يسمح إلهٌ صالح بالألم؟- هو "المشكلة الوحيدة التي تستحقّ البحث،" كما قالت الروائيَّة البريطانيَّة المُعاصِرة موريل اسپارك في كتابها «المشكلة الوحيدة». فمشكلة الألم هاجسٌ مُعاصِر، إذ هي شُغل اللاهوت الشاغل في زماننا، والرجُل القديم أيُّوب عبَّر عنها بأحسنِ ما عُبِّر عنها على الإطلاق.

تدمَّر رشيد من أجل نبذ خطيبته له وفقدانه وظيفةً وحياةً عائليَّة مستقرَّة. وبكت مغ متألِّمة لفقدان ابنٍ وابنة. إلاَّ أنَّ أيُّوب، بحسب أيِّ معيار، خسر أكثر بكثير: ٧٠٠٠ رأس غنم، ٣٠٠٠ جمل، ٥٠٠ فدَّان بقر، ٥٠٠ أتان، وخدَّامًا كثيرين. ثمَّ مات أولاد أيُّوب جميعًا- سبعة بنين وثلاث بنات- بعاصفةِ ريح عاتية. أخيرًا خذلت أيُّوب صحَّته، عزاؤه الأخير، إذ تفشَّت القروح من أخمص قدمه حتَّى هامة رأسه. فبين عشيَّةٍ وضُحاها، تضاءل أعظم بني المشرق كلِّه وغدا أدعاهم للرثاء.

إنَّ أيُّوب هو أهمُّ دراسة في الكتاب المقدَّس لحالة خيبةِ أملٍ بالله. وهو من هذا القبيل يُشكِّل سابقةً لأيِّ نوع من الخيبة قد يشعر به رشيدٌ أو مغ أو أيُّ واحد منَّا. ويُذكَر أنَّ حاخامًا أميركيًّا كتب كتابًا رائجًا عنوانه «حين تحدث الأمورُ السيِّئة للأشخاص الصالحين». غير أنَّ سِفر أيُّوب يرفع السَّقف: فهو يصف أنَّ أسوأ الأمور تحدثُ لأفضل شخصٍ على الإطلاق.

إساءةُ قراءة

لو سألتَني عندما بدأتُ دراستي عمَّا يتكلَّم عنه سفر أيُّوب، لسارعتُ إلى

الإجابة: أيُّوب؟ كلُّ امرىءٍ يعرف موضوع سِفر أيُّوب. إنَّه أكمل معالجة يحتويها الكتاب المقدَّس لمشكلة الألم. إنَّه عن الحزن الرهيب والألم المُحيِّر. ولا شكَّ أنَّ القسم الأكبر من السِّفر يتركَّز فعلًا على موضوع الألم. فالأصحاحات ٣- ٣٧ لا تحتوي على أفعالٍ تُذكر، بل على محاورات مُتشبِّثة بالآراء الشخصيَّة يُجريها خمسة رجال سريعي الانفعال- أيُّوب وأصدقاؤه الثلاثة وأليهو الغامض- بشأنِ مشكلة الألم. وهم جميعًا يُحاولون أن يُعلِّلوا سِهامَ النكد الحادَّة وحجارته العنيفة التي انهالت جميعًا على أيُّوب المسكين، حتى بات يجلس بائسًا يائسًا في رمادِ ما كان قصرَه سابقًا.

إنَّما أعتقد الآن أنَّني أسأتُ قراءة السِّفر، أو على وجهٍ أدقّ: لم آخُذ في الحسبان كاملَ السِّفر. فعلى الرُّغم من حقيقة كون السِّفر كلِّه، ما عدا صُفَيحات، يتطرَّقُ إلى مشكلة الألم، فإنَّني بالغٌ استنتاجًا يُبيِّن أنَّ سفر أيُّوب غيرُ معنيٍّ في الحقيقة بمشكلة الألم وحدها. ذلك أنَّ معاناة الألم جزءٌ من مُقوِّمات القصَّة، وليست موضوعها الجوهريّ. فكما أنَّ قالب الكعك ليس عن البيض والطحين والحليب والزُّبدة أو السَّمن، بل يستخدم هذه المُكوِّنات في صُنع قالب كعك، كذلك ليس سفر أيُّوب "عن" الألم؛ بل إنَّما يستخدم مقوِّماتٍ في قصَّته الكُبرى، المعنيَّةِ بعدُ بأسئلةٍ أكثر أهميَّة، أي أسئلة كونيَّة. فإذا نظرنا إلى سفر أيُّوب ككُلٍّ، وجدناه يُعنى جوهريًّا بالإيمان في شكله الأقوى.

وقد دفعني إلى هذا الاستنتاج أساسًا "الحبكة" التمهيديَّة في الأصحاحين الأوَّلين، وهي تُبيِّن أنَّ لمأساة أيُّوب الشخصيَّة على الأرض أصلَها في مأساةٍ كونيَّة في السماء. وكنتُ في ما مضى قد عددتُ سفر أيُّوب تعبيرًا بليغًا عن خيبة الأمل البشريَّة: شيئًا من صنف رسالة مغ ودُسُن، إنَّما أطول وأكثر تفصيلًا، وبتصديقٍ مباشر من وحي الكتاب المقدَّس. ولكنْ لمَّا تمعَّنتُ في درس السِّفر تبيَّن لي أنَّه لا يُمثِّل بالحقيقة وجهة النظر البشريَّة. فإنَّ الله هو الشخصيَّة المركزيَّة في الكتاب المقدَّس، ولا يبرز ذلك في أيِّ موضع من الكتاب أفصحَ وأوضحَ منه في سفر أيُّوب. وأدركتُ أنِّي ما برحتُ أقرأُه من

منظور الأصحاح الثالث فما بعدَه، أي بتعبير آخر: من منظور أيّوب.

فلأشرحْ:

يُفيدنا أنْ نُفكّر في سفر أيّوب كما لو كان مسرحيّةً بوليسيّة تنطوي على تفتيشٍ لمعرفة "مَنِ الفاعل". وقبل بدء الرواية ذاتها، نُعطى نحنُ الجمهورَ عرضًا مُسبَّقًا، كما لو كنّا قد حضرنا باكرًا إلى مؤتمر صحافيٍّ يشرح فيه المُخرِج عمله (الأصحاحان ١و٢). فهو يُطلِعنا على الحبكة ويصف الشخصيّات الرئيسية، ثمّ يُخبرنا مُقدَّمًا مَن فعل ما في المسرحيّة، ولماذا. وهو في الواقع يحلُّ كلَّ لغزٍ في المسرحيّة ما عدا واحدًا: كيف سيتجاوب الشخص الرئيس؟ أيثق أيّوب بالله أم ينكره؟

ولاحقًا، حين تُرفَع الستارة، لا نرى على المسرح سوى المُمثّلين. ولكونهم محصورين داخلَ المسرحيّة، فليس لهم أيُّ علم بما قاله لنا المُخرج في أثناء العَرض المُسبَّق. ونحن نعرف الجواب عن أسئلة "مَنِ الفاعل"؛ أمّا المُتحرّي النَّجم، أيّوب، فلا. وهو يقضي كامل وقته على المسرح ليكشف ما نعرفه نحنُ أصلًا. فيحكُّ جلده بشقفة فخّار ويسأل: "لماذا أنا؟ أيَّ خطإٍ فعلتُ؟ ماذا يُحاول الله أن يقول لي؟"

أمّا بالنسبة إلى الجمهور، فينبغي أن تكون أسئلة أيّوب مجرَّد تمرينٍ عقلي، لأنّنا عرفنا الأجوبة من البرولوغ (خطبة المسرحية الافتتاحية)، أعني أوّلَ أصحاحين. أيَّ خطإٍ ارتكب أيّوب؟ لا شيء. فهو يمثّل صفوة الجنس البشريّ. ألم ينعتِ الله نفسُه أيّوب بكونه "كاملًا ومستقيمًا، يتّقي الله ويحيد عنِ الشرّ"؟ فلماذا إذًا يُعاني أيّوب الألم؟ ليس على سبيل العقاب. حاشا له ذلك... فقدِ اصطُفيَ ليكون الممثّل الرئيسيّ في صراع السماوات العظيم.

الرِّهان

إذ أستعرض الماضي، أتساءل أحيانًا كيف أمكن أن أسيءَ قراءة سفر أيّوب إلى ذلك الحدّ. وأعتقد أن جزءًا من السبب يكمن في فصاحة الأصحاحات ٣- ٣٧ التي

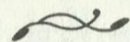
تُعبِّر عنِ المأزق البشريّ بقوّة كبيرة بحيث يمكن أن نعلق في حقل طاقتها، ناسين أنّ الأسئلة التي تُثيرها سبق أن أُجيب عنها في الأصحاحين ١و٢. ولكنَّ ثمّة سببًا آخر بعد: أنَّ أحدًا لا يعرف تمامًا ماذا يفعل بالأصحاحين الأوّلين. حتّى علماءُ الكتاب المقدّس يميلون إلى النظر بارتباكٍ إلى هذه المقدّمة التمهيديّة، أو إلى إسقاطها بوصفها إضافةً من يد مُحرِّرٍ لاحق. فهذه المقدّمة تُصوِّر الله والشيطان خائضَين غمارَ ما يُشبِه رهانًا ما... حتّى لَتكادُ تلمح علامات الحياء والارتباك على صفحات كُتب التفسير! إذ إنَّ بليّة أيّوب تعود فعلًا إلى نوع من المُراهَنة بين القوّتين الكونيّتين العُظمَيين.

تبدأُ المحنة بادّعاء الشيطان أن أيّوب أثيرُ أفسده التدليل، وهو مُوالٍ لله فقط لأنّه تعالى "سيَّج حوله وحول بيته وحول كلِّ ما له من كلِّ ناحية". فالشيطان يسخر زاعمًا أنّ الله، وهو غير جدير بالمحبّة في ذاته، إنّما يجتذب أُناسًا مثل أيّوب لأنّه "يرشوهم" كي يتبعوه. فإذا قَسَت أحوالُ الزمان- على ما يتّهم الشيطان- ينبذُ أُناسٌ كهؤلاء الله في الحال. وإذ يقبل الله التحدّيَ لامتحان نظريّة الشيطان، مُوافِقًا بذلك على أن يدع استجابة أيّوب تحسم القضيّة، تبدأُ المصائب تنهال على أيّوبَ المسكين غيرِ المرتاب.

لن أُنكر غرابة هذا النزاع السماويّ. وفي المُقابل، لا يمكنني أن أتفادى من خبر الرِّهان في سفر أيّوب، لأنّه يؤتينا نظرةً خاطفة عبرَ كُوَّة الأبديّة. فعندما يُعاني الناس الألم، تنبجِسُ الأسئلة: الأسئلة التي عذَّبت أيّوب بعينها- لماذا أنا؟ ماذا يجري؟ هلِ الله مَعنيّ؟ أهنالك إله؟ وهذه المرّة، في سرد معاناة أيّوب كما هي، نحنُ المُشاهِدين- لا أيّوب- نؤتى لمحةً لِما وراء الستارة. فما نتوقُ إليه، تزوّدنا به مُقدّمة سفر أيّوب: نظرة خاطفة على كيفيّة إدارة شؤون العالم. وكما لا يحصل في أيّ موضع آخر من الكتاب المقدّس، يبيّن لنا سفر أيّوب وجهة نظر الله، بما في ذلك النشاطُ الفائق للطبيعيّ والمخفيّ عنّا عادةً.

لقدِ استدعى أيّوب الله للمحاكمة، مُتّهمًا إيّاه بأفعالٍ جائرة ضدَّ طرف بريء. وإذِ

استبدَّ به الغضب وثارت سخريته وشعر بأنَّه مغبون ومخذول، هام على وجه حتَّى قاربَ الكُفر قدرَ المُستطاع، دون أن يتردَّى في هوَّته. ولكلماته وقعٌ مألوف على نحوٍ مُذهِل، لأنَّها حديثة ومُعاصِرة إلى حدٍّ بعيد. فهو يجهر بشكاوينا التي نشعر بها في أعمق أعماقنا ضدَّ الله. ولكنَّ الأصحاحين ١و٢ يُبرهِنان أنَّ الله، بصرف النظر عمَّا يظنُّه أيُّوب، ليس خاضعًا للمحاكمة في هذا السِّفر، بلِ الخاضعُ لها هو أيُّوب. فبيت القصيد في السِّفر ليس الألم: أينَ يكون الله عندما نُعاني الآلام؟ إذ إنَّ المقدِّمة التمهيديَّة تناولت هذه المسألة. إنَّما بيت القصيد هو الإيمان: أين هو أيُّوب عند معاناة الآلام؟ وكيف هي استجابتُه؟ ففي سبيل فهم سفر أيُّوب، يجب أن أنطلق من هنا.



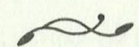
أن نؤمن بما فوق الطبيعة ليس هو مجرَّد الإيمان بأنَّ المرءَ، بعد أن يعيش حياةً ناجحة ومادّيَّة وفاضلة إلى حدٍّ ما، سيستمرُّ موجودًا في أفضلِ بديل ممكن من هذا العالم؛ ولا بأنَّه، بعد أن يعيش حياة جوعٍ وحرمان وبؤس وشقاء، سيُعوَّض بجميع الخيرات التي عاش حياته بغيرها: بل هو الإيمان بأنَّ الفوطبيعيَّ[1] هو الحقيقةُ الواقعيَّة العُظمى الآنَ وهُنا.

تي أس إليوت

١ الفوطبيعي تعني فوق الطبيعي، مرتبط بقوى خارقة للطبيعة.

الشاهدان الكتابيَّان: أيُّوب ١و٢.

ما هو الإنسان حتّى تعتبره،
وحتّى تضع عليه قلبك،
وتتعهّده كلّ صباح،
وكلّ لحظةٍ تمتحنه؟
حتّى متى لا تلتفت عنّي،
ولا ترخيني ريثما أبلع ريقي؟
أيّوب ٧: ١٧-١٩



٢٣

دورٌ في الكون



يقول بعضهم إنّنا بالنسبة إلى الآلهة مثلُ الذُّباب الذي يضربه الأولاد بتكاسُل في يومٍ من أيّامِ الصيف. ويقول آخرون إنّ ريشةً لا تسقط من عصفورٍ إلى الأرض بغير مشيئة الآب السماويّ.

ثورنتن وايلدر، جسر سان لويس راي

بالنسبة إلى صديقي رشيد، وقد كتب كتابًا عن أيّوب، كان ذلك الرجُل القديم بطلًا خارقًا استجرأ أن "يُكابِش" الله القدير. ومرّةً، بعدما أصغيتُ إلى رشيد وهو يُشيد ببسالةِ أيّوب، تطرّقتُ إلى قضيّة الرّهان. فارتسمت على وجهه أمارات الغضب، واندفع قائلًا: "كلُّ ما يسعُني قولُه هو أنّ أيّوب دفع ثمنًا مقدارُه جحيمُ حياةٍ كي يجعل الله راضيًا مسرورًا!"

وأنا أيضًا استصعبتُ التفاديَ من مشاعرَ كهذه أوّلَ الأمر. فما من طريقٍ سهل للالتفاف على الصِّعاب، لأنّ الصِّراع السماويّ تبدّى في حياة أيّوب بشكل نهّابين ونيرانٍ من السماء ورياح عاصفة وقروحٍ خبيثة. فكيف يستحقّ فوزُ الله في صراع ما، أيًّا كان، ثمنًا باهظًا كهذا؟ وكما سأل سي جي جَنغ في كتابه الساخر عن أيّوب: "هل يستحقّ ترويعُ فأرٍ جهدَ الأسد؟"

ولكنْ لمّا أمعنتُ في دراسة أيّوب، تبيَّن لي أنّني طالما احتفظتُ بالصورة غير الصحيحة لِما جرى. نعم، كانت تجري مُباراة كِباشٍ بالأذرع، ولكنْ ليس بين أيّوبَ والله. بل بالحريّ إنّ الشيطان والله كانا المُتباريَين الرئيسيَن، وإن كان الله- على النحو الأهمّ- قد سمّى أيّوبَ الإنسان بديلًا له. ويُبيِّن الأصحاحان الأوّل والأخير بجلاءٍ أنّ أيّوب كان على غير علم منه يؤدّي دوره في مُنازلة كونيّة حاسمة أمام مشاهدين مُحتشِدين في العالم غير المنظور.

إقلاقُ الكون

إنّ مشهد الرّهان الغريبَ ذكّرني ببضعة مواضع أُخرى يُتيح لنا الكتابُ المقدّس فيها لمحةً خاطفةً على ما وراءَ الستارة. تأمّل مثلًا في رؤيا ١٢، حيث تُصوِّر مُنازلةٌ أغرب بَعد: امرأةٌ حُبلى متسربلةٌ بالشمسِ، وعلى رأسها اثنا عشر كوكبًا إكليلًا، تُقاوِم تنّينًا أحمر هائلًا جدًّا بحيثُ يُزيح ثُلثَ نجوم السماء بجرّةٍ واحدة من ذَنَبه. ويربض التنّين منتظرًا، بُغيةَ أن يلتهم ابنَ المرأة الحُبلى لحظةَ ولادته. ثُمّ هنالك المزيد: فرارٌ إلى الصحراء، وحيّةٌ تُحاوِل إغراق المرأة، وحربٌ ضَروسٌ في السماء.

يقترح مفسّرو الكتاب المقدّس تفسيراتٍ شتّى للتفاصيل الواردة في رؤيا ١٢، ولكنْ يكاد الجميع يتّفقون على أنّ الصُّور المَهُولةَ تُشير إلى ما أحدثته ولادة المسيح في بيت لحم من تصدُّعٍ عظيم في الكون. فبمعنًى ما، يعرض رؤيا ١٢ جانبًا آخر للميلاد، مُضيفًا مجموعةً جديدة من الصُّوَر المُزخرفة إلى المشاهد المألوفة التي يظهر فيها المِذوَد والرُّعاة وقتلُ الصِّغار الأبرياء. فأيُّ الاثنتين قصّةُ الميلاد "الحقيقيّة": رواية لوقا الراعويّة، أم صورة الرؤيا للصراع الكونيّ؟ إنّ هاتين طبعًا هما القصّة نفسُها، ولكنّ مستوى النظر وحده يختلف. ذلك أنّ لوقا ينقل المشهد من الأرض، وسفر الرؤيا يُضفي ظِلالَ تفاصيلَ من العالم غير المنظور.

ويبرز العالَمان كلاهما نابِضَين في ثلاثةٍ من أشهر قِصَص المسيح: مَثَل الخروف

الضائع والدِّرهم المفقود والابن الضالّ. إذ تؤكّد هذه الحكايات الثلاث كلُّها النقطة عينَها: حصولَ فرحٍ عظيم في السماء عندما يتوب خاطئ. وفي وسع أيِّ شخصٍ اليوم أن يُشاهِد خاطئًا يتوب، لأنّ حملات بيلي غراهام التبشيريّة المُتلفَزة تُصوِّر المشهد مُباشرًا ومُلوَّنًا. فالكاميرا تتبع شابّةً وهي تشقّ طريقها بين صفوف المقاعد إلى الناحية المُخصَّصة لطالبي التّوبة وقبول الإيمان. ولكنّ قِصَص المسيح الثلاث تُشير ضمنيًّا إلى أنّ أكثر من ذلك بكثير قد يكون جاريًا في الملإ الأعلى: في ما وراءَ مشهد المدرَّج ذاك، في مكانٍ خفيٍّ عن جميع عدسات الكاميرات، انطلقت حفلةٌ عظيمة- احتفالٌ ضخمٌ بديع في العالَم غير المنظور.

إنّ اعتقادَ وجودِ عالَمٍ غير منظور يُشكّل خطًّا فاصلًا حاسمًا في الإيمان اليوم. فكثير من الناس يستيقظون ويأكلون، ويقودون سيّاراتهم ويشتغلون، ويتخابرون بالهاتف، ويرعَون أولادهم، ثُمّ يخلدون إلى النوم، بغير أن يُفكّروا أدنى تفكير في وجود عالَمٍ غير منظور. ولكنّ التاريخ البشريّ، بحسب الكتاب المقدّس يتخطّى كثيرًا جدًّا قيامَ الأفرادِ والأُمم وسقوطَهم: إنّه ساحة احتشاد للمعركة الكونيّة. وعليه، فإنّ ما يبدو فعلًا "عاديًّا" في العالَم المنظور قد يكون ذا تأثير فائقٍ للطبيعيّ في العالَم غير المنظور: إرساليّةٌ قصيرة الأمد تُسبّب سقوط الشيطان كالبرق من السماء (لوقا ١٠)؛ توبةُ خاطئٍ تُطلِق احتفالًا سماويًّا (لوقا ١٥)؛ ولادةُ طفلٍ تُقلِق الكون كلّه (رؤيا ١٢). غير أنّ كثيرًا من ذلك التأثير يبقى محجوبًا عن أنظارنا... ما عدا اللمحات النادرة التي تُتاح لنا في مواضع مثل سفر الرؤيا، وفي أيّوب.

فإنّ أيّوب كان شخصًا عاديًّا في العالَم المنظور، غير أنّه دُعي إلى احتمال محنةٍ ذاتِ عواقب كونيّة. ولم يكُن لديه بصيصُ نور يهديه، ولا إلماعٌ إلى أنّ العالَم غير المنظور مَعنيٌّ بأمره، أو على الأقلّ موجود. ومع ذلك، فمثله مثل حيوانٍ تجاربَ في المختبر انتُقيَ لحسم واحدةٍ من أكثر مسائل البشريّة إلحاحًا، وتحديدِ كَسرٍ يسير من تاريخ الكون.

أمِن السُّخف أن نعتقد أنّ كائنًا بشريًّا واحدًا، نُقطةً بالغة الصِّغَر على كوكبٍ

ضئيل، يمكن أن يُحدِث فرقًا في تاريخ الكون؟ لقد بدا الأمرُ يقينًا على هذه الحال في نظر أصحاب أيّوب. فأصغِ إلى أليهو، آخِر مُعزّي أيّوب الأربعة:

إن أخطأتَ، فماذا فعلتَ به (بالله)؟

وإن كثُرت معاصيك، فماذا عملتَ له؟

إن كنتَ بارًّا، فماذا أعطيتَه،

أو ماذا يأخذه من يدك؟

لرجُلٍ مثلِك شرُّك،

ولابن آدم برُّك!

غير أنّ أليهو كان على ضلال مُبين. فالأصحاحات الافتتاحيّة والختاميّة في سفر أيّوب تُبيِّن أنّ الله كان متأثّرًا جدًّا باستجابة إنسانٍ واحد، وأنّ شؤونًا كونيّة كانت على المحكّ. (وفي رسالة إلى النبيّ حزقيال لاحقًا، سيُشير الله بفخر إلى أيّوب باعتباره واحدًا من محبوبيه الثلاثة، إلى جانب دانيال ونوح).

فإنّ مثال أيّوب، مرسومًا بوضوح لافت، يُبيِّن كيف أنّ الحياة على الأرض تؤثّر في الكون. ولمّا باشرتُ دراستي، نزعتُ إلى تفادي ذلك المشهد "المُربك" في الأصحاح الأوّل، ولكنّني منذئذ بتُّ أعتقد أنّ قضيّة الرّهان- سواءٌ كانت رمزيّة أم فعليّة- تُقدِّم لنا جميعًا رسالة رجاءٍ عظيم لعلّها الأمثولةُ الأقوى والأبقى بين الدروس المُستفادة من سفر أيّوب. ففي نهاية المطاف، أثبت الرهان على نحو حاسم أنّ إيمان كائن بشريٍّ فرد يُساوي كثيرًا جدًّا بالفعل. ولنا في أيّوب تأكيدٌ أنّ استجابتنا للامتحان مهمّةٌ حقًّا. فإنّ تاريخ البشريّة- وبالحقيقة تاريخي الشخصيّ- في الإيمان، تنطوي عليه مسرحيّةُ تاريخ الكون الكُبرى.

لقد وهبَنا الله "امتياز السببيّة"، كما قال باسكال. وربّما شككنا، مع أليهو، في

أنّ شخصًا واحدًا يمكن أن يُحدِث أيَّ فرقٍ ذي قيمة. إلاّ أنّ الكتاب المقدّس يشفّ عن إشاراتٍ إلى أنّ شيئًا من قبيل الرّهان يُجرَى في حياة باقي المؤمنين أيضًا. فنحن قائمة الله المُمتازة، أو مُستنَد الإثبات الذي يُقدّمه لقوّات العالم غير المنظور. وإذ يستعير الرسول بولس صُورةً بيانيّة من دخول موكب المُجالدين إلى ساحة المدرَّج الرومانيّ، يُصوِّر نفسه في استعراضٍ عامّ: "صرنا منظرًا للعالَم، للملائكة والناس". وفي الرسالة عينها يقولك "ألستم تعلمون أنّنا سندين ملائكة؟"

نحن البشرَ نُقيم في كوكبٍ هو مجرّد هباءةٍ في الضواحي الخارجيّة لمجرّةٍ لولبيّة ليست إلاّ واحدةً من نحو مليونِ مليونٍ من المجرّات المُماثِلة في الكون الذي يمكن رؤيتُه. ولكنّ كتاب العهد الجديد يُصِرُّ على أنّ ما يحدث بيننا هَهُنا سوف يُسهِم بالحقيقة في تحديد مستقبل ذلك الكون. إذ يقول بولس مؤكّدًا إنّ "انتظار الخليقة يتوقّع استعلان أبناء الله". ذلك أنّ الخليقة الطبيعيّة التي "تئنّ وتتمخّض معًا" تحت "عبوديّة الفساد"، لَن تُحرَّر إلاّ حين تُمجَّد الكائنات البشريّة المُفتداة وتتجلّى.

الانعكاس العظيم

في المفهوم المسيحيّ، يجري التاريخ البشريّ كلُّه بين أوّل قسم من سفر التكوين وآخِر قسم من الرؤيا، حيث يرسم كِلاهما المشهد عينَه بضرباتِ الفرشاة عينها: فِردوس ونَهر، ومجدُ الله النيّرُ البهيّ، وشجرة الحياة. فالتاريخ يبدأ وينتهي في المكان ذاته، وكل ما يتخلّله يُشكّل الصّراع لاسترداد ما قد فُقِد*.

وبعد السقوط من الفردوس، دخل التاريخ طورًا جديدًا. فإنّ الله بنفسه كان قد أتمّ الخَلق، مبتدئًا من لاشيء ومنتهيًا إلى الكون بكلّ عظمته. أمّا العمل الجديد فهو الخَلق

* يتطرق جان مكواري إلى مصيرنا النهائيّ في مقطع من "اتّضاع الله" يقول فيه: "إذا شئنا لعقيدة الخطيّة الأصليّة ألاّ تكون لها الكلمةُ الأخيرة، ينبغي أن نواجهها بعقيدةِ البرّ الأصليّ. وبعدُ، فإنّ البرَّ في رواية العهد القديم أكثرُ أصالةً من الخطيّة".

من جديد، وفي سبيل هذا العمل يستخدم الله الكائنات البشريَّة أنفُسَها التي سبق أن أفسدت عمله أصلًا. وقد تقدَّم الخَلق عبر مراحل: الكواكب أوَّلًا، ثمَّ السماء والبحر، فإلى النباتات والحيوانات، وصولًا إلى الرجُل والمرأة في النهاية. أمَّا الخَلق من جديد فيعكس الآية، إذ يبدأ بالرجُل والمرأة ويبلغ ذروته في استرداد كلِّ ما تبقَّى.

ومن عدَّةِ وجوه، عَملُ إعادة الخَلق "أصعبُ" من الخلق، لأنَّه يعتمد على كائنات بشريَّة ناقصة. وإنَّه لجليٌّ أنَّه كلَّف الله الكثير: موتَ ابنه. ومع ذلك، فإنَّ الله يُصِرُّ على شفاء العالم من الأسفل فصاعدًا، لا من الأعلى فنازلًا.

وإذ درستُ سفر أيُّوب، صعقني أنَّ الرِّهان كان، في صميمه، إعادة تمثيل شديدة الوضوح لسؤال الله الأصليِّ عند الخَلق: أيختارُ البشر ما هو معي أو ما هو عليَّ؟ فمن وجهة نظر الله، ما برح ذاك هو السؤالَ المركزيَّ في التاريخ، بدءًا بآدم واستمرارًا حتَّى أيُّوب وكلِّ رجُل وامرأةٍ عاشا على الإطلاق. والرِّهان في سفر أيُّوب يُعرِّض للامتحان كامل الاختبار البشريّ.

لقد أنكر الشيطان أنَّ الكائنات البشريَّة حُرَّةٌ حقًّا. وبالطَّبع، نحن نملك حرِّيَّةً بأن نَهوي ونهبط: فآدم وجميع نسله برهنوا ذلك. أمَّا الحرِّيَّة بأن نعلو ونصعد، بأن نصدِّق الله لا لسببٍ إلَّا... حسنًا، لا لسببٍ على الإطلاق، فماذا نقولُ فيها؟ أيستطيع امرؤٌ أن يؤمِن حتَّى حينَ يَظهر له الله كعدوٍّ؟ أم الإيمان حصيلةٌ إضافيَّةٌ أُخرى للبيئة والظروف؟ إنَّ الأصحاحَين الأوَّلين في سفر أيُّوب يفضحان كونَ الشيطان السُّلوكيَّ العظيمَ الأوَّل، إذ لمَّح إلى أنَّ أيُّوب كان مُكيَّفًا كي يحبَّ الله. احجبْ عنه المكافآت، ترَ إيمانَه ينهار! وهكذا عرَض الرِّهانُ نظريَّةَ الشيطان للامتحان.

إنَّني بتُّ أرى تجارب أيُّوب امتحانًا حاسمًا للحرِّيَّة البشريَّة، وهذه مسألةٌ مهمَّة في الزمن الحديث أيضًا. ففي قرننا الحاليِّ، لا بدَّ لنا من الإيمان حتَّى نُصدِّق أنَّ الكائن البشريَّ يُساوي أكثر من مجرَّد مزيج من برمجة الحمض النوويّ، وغرائز المُستودَع الجينيِّ والتكييف التربويِّ وقوى التاريخ اللاشخصيَّة. ولكنْ حتَّى في هذا القرن القائل

بالسلوكيَّة، نريد أن نؤمن إيمانًا مُغايرًا. فنحن نريد أن نؤمن بأنَّ الخيارات الألف- الصعبةَ والسهلة- التي نقوم بها كلَّ يوم مهمَّةٌ ومؤثِّرة بطريقةٍ ما. وسفر أيُّوب يؤكِّد أنَّها كذلك فعلًا؛ فإيمان شخص واحد يمكن أن يُحدِث فرقًا. فللكائنات البشريَّة، رغمَ كلِّ شيء، دورٌ ما. وإذ أتمَّ أيُّوب ذلك الدَّور، غدا قدوةً لأيِّ امرىءٍ يواجه الشكَّ أو العناء يومًا.

ويغلب جدًّا أن تبدأ خيبة أمل الإنسان بالله في ظروفٍ تُشبه ظروف أيُّوب. فإنَّ موتَ ولد، أو حادثًا مأساويًّا، أو فقدانَ وظيفة، قد يستدعي الأسئلة التي طرحها أيُّوب بعينها: لماذا أنا؟ أيَّ شيءٍ لله عليَّ؟ لماذا يبدو نائيًا هكذا؟ ونحنُ قُرَّاءَ قصَّة أيُّوب يمكننا أن نرى من وراء الستارة صراعًا ناشبًا في العالَم غير المنظور. غير أنَّنا في بلايانا الخاصَّة لا نؤتى بصيرةً كهذه. فحين تضرب المأساة ضربتها، نعيش في الظِّلال، ولا نعي ما يدور في العالَم غير المنظور. وعندئذٍ تتكرَّر المأساة التي عاش أيُّوبُ مراحلها، في حياتنا الفرديَّة. ومرَّةً أخرى، يرهن الله سمعته باستجابة الكائنات البشريَّة التي لا يُستطاع التنبُّؤ بتصرُّفاتها.

بالنسبة إلى أيُّوب، تضمَّنت ساحةُ قتالِ الإيمان خسارةَ المُمتلكات، وفقدانَ أفراد العائلة، وفقدانَ الصحَّة. وقد نواجه نحن صراعًا من نوع آخر: فشل مهنيّ، زواج متضعضِع، تكييف جنسيّ، شكل جسميّ مُنفِّر لا جذَّاب. ففي أوقاتٍ كهذه تبدو الظروف الخارجيَّة أنَّها الصراعُ الحقيقيّ، من مرض وعجز ماليٍّ وأحوال مُعاكِسة. وربَّما ترجَّينا من الله أن يُغيِّر تلك الظروف. لو كنتُ جميلةً أو جذَّابة، لسار كلُّ شيء على ما يُرام. لو كان لديَّ مالٌ أكثر- أو على الأقلِّ وظيفة- لآمنتُ بالله بسهولة.

غير أنَّ المعركة الأكثر أهمِّيَّة، كما تُبيِّن لنا سيرةُ أيُّوب، تجري في داخلنا. هل نثق بالله؟ يُعلِّمنا أيُّوب أنَّه لحظةَ يكون الإيمان أصعبَ الأمور وأقلَّها احتمالًا، لحظتئذٍ تكون الحاجةُ إلى الإيمان أمسَّ جدًّا. فجهادُ هذا الرَّجُل يؤتينا لمحةً على ما يجهر به الكتاب المقدَّس في غير موضعٍ بصراحةٍ ووضوح، ألا وهو الحقيقةُ الرائعة بأنَّ خياراتنا ليست فقط مهمَّة بالنسبة إلينا وإلى مصيرنا الشخصيّ، بل أيضًا- ويا للعجب!- بالنسبة إلى

الله نفسه وإلى الكون الذي يُديره ويدبِّره.

وباختصار، فإنَّ الله قد منح الرجال والنساء العاديِّين امتياز المشاركة في الانعكاس العظيم الذي سيُعيد الكون إلى حالته الأصليَّة النقيَّة. إذ إنَّ جميع أسباب الخيبة بالله تلك التي ذكرتُها في هذا الكتاب، أُسوةً بجميع السرطانات، وجميع الميتات، وجميع العلاقات المنهارة، وجميع الأنّات والتنهُّدات التي يُطلقها كوكبُنا الفظُّ، جميعَ هذه النواقص سوف تُزال. وقد نشكُّ أحيانًا في حكمة الله وينفد صبرُنا حيال جدول مواعيده. (إنَّ التلاميذ، رغم كلِّ شيء، شعروا بالخيبة المرَّة لمَّا رفض المسيح حُلمَهم بملكوتٍ ماديٍّ لمصلحة ملكوتٍ روحيٍّ غير مرئيّ). غير أنَّ جميع وعود الأنبياء السخيَّة سوف تتحقَّق ذات يوم، ونحنُ- أنا وأنتم- همُ الأشخاص المنتخَبون للإسهام في حصول ذلك.

ما مِن أحد عبَّر عن الألَم والحيف اللذين يشتمل عليهما هذا العالَم بطريقةٍ أوضح وأمرَّ ممَّا فعل أيُّوب؛ ولا أحد جهر بخيبة الأمل بالله بصورة أكثر عاطفيَّة وتحسُّرًا. وعلينا بعدُ أن نُعنَى أيُّوب وردَّ الله العنيف. إلاَّ أن سِفر أيُّوب لا يبدأ بالشكاوى- وجهة النظر البشريَّة- بل بوجهة نظر الله. ففي المُقدِّمة التمهيديَّة، يُرسِّخ مشهدُ الرِّهان حقيقةً مُشرِقةً غامضة وهي أنَّ أيُّوب- وأنا وأنت- يمكن أن نشترك في الكفاح لأجل نقض كلِّ ما هو خطأٌ في الكون. فإنَّ في وسعنا أن نُحدِث فرقًا!

لا يُقدِّم سِفرُ أيُّوب أجوبةً شافية عن السؤال "لماذا...؟" إلاَّ أنَّه بدلًا من ذلك يستبدل به سؤالًا آخر: "لأيَّة غاية؟" فإنَّ أيُّوب المُحنَّك المتهكِّم الغريب الأفكار، ببقائه أمينًا نحو الله في خضمِّ بلاياه، أسهم في إبطال ألَم هذا العالم وظُلمِه اللذين سبق أنِ اعترض عليهما بمنتهى الحِدَّة والشِّدَّة. كما أنَّ مغ وُدسُن، بتشبُّثها بمحبة الله بعنادٍ وسط الظِّلال، حتَّى بعد مشاهدتها ولدَين يموتان، هي أيضًا تُسهِم في إبطال هذه المظالم.

ولكنْ لماذا التأخير؟ لماذا يَدَعُ الله الشرَّ والألم يتواجدان بمنتهى الفظاعة، بل يزدهران، على هذا الكوكب؟ لماذا يَدَعُنا نقوم ببطءٍ وتعثُّر بما يمكنه أن يقوم به بطرفةِ عين؟

إنَّه يتمهَّل لأجل خيرنا. فالخلقُ من جديد يشتمل علينا، إذ إنَّنا بالحقيقة في مركز خُطَّته. وغرضُ الرِّهان، الدافعِ القائم وراء كامل التاريخ البشريّ، هو أن يُنمِّينا نحن، لا الله. حتَّى إنَّ وجودنا بالذات يُعلِن للقوى المنتشرة في الكون أنَّ الإصلاح والاسترداد جاريان. فكلُّ فعلِ إيمان من قِبَل كلِّ واحدٍ من شعب الله أشبه بقرعة ناقوس، وإيمانٌ كإيمان أيُّوب تتردَّد أصداؤه في جميع أنحاء الكون.

إنَّ لحياتنا الحاليَّة وَقْعَ حربٍ حقيقيَّة... كما لو كان في الكون شيءٌ شاذٌّ فعلًا يستدعي افتداؤه وجودَنا نحن بكلِّ مثاليّاتنا وأماناتنا.

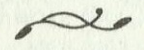
وليم جَيمس، الرغبةُ في الإيمان

أفضِّل كثيرًا أن أسير- كما أنا فاعل- في رُعبٍ يوميٍّ من الأبديَّة، على أن أشعر أنَّها ليست سوى لعبة أولاد ينال فيها جميعُ المُتبارين على السَّواء جوائز عديمة القيمة في النهاية.

تي أس إليوت

الشواهد الكتابيَّة: أيُّوب ٣٥؛ ١ كورنثوس ٤، ٦؛ رومية ٨.

حينما ترجَّيتُ الخير، جاء الشرّ؛
وانتظرتُ النور، فجاء الدُّجى.
أمعائي تغلي ولا تكفّ.
أيّوب ٣٠:٢٦و٢٧



٢٤

هلِ اللهُ ظالِمٌ؟

تَرِدُ في مُستهلّ "الطريق الأقلّ سلوكًا"، بقلم م سكُت پك، جملةٌ من كلمتين: "الحياةُ صعبة". وإذا شئنا أن نختصر سفر أيّوب بجملةٍ واحدة، فمن شأنه أن يُعبّر عن حقيقةٍ مماثلة، إذ إنّ الصرخة العالية: "الحياة جائرة!" تتردّد أصداؤها على كلّ صفحةٍ تقريبًا.

ليسَ الجَور أسهل تقبُّلًا علينا اليوم ممّا كان على أيّوب قبل آلاف السنين. وما أكثرَ الذين يُسارِعون إلى اللّعن ليس فقط في مواجهة المآسي الكبيرة، بل أيضًا حين لا يشتغل مُحرّك السيّارة، أو حين يخسر فريقٌ رياضيٌّ أثير، أو يهطل المطر وهم يتنزّهون! وينمُّ لَعنٌ كهذا عن حُكم غريزيٍّ بأنّ الحياة ينبغي أن تكون مُنصِفة وأنّ الله يجب أن "يقوم بعمل أفضل" بأيّة طريقةٍ كانت في تسييره شؤون عالَمه.

فالعالَم كما هو مُقابِلَ العالَم كما ينبغي أن يكون: حالتان بينهما صراعٌ دائم يتفجّر جهرًا في سفر أيّوب. ففي ثلاث جولات طويلة عاصفة، يتصارع أيّوب وأصدقاؤه في مباراة ملاكمة كلاميّة. وهم جميعًا مُتّفقون على قواعد المَيدان: أنّ على الله أن يُكافئ مَن يقومون بعمل الخير ويُعاقِب مَن يفعلون الشرّ.

إذًا، لماذا يُعاني أيّوب هذا المقدار الجمّ من العقاب الظاهر وهو رجلٌ صالحٌ افتراضًا؟ إنّ أصدقاء أيّوب، وهُم على ثقةٍ بعدالة الله، يُدافِعون عنِ العالَم كما هو. فهم يقولون

لأيوب ما فحواه: "حكِّم فِطرتك السليمة. إنَّ الله لن يَبتليَك بلا سبب. لا بدَّ أنَّك ارتكبت خطيئةً ما في الخفاء". ولكنَّ أيُّوب، العارفَ بلا شكٍّ أنَّه لم يفعل شيئًا حتَّى يستحقَّ عقابًا كهذا، لا يستطيع أن يُوافِقهم. ومن ثَمَّ يُدافع عن كونه بريئًا.

بيد أنَّ المُعاناة، شيئًا فشيئًا، توهِن مُعتقدات أيُّوب الأعزَّ عنده. فهو يتساءل: كيف يُعقَل أن يكون الله بجانبه؟ ها هو، رغمَ كلِّ شيء، جالسٌ في كومة رمادٍ تشهدُ لانهيار حياته. إنَّه إنسانٌ بائس يائس مُحطَّم، "خذله" الله. وهو يصرخ: "تفرَّسوا فيَّ وتعجَّبوا، وضعوا اليد على الفم!"

إنَّ أزمة إيمان تستحكم في داخله. هل الله ظالِم؟ فكرةٌ كهذه تُلقي ظِلالًا من الشكِّ على كلِّ ما يؤمن به أيُّوب، ولكنْ بأيَّة طريقة أُخرى يُفسِّر ما قد جرى؟ إنَّه يُفتِّش حواليه عن أمثلةٍ أُخرى في الجِوار، فيرى أنَّ الأشرار أحيانًا يُفلِحون فعلًا- إنَّهم لا يتلقَّون العقاب على حدِّ ما يميل إلى الاعتقاد- في حين أنَّ بعض الأتقياء يُعانون الآلام. وكثيرون غيرَه يعيشون حياةً سعيدة ومُثمِرة دون أن يُعيروا الله أدنى التفاتة. ففي نظره، لا تستقيم أمورُ الواقع إطلاقًا: "عندما أتذكَّر أرتاع، وأصاب برعدة تكاد تشلُّ جسدي".

وبالحقيقة أنَّ سبب كون سفر أيُّوب يبدو مُعاصِرًا جدًّا هو أنَّ الأُمور في نظرنا أيضًا لا تستقيم في الواقع. وتبدو رسالة أيُّوب الصارخة بشأن جَور الحياة مناسِبةً على نحوٍ خاصٍّ لقرننا الحاليّ الحافل بالعذاب. فما عليك إلَّا أن تضع بعض الأمثلة المعاصرة في خانات حُجَج أيُّوب: أطفالَ العالم الثالث "الأبرياء" لكنِ الجائعين؛ خدَّامَ الربِّ الأمناء المحبوسين في جنوب أفريقيا؛ زعماء المافيا والفنّانين الفاسدين الذين يجنون أرباحًا فاحشة من جرَّاء هُزئهم بشرائع الله، ملايينَ الأوروبيِّين الغربيِّين الذين يعيشون حياة دعة ورغد ولا يخطر الله في بالهم البتَّة. وهكذا، فإنَّ أسئلة أيُّوب بشأن جَور هذا العالم، وهي بمنأًى عن التلاشي، قد باتت فعلًا أعلى صوتًا وأكثر حدَّةً. ونحن ما نزال نتوقَّع من إلهٍ محبَّةٍ وقُدرة أن يعمل بمقتضى قوانين معيَّنة على الأرض. فلماذا لا يَفعل ذلك؟

مَساعٍ في تسويغ الجَور

عند نُقطةٍ ما، يواجه كلُّ كائن بشريٍّ الألغاز التي جعلت أيُّوب يرتعد هولًا. هل الله ظالم؟

بدا أحد الخِيارات بديهيًّا في نظر زوجة أيُّوب، إذ نصحتْه قائلةً: "باركِ الله ومُت!" محرِّضةً إيَّاه على لَعْن الله. لماذا تتشبَّث بإيمانٍ عاطفيٍّ بإله مُحبّ فيما يتآمر عليك الكثيرُ الكثيرُ من أحوال الحياة؟ وفي هذا الزمن الأيُّوبيّ، وافقَ زوجةَ أيُّوب عددٌ من الناس أكبر بكثير جدًّا من ذي قبل. فبعض الكَتَبة المعروفين، أمثال جرزي كوزنسكي وعالي فايزل، كان لهم في البداية إيمانٌ قويٌّ بالله، ولكنَّهم شاهدوه يتبخَّر في أفران الغاز التي استُعمِلت في ما عُرف بالمَحرقة. فإذ شهد هذان أقبح المظالم، استنتجا أنَّ الله لا بدَّ أن يكون غير موجود. (ما تزال الغريزة البشريَّة تؤكِّد ذاتها، إذ لا يقوى كوزنسكي وفايزل على تجنُّب لهجة ساخطة، وكأنَّهما هما أيضًا شعرا بأنَّهما مخذولان. وهما يُغفِلان المسألة الأساسيَّة المتعلِّقة بمصدر مفهومنا الأوَّليّ للعدالة. فلماذا ينبغي لنا حتَّى توقُّعُ أن يكون العالَم مُنصِفًا؟)

إلَّا أنَّ آخرين، وهُم يَعُون جَور العالَم على السواء، لا يستطيعون أن يحملوا أنفسهم على إنكار وجود الله. ولكنَّهم بدل ذلك يفترضون احتمالًا آخر: لعلَّ الله يوافِق أنَّ الحياة جائرة، ولكنَّه لا يقدر أن يفعل شيئًا حيال ذلك. وقد سلك هذا المسلكَ الحاخامُ هارلد كوشنر في كتابه الرّائج "حين تحدث الأُمور السيِّئة للأشخاص الصالحين". فبعدما شهد موت ابنه بمرضٍ عُضال، خلص إلى القول: "هو إلهُ عدل، لا قدرة".

وحسْبما يقول الحاخام كوشنر، فإنَّ الله مُخيَّب، بل حانقٌ أيضًا، من جرّاء الجَور المُتفشّي في هذا الكوكب، شأنه شأن أيِّ شخصٍ آخر، ولكنَّه يفتقر إلى القدرة على تغيير الواقع. وقد وجد ملايينُ القُرّاء عزاءً في تصوير كوشنر لإلهٍ يبدو مُتعاطفًا، وإن يكُن ضعيفًا. غير أنَّني أُسائل نفسي عمَّا يعمله هؤلاء القوم بآخِر خمسة أصحاحات من سفر أيُّوب، وهي تحتوي على "دفاع الله عن نفسه". فليس من موضع آخر في الكتاب المقدَّس يُعبِّر عن قدرة الله بهذه الصورة الباهرة. وإن كان الله أقلَّ من كلِّيِّ القدرة،

فلماذا اختار أسوأ وضع ممكن، حين تعرَّضت قدرتُه لسهام الشكّ أكثرَ تعرُّض، كي يُصِرَّ على كونه قادرًا على كلّ شيء؟ (قال إيلي فايزل عن الإله الذي يصفه كوشنر: "إن كان ذلك هو الله، فلماذا لا يستقيل ويدع شخصًا أكثر كفاءة يحلُّ محلَّه؟")

وتتجنَّب فئةٌ ثالثة من الناس مشكلة الجَور بالنظر إلى المستقبل، حين تَنوجِد في الكون عدالةٌ صارمة. هؤلاء يقولون إنّ الجَور حالةٌ وقتيّة. وعقيدة الكارْما الهندوسيّة، إذ تُطبِّق حسابًا دقيقًا على مُعتقَدها هذا، ترى أنَّ النفس قد تحتاج إلى ٦,٨٠٠,٠٠٠ تقمُّص لإدراك تلك العدالة الكاملة. فعند انتهاء هذه التقمُّصات كلّها يكون الشخص قد اختبر تمامًا مقدار الألم أو اللذّة الذي يستحقُّه، رجلًا كان أم امرأة.

هذا، وتتمثّل مُقاربَةٌ رابعة في نكران المشكلة بصراحة، مُصِرّة على أنَّ العالَم مُنصِف. فإذ يُردِّد هؤلاء أصداءَ أقوالِ أصحاب أيُّوب، يُصِرُّون على أنَّ العالَم لا يسير بمقتضى قوانين منتظمة ثابتة: إذ إنَّ الصالحين سيُفلِحون والأردياء سيُخفِقون. وقد لَقِيتُ وجهة النظر هذه في كنيسة الشفاء الإيمانيّ في إنديانا، كما أسمعها فعلًا كلَّما شاهدتُ القنوات التلفزيونيّة الدينيّة، حيث يَعِد مُبشِّرٌ ما بالصحّة الموفورة والحالة المادّيّة الميسورة كلَّ من يطلبهما بإيمانٍ حقيقيّ.

إنّ لهذه الوعود السخيّة جاذبيّةً بديهيّة، ولكنّها تُخفِق في الارتقاء إلى مستوى الوقائع الملموسة كلّها. فالأطفال الذين يلتقطون السِّيدا (الإيدز) وهُم في أرحام أُمَّهاتهم، أو القدِّيسون المُضطهدَون المُتفقَّدون في كتاب الشُّهداء الذي كتبه فُوكس... كيف يستقيم وضعُهم في خانة عدل الحياة؟* أمَا كان في وسعي أن أقول لمغ وُدسُن

* حكى واحدٌ من الكتب "غير القانونيّة" المُتداوَلة بين المسيحيّين الأوّلين قصّةَ امرأةٍ اسمُها ثيلكا اهتدت إلى الإيمان على يد الرسول بولس. فقد ردَّ إيمانها جميع الهجمات على ما بدا: إذ رفضت الوحوش افتراسها وكُفَّ الرجال فجأةً عن اغتصابها. ولمّا حاول مُعذِّبوها أن يُحرِقوها مربوطةً بسارية، ظهرت فوق رأسها سحابةٌ مُطرة أطفأت ألسنة اللّهب. وقد تمّ تداوُل ذلك الكتاب على نطاق واسع، ولكنّ على المرء أن يقرأ كتبًا أُخرى في تاريخ الكنيسة، مثل كتاب فوكس عن الشهداء، كي يرى لأيِّ سببٍ نُبِذ الكتاب القديم باعتباره غير قانونيّ.

شيئًا سوى: "العالَم عادل. ولذلك، فإن صلّيتِ بقوّة كافية وجِدٍّ ثابت، فإنَّ ابنتكِ لن تموت!" إنّما لم يكُن في وسعي أن أقول ذلك، كما لا يَسَعني أن أقول لها الآن: "لقد أخذ الله يغي بسبب أمرٍ أخطأتِ أنتِ فيه." وكِلتا وِجهَتي النظر هاتين مُمثَّلتان في سفر أيّوب؛ ويُسقِط الله كلتيهما في نهاية المطاف.

إنَّ الاحتجاج بكون الحياة مُنصِفةً كلّيًّا تُعوزه قفزةُ إيمانٍ أُولمبيّة. وما أغلب ما يستجيب المؤمنون بالمسيح لجَور الحياة لا بإنكاره جُملةً وتفصيلًا بل بتخفيفه أو تلطيفه! إنّهم، على غرار أصحاب أيّوب، يتلمّسون سببًا خفيًّا خلف المُعاناة:

"إنَّ الربَّ يُحاوِل أن يُعلِّمك درسًا ما. فينبغي أن تشعر بأنّك ذو امتياز، لا أن تشعر بالمرارة، بإتاحة الفُرصة لك كي تتوكّل عليه بإيمان".

"تأمَّلِ البركات التي ما زلتَ تتمتّع بها... أنتَ حيٌّ على الأقلّ. أأنت مؤمن مُخلِص في أيّام الرَّخاء فقط؟"

"أنت تجتاز فترة تدريب، فُرصةً لتمرين عضلات إيمانك الجديدة. فلا تقلق... إنّ الله لن يُجرِّبك فوق طاقة احتمالك".

"لا تتشكَّ بهذه النبرة العالية! ستفوتُك هذه الفُرصة لإظهار أمانتك أمام غير المؤمنين".

"هنالك دائمًا مَن هو أسوأُ حالًا منك. فاشكُرِ الله رُغمَ ظروفك".

وقد قدّم أصدقاء أيّوب شكلًا من أشكالِ كُلٍّ من هذه الأقوال الحِكَميّة، وفي كُلٍّ منها عنصرُ حقّ. إلّا أنّ سفر الأمثال يُبيِّن بجلاء أنَّ مثل هذه "النصائح المفيدة" لا تُسهِم بشيءٍ في الإجابة عن أسئلة المرء الذي يُعاني الألم. فهي دواءٌ غير نافع، يُقدَّم في وقتٍ غير مؤاتٍ.

تبقى أخيرًا طريقة واحدة بعدُ لتسويغ ظُلم الحياة. فبعد سماع أيّوب جميع البدائل، دُفع إلى الاستنتاج الذي اقترحتْه خُلاصةً للسِّفر كلّه في جملة واحدة: الحياة جائرة! وقد خطرَت لأيّوب كردّة فعلٍ ارتكاسيّة أكثر منها كفلسفةٍ حياتيّة، وتندُّ هذه

الصورة أيَّ شخص يعاني ويتألَّم: "لماذا أنا؟ ما الذي فعلتُه؟"

أيُّوبٌ معاصِر

بينما كنتُ عاكفًا على تأليف هذا الكتاب، عُنيتُ عنايةً خاصَّة بأن ألتقيَ دوريًّا أشخاصًا يشعرون بأنَّ الله خذلهم. فقد أردتُ أن أُبقيَ نُصبَ عينيَّ تعبيراتِ الوجه الفعليَّة النامَّة عن الخيبة والرِّيبة. حتَّى إذا حان وقت الكتابة عن سفر أيُّوب، عقدتُ العزم على مقابلة الشخص الذي تبيَّن لي أن حياته تُماثِل حياة أيُّوب إلى أقصى حدّ، وهو رجلٌ سأُسمِّيه دوغلاس.

يبدو دوغلاس في نظري "بارًّا" على غرار أيُّوب. ليس هو كاملًا بالطَّبع، ولكنَّه مثالٌ في الأمانة. فبعد سنينَ من التدرُّب في مجال العلاج النفسيّ، تخلَّى عن مهنةٍ مُربحة في سبيل مباشرةِ خدمةٍ في أحياء المدينة. وبدأت متاعب دوغلاس قبل بضع سنين حين اكتشفت زوجتُه ورمًا في صدرها، فاستأصل الأطبَّاء الصَّدر، ولكنْ بعد سنتين تبيَّن أنَّ السرطان انتشر إلى رئتيها. إذ ذاك تولَّى دوغلاس كثيرًا من الشؤون المنزليَّة والواجبات الوالديَّة فيما كافحت زوجتُه آثار العلاج الكيماويِّ المُوهِنة. وكانت أحيانًا لا تقوى على إبقاء أيِّ طعام في معدتها، كما فقدت شعرها. ولازمها كلَّ حين شعورٌ بالإرهاق والتعرُّض للخوف والاكتئاب.

وذات ليلة، في خضمِّ هذه المحنة، بينما كان دوغلاس يسوق سيَّارته بصحبة زوجته وابنته ذات الاثنتي عشرة سنة في أحد شوارع المدينة، انحرف سائق سكران عبر الخطِّ الفاصل واصطدم بهم مُواجَهةً. وقد تضعضعت زوجة دوغلاس وترضَّضت، إلاَّ أنَّها لم تتأذَّ كثيرًا. وكُسِرت ذراع ابنته كما أُصيب وجهها بجروح بليغة من زجاج حاجب الرِّيح. وتلقَّى دوغلاس نفسُه الإصابة الأسوأ ضربةً هائلةً على رأسه.

في أعقاب الحادث، لم يعُد دوغلاس يعرف متى تنتابُه نوبةُ وجع رأس. فما عاد يستطيع أن يشتغل نهارًا كاملًا، وبات يفقد اتِّزانه ويعتريه النسيان أحيانًا. والأسوأُ

أنَّ الحادث أضرَّ بنظره بصورة دائمة. فصارت إحدى عينيه تشرد ساعة تشاء، رافضةً التكيُّف. وابتُلي بازدواج البصر ولم يكن قادرًا على نزول أدراجٍ قليلة بلا مساعدة. وقد تدرَّب دوغلاس على جميع إعاقاته ما عدا واحدة: عدم القدرة على قراءة أكثر من صفحة واحدة كلَّ مرَّة. وكان مشغوفًا بالكتب طوال حياته. فبات مُقيَّدًا الآن بالخيارات المحدودة والوقْع البطيء وفقًا لِما تُتيحُه الكتب المسجَّلة على أشرِطة.

لمَّا اتصَّلتُ بدوغلاس لترتيب لقاء، اقترح أن نلتقي على فَطُور. وإذ حان الموعد المضروب، استجمعتُ قواي لمواجهة صباح صعب. وكان قد سبق لي حتَّى ذلك الحين أن قابلتُ اثنَي عشر شخصًا واستمعتُ إلى سلسلة كاملة من خيباتِ الأمل بالله. فإذا كان يحقُّ لأحدٍ أن يغضب على الله، فإنَّ لدوغلاس أحرى حقًّا. إذ إنَّ زوجته، في ذلك الأسبوع بالذات، كانت قد تلقَّت خبرًا مُحبِطًا من المستشفى: لقد ظهرت بُقعةٌ أُخرى على رئتها.

فيما كان فطورُنا يُعَدّ، تطرَّقنا إلى تفاصيل حياتنا. وقد تناول دوغلاس الطعام بتركيز وعناية لافتَين. فلئن صحَّحت نظَّارةٌ صفيقة بعضًا من مشاكل بصره، فقد كان مُضطرًّا إلى بذل كثيرٍ من الجهد للتركيز على توجيه شوكته إلى فمه فحسب. وأرغمتُ نفسي على النظر إليه مباشرةً وهو يتكلَّم، مُحاولًا أن أتجاهل شرود عينه التائهة. أخيرًا، لمَّا فرغنا من تناول الفطور وأومأنا إلى النادلة لإحضار مزيدٍ من القهوة، وصفتُ كتابي عن خيبة الأمل بالله، وسألتُه: "هل لك أن تُخبِرني عن خيبتك الشخصيَّة؟ ماذا تعلَّمتَ من أمرٍ قد يُفيد شخصًا آخر يجتاز في محنةٍ قاسية؟"

صمت دوغلاس هُنيهةً بدت مدَّةً طويلة. ثُمَّ مسَّد لحيته الشائبة الشهباء وحملق إلى البعيد من فوق كتفي اليمنى. وفي الحال ساءلتُ نفسي عن احتمال اجتيازه "فجوة" عقليَّة. إلاَّ أنَّه قال أخيرًا: "أصدقك القول، يا فيليب، إنَّني لم أشعر بأيَّة خيبة أمل بالله!"

أذهلني ذلك. فإنَّ دوغلاس، وهو صادقٌ بلا رياء، ما انفكَّ يرفض الصِّيغ السهلة

من قَبيل شهادات التلفزيون الدينيّ التي شعارُها: “حوِّل ما لديك من مصائب إلى كواكب!” وانتظرته كي يشرح ما يرمي إليه.

“إليك السبب. لقد تعلّمتُ من خلال مرض زوجتي، ثمّ من خلال الحادث خصوصًا، ألاّ أخلط بين الله والحياة. لستُ رواقيًّا. فأنا مستاءٌ ممّا جرى لي، كما يمكن أن يكون كذلك أيُّ شخص آخر. وأنا أشعر بملء الحرّيّة لأنعى على الحياة جَورها وأصبَّ كامل جام حُزني وغضبي. ولكنّي أعتقد أنّ الله يشعر الشعورَ عينَه حيال الحادث... فهو حزين وغاضب. فلستُ ألومُه على ما جرى”.

ومضى دوغلاس يقول: “تعلّمتُ أن أتخطّى بنظري الحقيقةَ المادّيّة في هذا العالَم إلى الحقيقة الروحيّة. فنحن نميل لأن نُفكّر هكذا: “ينبغي أن تكون الحياة مُنصِفة لأنّ الله مُنصِف”. ولكنّ الله ليس هو الحياة. وإذا خلطتُ بين الله وواقع الحياة الطبيعيّ- بتوقُّع الصحّة الجيّدة دائمًا مثلاً- فعندئذٍ أُهيّئ نفسي لخيبةٍ تُحطّم النَّفس.

“فإنّ وجود الله، بل محبّته لي أيضًا، لا يتوقّفان على صحّتي الجيّدة. وبصراحة، أُتيح لي وقتٌ وفرصة لتمكين علاقتي بالله في أثناء بليّتي المُوهِنة أكثر ممّا أُتيح لي سابقًا”.*

لقد كان في ذلك المشهد سُخرية مرّة. فعلى مدى أشهُر، كنتُ مستغرقًا في إخفاقات الإيمان، إذ نقّبتُ عن قصص أشخاصٍ خابت آمالُهم بالله، واخترتُ دوغلاس ليكون أيُّوبًا المُعاصِرَ عندي، وتوقّعتُ منه عاصفة احتجاجٍ مرّة. فقد كان آخِر شيء توقّعتُه أن أتلقّى محاضرة جامعيّة في الإيمان.

قال دوغلاس: “إذا وطّدنا علاقةً بمعزل عن ظروف الحياة، فعندئذٍ يمكننا أن نستمرّ بقوّة حين تتصدّع الحقيقة الطبيعيّة. إذ نستطيع أن نتعلّم الوثوق بالله رُغم كلّ ما في الحياة من جَور. أليس ذلك بيتَ القصيد في أيّوب حقًّا؟”

* ذكّرني جواب دوغلاس بعبارة قالها الدكتور پول براند. فعن السؤال “أين الله عندما أتألّم؟” أجاب إنّه فيك، أنتَ الذي تتألّم؛ وليس فيه، في الشيءِ الذي يؤلمك”.

ولئن أقلقني فصل دوغلاس الصارم بين “الحقيقة الطبيعيّة” و“الحقيقة الروحيّة”، فقد وجدت فكرته آسِرة. ثمّ قضينا الساعة التالية مُتصفّحَين الكتاب المقدّس معًا ومُتفحّصَين أفكاره. ففي بريّة سيناء، لم يكُن لضمانات الله توفيرَ النجاح المادّيّ- من صحّة وازدهار ونصر عسكريّ- أيُّ دورٍ إيجابيٍّ في تحسين الأداء الروحيّ عند بني إسرائيل.

ومعظم أبطال العهد القديم (إبراهيم، يوسف، داود، إيليّا، إرميا، دانيال) اجتازوا مِحنة أيّوب إلى حدٍّ بعيد. فلكلٍّ منهم، بعضَ الأحيان، بدا أنّ الحقيقة الطبيعيّة قدّمت الله كما لو كان العدوّ. ولكنّ كلاًّ منهم استطاع أن يتشبّث بالاتّكال على الله رغمَ الصِّعاب. وبفعلهم ذلك، انتقل إيمانُهم من مجرّد “إيمان تعاقُديّ”- سأتبع الله إذا أحسن معاملتي- إلى علاقةٍ وطيدة قادرة على تخطّي أيّة صعوبة.

ثمّ نظر دوغلاس إلى ساعته فجأةً، فتبيّن له أنّه تأخّر فعلاً عن موعد آخر. فارتدى سترته على عجل ووقف كي يُغادر، ثمّ انحنى إلى الأمام ليُبلّغني فكرةً أخيرة: “أرجو منك أن تعود إلى المنزل وتقرأ مرّةً أُخرى سيرة المسيح. هل كانتِ الحياة “مُنصِفة” له؟فبالنسبة إليّ فإنّ الصليب قد لاشى إلى الأبد الافتراضَ المبدئيّ بأنّ الحياة ستكون مُنصِفة”.

كُنّا، أنا ودوغلاس، قد بدأنا نتباحث في أيّوب، فانتهينا إلى الحديث عن المسيح، ولازمني هذا النموذج: في العهد القديم عانى أحدُ محبوبي الله ظُلمًا رهيبًا، وفي العهد الجديد عانى ابن الله الحبيبُ مُعاناةً أرهب.

ولمّا عدتُ إلى المنزل، عملتُ بنصيحة دوغلاس وراجعتُ الأناجيل من جديد، سائلاً نفسي كيف كان من شأن المسيح أن يُجيب عن السؤال المباشر: “هل الحياة جائرة؟” فلم أجده في أيّ موضع يُنكِر الجور. فإذ قابل المسيح مريضًا، فإنّه لم يُلقِ عليه قطّ محاضرةً عن “قبول المرء نصيبَه في الحياة”؛ وشفى كلَّ مَن تقدّم إليه. ثمّ إنّ كلامه اللاذع عن الأغنياء والمُتنفّذين في زمانه يُبيِّن بجلاء حقيقة رأيه في المظالم

الاجتماعيَّة. وقد كانت ردَّة فعل ابن الله حيال لاإنصاف الحياة تُشبه كثيرًا ردَّة فعل أيِّ إنسان آخر. فإذا قابل شخصًا يُعاني الألم، تحرَّك عطفًا وحنانًا في أعماقه. ولمَّا مات صديقه لِعازر، بكى. وعندما واجه هو نفسُه معاناته الرهيبة، انقبض حيالها، سائلًا ثلاث مرّات عن وجود سبيلٍ آخر.

لقدِ استجاب اللهُ لمسألة اللاإنصاف لا بالكلام، بل بزيارة تفقُّد، استجاب لها بالتجسُّد. ويوفِّر الربُّ يسوع برهانًا من لحم ودم على كيفيَّة شعور الله بشأنِ الجور، لأنه اتَّخذ "مُقوِّمات" الحياة، أي الحقيقةَ الطبيعيَّة على أقسى ما تكون عليه من الجَور. وقد قدَّم، في خلاصةٍ مُبينة، جوابًا نهائيًا عن جميع الأسئلة المُتمادية عن صلاح الله. (خطر في بالي وأنا أقرأ الأناجيل أنّه لو قضينا كلُّنا نحنُ أعضاءَ جسد المسيح حياتنا مُقتدين به- في خدمة المرضى وإطعام الجياع ومقاومة قوّات الشرّ وتعزية النائحين وإذاعة بشارة المحبَّة والغفران- لربَّما لم يكن السؤال "هل الله ظالم؟" لِيُطرَح اليوم بمثل إلحاحه الحاليّ).

اللاإنصاف الأكبر

هلِ الله ظالِم؟ يتوقَّف الجواب على مدى القُرب الذي نُماثِل به بين الله والحياة. فيقينًا أنَّ الحياة على الأرض مُجحِفة. وقد كان دوغلاس على حقٍّ في قوله إنَّ الصليب قد حسم المسألة إلى الأبد.

يحكي الكاتب هنري نُوين قصة عائلةٍ يعرفُها في پاراغواي. فإنَّ الأب، وهو طبيب، تكلَّم علنًا على النظام العسكريّ هناك وانتهاكه لحقوق الإنسان. فانتقمت الشُّرطة المحلِّيَّة منه باعتقال ابنه المراهق وتعذيبه حتَّى الموت. وأراد أهل البلدة الساخطون تحويل جنازة الفتى إلى مسيرة احتجاج ضخمة، إلاَّ أنَّ الطبيب اختار وسيلة احتجاج أُخرى. فعندَ الجنازة، عرض الأبُ جُثمانَ ابنه مثلما وجده في السجن: عاريًا وعليه ندوب الصدمات الكهربائيَّة وحروق السجائر وآثار الضرب. ومرَّ جميع القرويِّين أرتالًا قربَ الجثمان، وهو لم يُسَجَّ في نعش بل على فراش السِّجن المُضرَّج بالدِّماء. فكان

ذلك أقوى احتجاجٍ يمكن تصوُّره، لأنَّه أبرز اللاعدالة في صورةٍ استعراضيَّة نافرة.

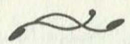
أليس ذلك هو ما فعله الله في الجلجثة؟ "الله هو الذي ينبغي أن يتألَّم، لا أنت ولا أنا، "هكذا يقول الحاقدون على الله من أجل جَور الحياة. وأقول بكلِّ وقارٍ إنِّي أسمع بعضًا يقولون بكلِّ قحة: "ليكُنِ الله ملعونًا!" فهؤلاء يُعبِّرون من حيث لا يدرون عن حقيقةٍ جليلة. ففي ذلك اليوم، تلقَّى الله اللعنة فعلًا. ذلك أنَّ الصليب الذي حمل جسد يسوع مجرَّدًا ومُغشًّى بالندوب فضح كلَّ ما في هذا العالم من عُنفٍ وحيف وإجحاف. وقد أظهر الصليب دفعةً واحدة أيَّ عالَمٍ عندنا وأيَّ إلهٍ لدينا: عالَمُ ظُلمٍ هائل، وإله محبَّة مُضحِّية.

لا أحد مُعفًى من المآسي أو الخيبات... حتّى الله نفسُه لم يكُن مُعفًى منها. والمسيح لم يعرض أيَّة مناعة أو حصانة، إذ لم يُقدِّم أيَّ سبيل للالتفاف حول اللاإنصاف، بل يسَّر بالحريِّ سبيلَ الاجتياز عبره إلى الضفَّة الأُخرى. فكما أنَّ يومَ جُمعة الآلام دحض الاعتقاد الغريزيّ بأنَّ هذه الحياة يُفترَض أن تكون مُنصِفة، وافى في أعقابه أحدُ القيامة بمفتاحه المُذهِل لِلُغز الكون. فمن قلب الظلام، أشرق نورٌ ساطع.

إنَّ التوق الأوَّليّ إلى العدل والإنصاف لا يتلاشى إلاَّ بعد نضالٍ مرير، ولا بدَّ له من ذلك. فمَن مِنَّا لا يتوق أحيانًا إلى مزيدٍ من العدالة في هذا العالَم الآن وهُنا؟ إنَّني أُقِرُّ بأنّي في السرّ أتوق إلى عالَم "معصوم من العيوب" مُحصَّن حيال الخيبة، عالَمٍ تَلقى فيه مقالاتي الصحافيَّة القبول دائمًا ولا يهرم ويضعف جسدي، عالَمٍ لا تلد فيه زوجة أخي طفلًا معطوب الدماغ، وتعيش پِغي وُدسُن حياةً طويلة. ولكنْ إذا رهنتُ إيماني بأرضٍ كهذه معصومةٍ من العيوب، فلا بدَّ أن يخذلني إيماني. حتَّى عُظمى المعجزات لا تحلُّ مشكلات هذه الأرض: فجميع الذين ينالون الشفاء البدنيَّ يموتون في آخر المطاف.

إنَّنا نحتاج إلى ما يتعدَّى المعجزات. نحتاج إلى سماءٍ جديدة وأرضٍ جديدة؛ وإلى أن نحوز هاتين، لن يتلاشى اللاإنصاف.

فيما كان أحد أصدقائي يُجاهِد كي يؤمن بإلَهٍ مُحِبٍّ في خضمٍّ كثيرٍ من الألم والأسى، تفوَّه فجأةً بهذه العبارة: "عُذر الله الوحيد هو القيامة!" ولئن كانت اللغة غيرَ لاهوتيَّةٍ وفظَّةً، ففي تلك العبارة يكمن حقٌّ ثابت. ذلك أنَّ صليب المسيح، رغمَ هزيمته للشرِّ، لم يهزم الجَور. لأجل ذلك، تدعو الحاجةُ إلى القيامة. وذاتَ يوم، سوف يُعيد الله الحقيقة الطبيعيَّة كلَّها إلى مكانتها الصحيحة تحت حُكمِه. فإلى ذلك الحين، يحسن بنا أن نتذكَّر أنَّنا نعيش أيَّامنا في السَّبت السابق لأحدِ القيامة.



أنْ نُوصى بأن نحبَّ الله أصلًا، ناهيك بأن نحبَّه ونحن في البرِّيَّة، أمرٌ يُشبه أن نوصى بأن نكون بخير ونحن مَرضى، ونُرنِّمَ فرحًا ونحن نموت عطشًا، ونركضَ وأرجلُنا مكسورة. ولكنْ هذه هي الوصيَّة الأوْلى والعُظمى على كلِّ حال. فحتَّى في البرِّيَّة- بل خصوصًا في البريَّة- عليك أن تحبَّه.

فردريك بوخنر

الشاهدان الكتابيَّان: أيُّوب ٢١، ٢.

قد نطقتُ بما لم أفهم،

بعجائب فوقي لم أعرفها.

أيُّوب ٤٢:٣

٤٥

لماذا يُحجِمُ اللهُ عنِ التفسيرِ

قبلَ أواخرِ سفر أيُّوب، يُلقي أليهو الشابُّ المُندفع خطابًا لاذعًا يتهكَّم فيه تلهُّف أيُّوب إلى زيارةٍ يفتقده الله بها. "أتعتقد أنَّ الله يهمُّه أمر مخلوقٍ ضئيل مثلك؟ هل يُخيَّل إليك أنَّ الله القدير، مُبدع الكون، ينوي أن يزور الأرض ويُقابلك شخصيًّا؟ ألعلَّه يدين لك بتفسير ما؟ عليك بالجدِّ، يا أيُّوب!"

وإذ يسترسل أليهو في خطابه المُمِلّ، تلوح في الأُفق سحابةٌ ضئيلة، فُوقَ كتفه تمامًا. وبينما تقترب السحابة، مُتلبِّدةً في عاصفةٍ عاتية، إذا بصوتٍ لا يُشبهه أيُّ صوتٍ آخر يعلو مدوِّيًا. وفي الحال تنتهي خُطبة أليهو المُحكَمَة، وتأخذ الرِّعدة في أيُّوب. ها قد ظهر الله نفسُه في المشهد! وقد جاء كي يُجيب شخصيًّا عنِ اتِّهامات أيُّوب بالجَور والإجحاف.

إذا كان أيُّوب يُمثِّل الملفَّ الرئيسيَّ في الكتاب المقدَّس عن خيبة الأمل بالله، فلا بدَّ لهذا الخطاب الدراماتيكيّ من وسط العاصفة أن يمدَّنا بتبصُّرات هامَّة في جميع حالات الارتباك والشكِّ الأُخرى. فماذا إذًا يقول الله في دفاعه الخاصّ؟

في وسعي أن أُفكِّر ببضعة أُمور مفيدة كان يمكن أن يقولها الله: "يا أيُّوب، أنا آسفٌ حقًّا لِما جرى. لقدِ احتملت كثيرًا من التجارب الجائرة لأجلي، وأنا فخورٌ بك. إنَّك لا تعلم ما يعنيه هذا لي، بل للكون أجمع". فإنَّ إطراءاتٍ قليلة، أو جرعةً من

الحنان، أو على الأقلّ تفسيرًا وجيزًا لِما جرى في العالم غير المنظور "وراء الستارة" - أيًا من هذه كان من شأنه أن يؤتيَ أيُّوبَ بعض العزاء.

إنّما لا يقول الله شيئًا من هذا القبيل. فإنّ "جوابه" بالحقيقة يتكوّن من أسئلة أكثر ممّا يتكوّن من أجوبة. إذ يتجنّب ما يُساوي خمسة وثلاثين أصحاحًا من النقاش في مشكلة الألم، ويغوص بدلًا من ذلك في جولةٍ لفظيّة رائعة على العالَم الطبيعيّ. ويبدو أنّه يأخذ بيد أيُّوب عبر معرضٍ خاصٍّ لأعماله الأثيرة، جائلًا بفخر على صُوَر ماعز الجبل، والحُمُر الوحشيّة، والنَّعام، والنسور، متكلّمًا كما لو كان مُعجَبًا حتّى الذُّهول بالمخلوقات التي أبدعها. وروعة الشّعر في أواخر أيُّوب لا يُضاهيها شيءٌ من الأدب العالميّ. ولكنْ حتّى فيما تأسرني الدهشة إزاء تصوير الله الخلّاب للعالم الطبيعيّ، يتسرّب إليّ شيءٌ من الشعور بالحيرة. فمن بين اللحظات كلّها، لماذا اختار الله هذه اللحظة ليُلقّن أيُّوب درسًا في تثمين الحياة البرّيّة؟ أهذه الكلمات وثيقةُ الصِّلة بالموضوع؟

يُلخّص فردريك بوخنر، في كتابه "التفكيرُ الرغبيّ" خطاب الله. "إنّ الله لا يُفسّر، بل يُسفّه. فهو يسأل أيُّوب مَن يظنُّ نفسَه على كلّ حال. وهو يقول إنّ محاولة تفسير نوع الأُمور التي يريد أيُّوب أن تُفسَّر له لهي أشبه بشرح نظريّة أينشتَين لبطلينوس قصير العُنق (نوع من السمك الصدفي). إنّ الله لا يكشف تصميمه الجليل، بل يُعلِن ذاته إعلانًا". والرسالة الكامنة وراء الشّعر الرائع تُختصَر بما يلي: قبل أن تعرفَ قليلًا بعدُ عن تسيير شؤون العالم الطبيعيّ، يا أيُّوب، لا تقُل لي كيف أُسيِّر العالَم المعنويّ!

ما فتئ أيُّوب يقول مُنتحِبًا في ما تقدَّم من سِفره: "اللهمَّ، لماذا تُعامِلني بغير إنصافٍ هكذا؟ ضع نفسك في مكاني!"

فإذا بالله يرعد مجيبًا: "كلاّ! بل ضع أنت نفسك مكاني أنا! فإلى أن تتمكّن من إعطاء دروسٍ في كيفيّة جعل الشمس تشرق كلَّ يوم، أو تحديد أمكنةِ نثر صواعق البرق، أو كيفيّة تصميم جاموسِ البحر، لا تحكم على كيفيّة إدارة العالم. ما عليك سوى أن تكمَّ فاكَ وتُصغي!"

ثمَّ إنّ تأثير خطاب الله في أيُّوب يكاد يكون مُذهِلًا كالخطاب عينه. فمع أنّ الله لم يُجِب قطُّ عن السؤال الأوّل بشأن بليّة أيُّوب، فإنّ نفخة الريح من العاصفة تجعل أيُّوب ينبطح. وإذا به يتوبُ في التراب والرماد، ويتلاشى كلُّ أثرٍ من آثار خيبته بالله.

ما لا نستطيع أن نعرفه

إنّما نحنُ الباقين الذين ربّما لن نسمع أبدًا صوتًا يتكلّم من وسط العاصفة علينا أن نحاول تصوُّر ما قاله الله لأيُّوب حقًّا. فبكلّ صراحة، يُثير لديَّ جوابُ الله التملُّصيُّ مشكلاتٍ بقدر التي يحلُّها. إذ لا يسعني تشييع الأسئلة التي تتصدَّرها "لماذا؟" بمنتهى البساطة. فإنّها تطلع كلّما تحدّثْتُ إلى شخص مثل مغ وَدسُن، وكلّما بدأتْ حياتي تتفكّك.

إنّ رفض الله الإجابة عن أسئلة أيُّوب لا تستسيغُه العقولُ الحديثة. فنحن لا يروقُنا- أنا لا يروقُني- أن يُقال إنّ أمرًا ما خارجَ نطاق إدراكنا. ألعلَّ الله سيَّج دائرةَ معرفة، تسمّى موسوعةَ الجهل اللاهوتيّ، لن يتمكّن أيّ كائن بشريٍّ من فهمها على الإطلاق؟

ومهما قاومتُ، فلا بدَّ أن يدفعني سفرُ أيُّوب إلى استنتاج كهذا. لماذا الحياة جائرةٌ هكذا؟ متى يُسبِّب الله المُعاناة ومتى يسمح بها... وما الفرق؟ لماذا يبدو الله بعضَ الأحيان صامتًا، وبعضَ الأحيان قريبًا وحميمًا؟ لَمّا أُتيحت لله الفرصة الفريدة لحسم هذه المسائل نهائيًا، عبس وهزَّ رأسه. ولماذا يُكلِّف نفسه عناء التفسير؟ أُمورٌ لم يستطع أيُّوب، ولن يستطيع أيُّ كائن بشريٍّ آخر، أن يفهمها حقَّ الفهم؟

ليس في وسعي تقديم أجوبة عن أسئلة أيُّوب المحدَّدة، لأنّ الله لم يُقدِّم أيَّ جوابٍ عنها. إنّما يسعُني فقط أن أسأل لماذا لا يُعطي الله أجوبة، ولماذا ينبغي أن تكون موسوعة الجهل اللاهوتيّ موجودة؟ ولأنّني أدخل دائرةً بقي الكتاب المقدّس صامتًا بشأنها، فإنّ ما يلي هو مجرَّد حزر وتخمين. وأنا إنّما أُضمِّن هذا لأجل الأشخاص الذين لا يُرضيهم أبدًا اللاجواب، لأجل أُولئك الذين لا يستطيعون الكفَّ عن طرح أسئلةٍ أبى حتّى الله أن يُجيب عنها.

١- رُبَّما يُبقينا الله جاهلين لأنَّ التنوير قد يُعيقنا بدل أن يُعينَنا.

تُقِضُ الأسئلةُ المُعذِّبة نفسُها كلَّ شخصٍ متألِّم تقريبًا: لماذا؟ لماذا أنا؟ ماذا يحاول الله أن يقول لي؟ ولكنَّ الله في سفر أيُّوب يُشيح وجهه عن هذه الأسئلة عن السبب، ويُركِّز بالحريِّ على استجابة إيماننا. إنَّما فكِّر في ما قد يحدث إذا أجاب الله عن أسئلتنا بصراحة. فنحن نفترض أنَّ من شأننا أن نتحمَّل المعاناة بصورةٍ أفضل إن نحنُ عرفنا السبب الكامن وراءها فحسب. ولكنْ هل تكونُ حالُنا على هذا المنوال فعلًا؟

أجد مُشابَهات لافتة في سفرَين من الكتاب المقدَّس: أيُّوب والمراثي. فإنَّ أيُّوب حدَّق غيرَ مُصدِّق إلى خرائب بيته وأملاكه؛ وكاتب المراثي حدَّق غيرَ مُصدِّقٍ إلى خرائب مدينته أُورشليم. وكِلا السفرين يعبِّران عن السخط والمرارة وخيبة الأمل الشديدة بالله. وفي الواقع أنَّ آياتٍ كثيرةً من المراثي تبدو أشبه بإعادة صياغة لسفر أيُّوب الأقدم تاريخًا بكثير. غير أنَّ النبيَّ الذي كتب المراثي (إرميا على الأرجح) لم يكُن في الظلام. فقد علم تمامًا سبب خراب أورشليم وهو أنَّ العبرانيِّين نقضوا عهدهم مع الله. ومع ذلك، فإنَّ معرفة السبب لم تُلطِّف حدَّة المعاناة ولا مشاعر اليأس والخُذلان. وقد تفوَّه، مثلَ أيُّوب، بهذا: "صار السيِّد (الربُّ) كعدوّ!" وسأل الله: "لماذا تنسانا إلى الأبد، وتتركنا طولَ الأيَّام؟" رغمَ معرفته الإجابات جيِّدًا- حيث تعرضها بتفصيل كليٍّ أجزاءٌ أُخرى من السِّفر.

تُرى، أيُّ تفسيرٍ ممكنٍ قد يُعزِّي شخصًا مثل أيُّوب أو أرميا أو مغ وُدسُن؟ إنَّ المعرفة نظريَّة، عقلانيَّة؛ أمَّا معاناة الألم ففعليَّة، شخصيَّة. وما من جوابٍ عقلانيٍّ يحلُّ الألم. وربَّما لهذا السبب أرسل الله ابنه في استجابةٍ للألم البشريّ، كي يختبره ويمتصَّه داخلَ ذاته. إذ لم "يحلّ" التجسُّد المعاناة البشريَّة، ولكنَّه على الأقلِّ كان استجابة فعليَّة وشخصيَّة. وبالمعنى الأصدق، ما من كلماتٍ يمكن أن تتكلَّم بصوتٍ أعلى ممَّا يتكلَّم به الكلمة.

إذا التفتَّ إلى سفر أيُّوب طلبًا لجوابٍ عن أسئلةِ "لماذا؟"، فإنَّك ستعود صفرَ اليدين. ذلك أنَّ الله أبى أن يُجيب، وأيُّوب سحب أسئلته، وأصدقاء أيُّوب الثلاثة

تراجعوا عن جميع افتراضاتهم الخاطئة. كذلك المسيح أيضًا تجنَّب مسألة علَّة الألم المباشرة. فلمَّا استنتج تلاميذُه بعض الاستنتاجات بشأن رجُل وُلِد أعمى (يوحنّا ٩)، وبشأن كارثتين محلِّيَّتين، وبَّخهم. ومن البيِّنات التي يتضمَّنها الكتاب المقدَّس، ينبغي أن أستنتج أنَّ أيَّة أجوبة مُحكَمة وحاسمة عن أسئلةِ "لماذا؟" تبقى- بكلِّ بساطة- خارج مُتناوَلنا.

متى انتحلنا أيًّا من امتيازات الله، نطأ أرضًا خطرة. حتَّى المحاولةُ الحسنة النيَّة لتعزية ولدٍ ما بالقول: "لقد أخذ الله بابا إلى بيته السماويّ لأنه يحبُّه كثيرًا،" تتخطَّى إلى داخل دائرة يبدو أنَّ الكتاب المقدَّس يعتبرها خارجة عن نطاق إدراكنا. ولئن كانت الكوارث- كتحطُّم طائرة أو انتشار وباء أو مصرع أشخاصٍ برصاص قنَّاص عشوائيٍّ أو تسميم الأدوية عمدًا أو مجاعةٍ في أفريقيا- تستدعي بإلحاحٍ تفسيرًا موثوقًا، فإنَّ سفر أيُّوب يُعطينا مُذكِّرة مُهِمَّة وهي أنَّ الله نفسه لم يُحاوِل تقديم تفسير!

٢- رُبَّما يُبقينا الله جاهلين لأنَّنا نعجز عنِ استيعاب الجواب.

لعلَّ امتناع الله الجليلَ عن إجابة أيُّوب لم يكن مجرَّد حُسنِ تملُّص، أو طريقةً بارعةً لتفادي الإجابة؛ بل لعلَّه كان إقرارًا من الله بحقيقة جليَّة من حقائق الحياة. فإنَّ مخلوقًا ضئيلًا على كوكبٍ ضئيل في مجرَّةٍ نائية لا يستطيع فعلًا أن يسبر أغوار تصميم الكون الرائع. وكأنَّما تحاول أن تصف الألوان لشخصٍ وُلِد أعمى، أو إحدى سمفونيَّات موزارت لشخصٍ وُلِد أصمّ، أو تشرحَ نظريَّة النسبيَّة لشخصٍ لا يعرف أيَّ شيء عنِ الذرَّة.

ولتقدير المسألة، هَب نفسك تحاول أن تتواصل مع مخلوقٍ على شريحة مجهَر. فإنَّ "الكون" في نظر مخلوقٍ كهذا مكوَّنٌ من بُعدَين فقط هما بعدا سطح شريحة الزجاج المنبسط؛ ولا تستطيع حواسُّه أن تدرك أيَّ شيءٍ أبعد من الأطراف. فكيف يمكنك أن تنقل إلى مخلوقٍ كهذا مفهوم الفضاء أو العلو أو العمق؟ وأنت إذ تنظر

"من فوق" تستطيع أن تفهم عالَم المخلوق الثُنائيِّ الأبعاد، فضلًا عن العالَم الثُلاثيِّ الأبعاد المحيط به. إلاَّ أنَّ المخلوق "من تحتُ"، لا يستطيع أن يدرك سوى عالَم ذي بُعدَين*. بالطريقة نفسها، ينوجد العالم غير المنظور خارج نطاق إدراكنا- ما عدا بعض التدخُّلات النادرة في "مسطَّحنا"، والتي ندعوها معجزات. فلا يستطيع أيُّوب، ولا أنا وأنت، استيعابَ الصورة الشاملة بمداركنا الحاليَّة.

لقد استكشف السينمائيُّ وُدي ألَن بطريقة هزليَّة مستوى الرؤية هذا المؤلَّفَ من "عالمَين" في فيلمه "وردة القاهرة الأرجوانيَّة". إذ نرى أوَّلًا البطل بعينَي ميا فارُو وهي تراقبه فيما يُمثِّل دورًا في فيلم. ثُمَّ يخرج ذلك البطلُ على نحوٍ لا يُصدَّق خروجًا فعليًّا من شاشة الفيلم ذات البُعدين ويهبط على مسرح نيوجرسي؛ فإذا به فجأةً في العالم "الواقعيّ" مع الشخصيَّة المشدوهة التي تُمثِّلها الآنسة فارُو.

ويشتمل العالَم الخارجيُّ على مفاجآت كثيرة لممثِّل الفيلم. فإذا لكمه أحدُهم بقبضة يده، يسقط أرضًا بكلِّ طاعة، كما كان قد تعلَّم أن يفعل على الشاشة، ولكنَّه يفرك حنكه بانذِهال- فتلك اللكمات لا يُفترَض أن تؤذي! وإذا قبَّل هو وميا أحدُهما الآخر، يتوقَّف هُنيهةً بانتظار خُبُوِّ الصُّورة. وحين يحاول أحدُهم أن يشرح له مفهوم الله قائلًا: "إنَّه مَن يسيطر على كلِّ شيء، وعلَّة وجود العالَم كلِّه،" يومئ برأسه ويقول: "أوه، تقصد أنَّه مستر ماير، مالِكُ شركة الأفلام". فإنَّ مُدرَكاته مقصورة على عالَم الفيلم. أخيرًا، يرجع المُمثِّل إلى شاشة السينما ذات البُعدَين، ويُحاولِ أن يُفسِّر العالم الواقعيَّ لسائر المُمثِّلين.

فيُحدِّقون فيه كمن ينتمي إلى مصحٍّ عقليّ، لأنَّه يتكلَّم لغوًا وهذرًا. إذ ليس في

* يتحدث الأنثروبولوجيُّون عن "فجوة إدراك" ماثلة جدًّا وسط الشعوب النائيَّة. فإذا أُطلع هنديٌّ ريفيٌّ من بابوا غينيا الجديدة على صورة فوتوغرافيَّة لغابة، يرى فقط علامات وبقعًا من الألوان على ورقة مسطَّحة. وعليه، بالاختبار، أن يتعلَّم "رؤية" الصورة الثنائيَّة البعد باعتبارها تحوي بالفعل رسومًا ثلاثيَّة الأبعاد، من طير وشجر وشلاَّلات.

الخارج أيَّ عالم "آخر"؛ فعالم الفيلم وحده واقعيٌّ عندهم.

يؤكِّد وُدي ألَن الفكرة عينها التي يوضحها تشبيه المخلوق الثنائيِّ البعد. فإذا كان عالَمٌ واحد (عالَم البُعدَين أو عالَم الفيلم) موجودًا داخل عالَم آخر، فإنَّه لا يعني شيئًا إلاَّ من وجهة نظر العالَم "الأعلى". وبإيصال التشبيه إلى مدًى أقصى، رجوعًا حتَّى سفر أيُّوب، فإنَّ معظم أسئلة أيُّوب كانت تتعلَّق بالنشاط الجاري في العالَم "الأعلى"، وهو عالَم واقع خارج نطاق إدراكه.

فالله يُقيم في مستوًى "أعلى"، في بُعدٍ آخر. والكون لا يحتويه؛ فهو خالق الكون. وبطريقةٍ لا نقوى على سبر غورها، ليس هو مُقيَّدًا بالمكان والزمان. وفي وسعه أن يخطوَ إلى داخل العالم المادِّيّ- ولو لم يفعلْ ذلك ما كانت حواسُّنا في الواقع لتدركه أبدًا- إلاَّ أنَّ الأمر بالنِّسبة إليه "دخولٌ" حقًّا، كأديبٍ يُقدِّم نفسَه كشخصيَّة من شخصيات روايته الخاصَّة. أو كشخصٍ في العالَم الواقعيِّ يظهر ظهورًا قصير الأمد في فيلمٍ من الأفلام.

مسألةُ وقت

كان هنالك صبيَّة اسمُها بهيَّة،
تسير بسرعة أكبرَ من السرعة الضوئية،
فانطلقت يومًا في رحلةٍ سنيَّة
بطريقةٍ نسبيَّة،
وإذا بها قد عادت إلى البارحة،
إلى ساعة العشيَّة!

إنَّ إدراك الوقت، على الخصوص، يُبرز الفرق الهائل بين منظور الله (المنظر من فوق

ومنظورنا. وقد بتُّ أعتقد أنَّ هذا الفرق يُعلِّل كثيرًا من أسئلتنا غير المُجابة بشأن الخيبة بالله. لهذا السبب يستحقُّ الأمرُ ما قد يبدو تحوُّلًا عن الموضوع.

لقد خصَّص القدّيس أُغسطينوس الكتاب الحاديَ عشر من الاعترافات لبحثٍ في الوقت. وهو يبدأ بالقول: "إذًا، ما هو الوقت؟ إن لم يسألني أحد، فأنا أعرف. وإذا حاولت تفسير الأمر لشخص يسألني فعلًا، فلستُ أعرف". ولمَّا سُئل أُغسطينوس: "ماذا كان يفعل الله قبل الخَلق؟" أجاب بأنَّه لمَّا كان الله قدِ ابتكر الوقت بمعيَّة العالَم المخلوق، فإنَّ سؤالًا كهذا عديم المعنى، وهو إنَّما ينمُّ عن منظور السائل المُقيَّد بالوقت*. فلم يكُن "قبل" الوقت إلاَّ الأزليَّة؛ وما الأزليَّة أو الأبديَّة في نظر الله إلاَّ حاضرٌ لا ينتهي أبدًا. فإنَّ يومًا واحدًا، عند الله، كألف سنة، وألف سنة كيوم واحد.

ماذا كان من شأن أُغسطينوس أن يفعل بكلِّ ما حصل منذ أن ربط آينشتَين الوقت بالفضاء؟ فنحن الآن نفهم الوقت باعتباره نسبيًّا، لا مُطلقًا. إذ يُقال لنا إنَّ إدراك الوقت يتوقَّف على موقع المُراقِب النسبيّ. وهاك مثلًا حديث العهد: ليلةَ ٢٣ شباط (فبراير) ١٩٨٧، راقب فلكيٌّ في تشيلي بعينه المجرَّدة انفجار نجم فوق مستعر كبير ناءٍ في عصفةٍ هائلة جدًّا بحيث أطلقت في ثانيةٍ واحدة طاقة تُساوي ما تُطلِقه شمسُنا في عشرة مليارات سنة. ولكنْ هل وقع ذلك الحدث حقًّا في ٢٣ شباط ١٩٨٧؟ فقط مِن منظور كوكبنا. فذلك النجم الهائل كان قد انفجر فعلًا قبل ١٧٠,٠٠٠ سنة من السنة ١٩٨٧ عندنا، ولكنَّ النور الناجم عن ذلك الحدث النائي، مُنتقلًا بسرعة تُناهز ستَّة تريليونات ميل في السنة، استغرق ١٧٠,٠٠٠ سنة حتَّى وصل إلى مجرَّتنا.

وها هُنا تتحدَّى نظرةُ الأزليَّة "العُليا" مفهومنا المعتاد للوقت. تصوَّر، إن شئتَ، كائنًا كبيرًا جدًّا، أكبر من الكون بكامله، من الكبر بحيث ينوجد في آنٍ واحد على

* لم يكُن مارتن لوثر بالغ الكياسة بهذا الشأن: "لمَّا سأل أحدهم: أين كان الله قبل خَلق السماء؟ أجاب القدّيس أُغسطينوس: لقد كان في ذاته. وعندما سألني شخصٌ السؤال نفسَه، قلت: كان يُنشِئ جهنَّم للأرواح الخاملة الوقحة المرتبكة الفضوليَّة من أمثالك".

الأرض وفي الفضاء الذي يشغله ذلك النجم الهائل. ففي ١٩٨٧، ماذا كان الوقت (الزمن) بالنسبة إلى ذلك الكائن؟ الأمر يتوقَّف على المنظور. فمن منظور الأرض، يكون الكائن قد "راقب" تاريخ ١٩٨٧ المشتمل على اكتشاف نجم ١٩٨٧ الهائل. ولكن من منظورالنجم ذاته، يكون الكائن قد شهد ما لن تعرفه الأرض إلاَّ بعد ١٧٠,٠٠٠ سنة أُخرى! وهكذا فإنَّ الكائن شاهد معًا الماضي (من الأرض، رأى انفجار نجم ١٩٨٧ الحاصل قبل ١٧٠,٠٠٠ سنة) والحاضر (أحداث السنة ١٩٨٧ على الأرض) والمستقبل (ما كان حادثًا "الآنَ" على نجم ١٩٨٧، والذي لن يعلم به أهلُ الأرض طوال ١٧٠,٠٠٠ سنة)، وذلك بصورة مُتزامنة.

إنَّ كائنًا كهذا، كبيرًا كِبَرَ الكون، يَسعُه من نقطة إشرافٍ مَا أن يرى ما هو حادثٌ في الكون في أيِّ وقتٍ من الأوقات. فإذا أراد مثلًا أن يرى ما هو حادثٌ على شمسنا الآن تمامًا، يستطيع أن "يُشاهِد" ذلك من منظور الشمس. وإذا أراد أن يرى ما حدث على الشمس قبل ثماني دقائق، يستطيع أن "يشاهد" من الأرض- وذلك هو ما نراه نحن بعد أن يكون النُّور قد قطع مسافة الثلاثة والتسعين مليون ميل من الشمس إلى الأرض.

هذه المشابهة غير دقيقة، لأنها تُقيِّد الكائن في المكان (الفضاء) حتَّى فيما تُحرِّره من الزمان (الوقت). ولكنَّها قد تُوضِّح كيف أنَّ مفهومنا للوقت- حيث "يحدث الأمر "أ" أوَّلًا، ثمَّ يحدث "ب" - يُعبِّر عن منظور كوكبنا المحدود جدًّا. إنَّما الله، خارجَ الزمان والمكان كليهما، يستطيع أن يُبصِر ما يجري على الأرض بطريقةٍ لا يسعنا إلاَّ أن نلجأ إلى الحزر والتخمين بشأنها، ولا ندركها البتَّةَ إدراكًا كاملًا.

وليست أفكارٌ كهذه مجرَّد شطحات خياليَّة. فطلاَّب الفيزياء في المرحلة الثانويَّة يتعلمون عن روَّاد الفضاء النظريِّين في المستقبل إذ يُسافِرون في الفضاء بسرعة تفوق سرعة الضوء، ومن ثَمَّ يرجعون وهم أكثر شبابًا ممَّا كانوا عند انطلاقهم. والنظريّات التي بدت تخمينيَّة إلى أبعد الحدود قبل عقدٍ واحدٍ من الزمن يُبرهِنها الباحثون المُحدَثون

الذين يرسلون إلى القمر أشعَّة ليزر ترتدُّ إليهم، ويبعثون إلى الفضاء ساعاتٍ ذرِّيَّة. فالعلم يُحقِّق الأحلام: "حقًّا إنَّها ذكرى واهية تلك التي تعمل فقط باتِّجاه الماضي!" كما قالت الملكة البيضاء لأليس في بلاد العجائب.

الله والوقت

تشبيهٌ واحد بعد. فبوصفي كاتبًا، أعيش في "قِطاعَي وقت" مختلفين. فهناك أوَّلًا قِطاع الوقت المتعلِّق بعالَم الواقع والمحتضن لطقوسي اليوميَّة المتمثِّلة بالاستيقاظ وارتداء الثياب وتناول الفطور، ثمَّ الانتقال إلى مكتبي لإنتاج الفصول والصفحات والكلمات. وفي تلك الأثناء، يكون الكتابُ ذاتُه مُوجِدًا عالمًا آخر مُصطَنعًا له قطاعُ الوقت المستقلُّ الخاصُّ به.

ولو كنتُ أكتب رواية، لربَّما كتبتُ الجُملتَين التاليتين: "رنَّ الهاتف. وفي الحال نهضَتْ عنِ الأريكة وركضت كي تُجيب". ففي داخل الكتاب، يجري تَتالي الوقت هكذا: الهاتف يرنّ، والإجابة مباشرة. ولكن خارج الكتاب، في عالَم الروائيّ، قد تفصل بين هاتين الجملتين دقائق أو ساعات، بل أيَّامٌ أيضًا. فقد أُنهي عمل يومٍ بهذه الجملة: "رنَّ الهاتف،" ثمَّ أمضي في عُطلة تدوم أُسبوعين. وبصرف النظر عن وقت رجوعي إلى الكتاب، أنا مُقيَّد بقوانين قِطاع الوقت الخاصّ به. فلا يمكنني البتَّة أن أكتب: "رنَّ الهاتف. وبعد أُسبوعين نهضَت وأجابت عن المكالمة". ذلك أنَّ الخلط بين قطاعَي الوقت يُوجِد أمرًا مُنافيًا للعقل.

وبعد أن أُكمِل الكتاب، بطريقة تخصُّني وحدي لكوني مؤلِّفَه، أحمل في ذهني كامل الكتاب أينما ذهبت. "فمِن فوق"، يمكنني أن أرى كامل الحبكة في لحظة واحدة: البدايةَ والوسط والنهاية. ولا يستطيع أحدٌ آخر أن يفعل ذلك- إلَّا إذا اختبر الآخرون أيضًا وقائع الكتاب في إطار الوقت بالسَّير فيه رويدًا رويدًا جملةً فجملة.

إنَّني ما أنفكُّ أطلب تشابيهَ لأنَّها الوسيلة الوحيدة التي لدينا لتخيُّل التاريخ

البشريّ كما يراه الله. فنحن نرى التاريخ كتوالي أُطُر جامدة، أحدُها وراء الآخر، كما في بَكَرة شريط سينمائيّ. ولكنَّ الله يرى الفيلم كلَّه في الحال، بومضةٍ واحدة. وهو يراه بالتزامن من وجهة نظر نَجم ناءٍ، ومن وجهة نظر غرفة جلوسي حيث أقعد مُصلِّيًا. يراه بجملته، مثل كتابٍ كامل، لا جملةً فجملة وصفحةً فصفحة.

في وسعنا أن نتخيَّل هذا المنظور على نحوٍ باهت، كما لو كان وسطَ الضباب. ولكنَّ مجرَّد إقرارنا بتقييد الوقت لنا على نحوٍ عُضال قد يُساعِدنا على فهم سبب إحجام الله عن إجابة "لماذا؟" التي سألها أيُّوب. فإنَّ الله أجاب بالحريِّ بعرضٍ سريع لبضع حقائق كونيَّة أساسيَّة لا يكاد أيُّوب يستوعبها، وبهذا التنبيه: "دعِ الباقيَ لي!" وربَّما كان الله يُبقينا في جهل، لأنَّه بأيَّة حال لا يستطيع أيُّوب، ولا أينشتَين، ولا أنا ولا أنت، فهمَ المنظر "من فوق".

إنَّنا لا نقدر أن نفهم أيَّةَ "قواعد" تنطبق على إلَهٍ يُقيم خارج الزمن، كما ندركه نحن، ومع ذلك يخطو أحيانًا إلى داخل الزمن. فكِّر في كلِّ ما يُحيط بكلمة "سَبْق المعرفة" من ارتباكٍ ولغط. هل علم الله مسبَّقًا أنَّ أيُّوب سيظلُّ أمينًا تجاهه فيكسب بذلك الرهان؟ وإن كان الأمر كذلك، فكيف كان الرهان رهانًا حقيقيًّا؟ أو ماذا بشأن الكوارث الطبيعيَّة على الأرض؟ إن كان الله على علمٍ بها قبل حدوثها، أفلا يقع عليه اللَّوم؟ في عالمنا نحن، إذا عرف شخص مُقدَّمًا أنَّ قنبلة ستنفجر في سيَّارة مركونة، وتخلَّف عن إبلاغ السلطات، يُعَدُّ مسؤولًا بموجب القانون. فهلِ الله إذًا "مسؤول" عن كلِّ ما يحدث، حتَّى المآسي، لأنَّه يعلم بأمرها مسبَّقًا؟

ولكنَّنا لا نستطيع أن نُطبِّق قواعدنا المُفرطة في التبسيط على الله، وربَّما كانت هذه هي الرسالة المفهومة ضمنًا من خطاب الله القويِّ لأيُّوب. فإنَّ لفظ سَبْق المعرفة في ذاته ينمُّ عن المشكلة، لأنَّه يعبِّر عن وجهة نظر شخص عالقٍ داخل الزمن وقائلٍ بأنَّ الأمر "ب" يلي "أ". وبالمعنى الدقيق، فإنَّ الله لا "يرانا مُسبَّقًا" نفعل ما نفعله، بل يرانا نفعله فحسب، في حاضر أزليّ. ومتى حاولنا أن نتصوَّر دور الله في أيَّة حادثة محدَّدة،

نكون بالضرورة ناظرين إلى الأمور "من تحت"، وحاكمين على سلوكه تعالى بالمعايير الواهية التي تخصُّ مفهومًا خُلقيًّا خاضعًا لشروط الزمن. وقد نرى ذات يوم إشكاليَّاتٍ من قبيل "لماذا سبَّب الله تحطُّم الطائرة؟" في ضوءٍ مختلفٍ جدًّا.

إنَّ مناقشات الكنيسة الطويلةَ في سَبْق المعرفة وسبق التعيين تُوفِّر مثلًا على مساعينا المضطربة لفهم ما يصير ذا معنًى بالنسبة إلينا فقط حين يدخل الزمن. وفي بُعدٍ آخر، لا شكَّ أنَّنا سنرى مثل هذه الأمور رؤية مختلفة جدًّا. ويُلمِّح الكتاب المقدَّس إلى وجهة النظر التي "من فوق" في بعضٍ من أكثر مقاطعه فرادةً. فهو يقول إنَّ المسيح كان "معروفًا سابقًا قبل تأسيس العالم"، ممَّا يعني قبلَ آدم وقبل السقوط، ومن ثمَّ قبل الحاجة إلى الفداء أصلًا. كما يقول الكتاب إنَّ قصد الله ونعمته أُعطيا لنا "في المسيح يسوع قبل الأزمنة الأزليَّة" أو "في الأزل قبل بدء الزمان". فكيف يُعقَل أن يُقال عن أمرٍ ما إنَّه حصل "قبل بدء الزمان"؟ من شأن لغةٍ كهذه أن تُلمِّح إلى وجهة نظر إلَهٍ يُقيم خارج الزمن. فقبل خَلق الوقت، دبَّر افتداء كوكبٍ ساقطٍ لم يكُن قد وُجِد بعد! ولكن لمَّا "دخل" الله الزمن (كما قد أكتبُ أنا المؤلِّفَ ذاتي داخل كتابي)، انبغى أن يعيش ويموت بموجب قوانين عالمنا العالق في فخِّ الوقت*.

* قد ينفعنا هذا التفاوت في الإدراك لتوضيح نقطةٍ من أكثر النقاط إرباكًا في أسفار الأنبياء. فإنَّهم لم يُعنَوا غالبًا بالإفصاح عن حصول الأحداث التي يتنبَّأون بها في اليوم التالي، أو بعد ألف سنة، أو بعد ثلاثة آلاف سنة، سواءٌ كانت تلك الأحداث غزواتٍ أو زلازل أو مجيء رئيسٍ أو خلق أرضٍ جديدة. وبالحقيقة أنَّ النبوءات القريبة والبعيدة كثيرًا ما تظهر في الفقرة نفسها على تداخُل. فنبوءة إشعياء الشهيرة: "يُعطيكم السيِّد نفسُه آية: ها العذراء تحبل وتلد ابنًا وتدعو اسمه عمانوئيل،" تقع ضمن هذه الفئة. فالآيتان التاليتان توضحان أنَّ للآية (العلامة) إتمامًا في أيَّام إشعياء (يفترض كثير من الباحثين أنَّ الابن هو ابن اشعياء)، ومع ذلك فإنَّ متَّى يُطبِّق إتمام النبوءة النهائيَّ على مريم العذراء. ويعتمد علماء الكتاب المقدَّس تسمياتٍ شتَّى لهذه الخصيصة المشتركة بين الأنبياء: الإتمام الثنائيُّ أو الثلاثيّ؛ جزءٌ بدل الكلّ؛ الإدماج الخلّاق.

ففي نظر إلهٍ يُحيط بالزمن كلِّه، يبقى التعاقُبُ المسألةَ الأقلَّ أهمِّيَّة. أفنتعجَّب إذًا من كون غزوات الكائن السرمديّ إلى داخل الزمن ذاتَ أصداءٍ شتَّى تتردَّد في أيَّام إشعياء، وأيَّام مريم، وأيَّامنا نحن أيضًا؟

الحاضر السرمديّ

ثمَّة معنًى ندرك به، نحنُ البشرَ، الوقتَ أيضًا في ما يُشبِه حاضرًا لا نهاية له البتَّة. صحيحٌ أنَّنا نختبر ذلك على التوالي- حيث يحصل الصباح ثُمَّ الظُّهر ثُمَّ العصر ثمَّ المساء- ولكنَّنا نقوم بتفكيرنا كلِّه في الحاضر. فإذا فكَّرتُ في الفطور الذي تناولتُه في وقتٍ سابق من صبيحة هذا النهار، أُفكِّر في الحاضر بما حدث في الماضي. وإذا تفكَّرتُ بالعشاء هذا المساء، أُفكِّر في الحاضر بما سيحدث في المستقبل. ولأنَّني أنوجِد فقط في الحاضر، لا يمكنني أن أعيَ الماضيَ والمستقبل إلاَّ من منظور الحاضر فحسب.

من شأن هذا التبصُّر أن يُزوِّدنا بلمحةٍ يسيرة عن الحاضر السرمديّ الذي "يرى الله منه العالم". وقد يُفسِّر النموذج الثابت في الكتاب المقدَّس بالنسبة إلى الأشخاص الذين يشكُّون في الله. فلقوم كهؤلاء، عالقينَ في الحاضر وخائبين بالله، يُقدِّم الكتاب المقدَّس عِلاجَين: تذكَّروا الماضي وتفكَّروا في المستقبل. ففي المزامير، وفي الأنبياء، وفي الأناجيل والرسائل، لا يكفُّ الكتاب المقدَّس عن حثِّنا على الالتفات إلى الوراء وتذكُّر العظائم التي عملها الله. إنَّه إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، مَن أنقذ الشعب من عبوديَّة مصر. إنَّه الإله الذي بدافعٍ من المحبَّة أرسل ابنه ليموت ثُمَّ أقامه حيًّا من الموت. فإذا ركَّزنا بقلَّة تبصُّر زائدة على ما نريد من الله أن يعمله لمصلحتنا، فقد تفوتُنا أهميَّةُ ما قد فعل سابقًا.

ثُمَّ إنَّ الكتاب المقدَّس يُوجِّهنا أيضًا نحو المستقبل. فللأشخاص الخائبين في كلِّ مكان- سواءٌ كانوا مسبيِّين في بابل أو مُضطهدين على أيدي الرومان أو غيرهم من الطُّغاة- يُصوِّر الأنبياء حالة مستقبليَّة يسودها السلام والعدالة والسعادة، ويدعُوننا كي نعيش في ضوء المستقبل الذي يرسمون صورتَه. أفيُمكننا أن نعيش الآن "كما لو كان الله مُحِبًّا وكريمًا ورحيمًا وكلِّيَّ القدرة، حتَّى فيما تُقتِّم عَماماتُ الزمن رؤيتَنا؟ إنَّ الأنبياء يُعلِنون إنَّ التاريخ لن يُحدِّدَه الماضي أوالحاضر، بلِ المستقبل.

لقدِ استطردتُ طويلًا في بحث ألغاز الزمن (الوقت) لأنَّني أعتقد أنَّه ليس من

جوابٍ آخر عن مسألة الإجحاف أو اللاإنصاف. ومهما سوَّغنا الأُمور عقليًّا، لا بدَّ أن يبدو الله أحيانًا غيرَ مُنصِف من وجهة نظر شخصٍ مُقيَّد بالزمن. فعند نهاية الزمَن فقط، بعد أن نكون قد بلغنا مستوى النظر الإلهيِّ، وبعد أن يكون كلُّ شرٍّ قد نال عقابه أو غفرانه، وكلُّ مرضٍ قد شُفي، والكونُ كلُّه قد رُدَّ وأُصلح، عندئذٍ فقط سوف يسود العدل والإنصاف. آنذاك نفهم الدور الذي أدّاه الشرُّ، وسقوطُ البشر، والناموس الطبيعيُّ، في حادثة "غير مُنصِفة" مثل موتِ وَلَد. فحتّى ذلك الحين، لن نعرف، ولا يسعُنا سوى الوثوق بإلَهٍ يعرف حقًّا.

إنَّنا نبقى جاهلين لكثيرٍ من التفاصيل، ليس لأنَّ الله يروقه أن يُبقيَنا في الظلام، بل لأنَّنا لا نملك المدارك التي تُمكِّننا من استيعاب نورٍ باهر. فبلمحة واحدة، يعرف الله إلى أينَ العالَمُ صائر وكيف سينتهي التاريخ. ولكنَّنا نحن الخلائقَ المقيَّدين بالزمن لا نملك إلاّ أُسلوب الفهم الأكثر بدائيَّةً: في وسعنا فقط أن ندع الوقت يمرّ. فقبل أن يكون التاريخ قد أنهى شوطه لَن نفهم كيف "أنَّ كلَّ الأشياء تعمل معًا للخير." والإيمانُ يعني أن نُصدِّق سلفًا ما لن يكون ذا معنى إلاّ بالعكس.

لي صديقٌ يُدافع بحماسةٍ عن تعريفِ الإيمان كما يلي: "أن لا تلوم الله أبدًا على الأُمور الرديئة، وأن تعزوَ إليه مع ذلك فضل الأُمور الجيِّدة!" وبطريقةٍ من الطُّرق غريبة، صديقي على حقّ. ففي اعتقادي أنَّ ذلك هو أيضًا ما يتطلَّبه الإيمانُ أحيانًا: أن نثق بالله حين لا يتوافر دليل ظاهِر عليه، كما فعل أيُّوب. أن نثق بصلاحه الكلِّيّ، صلاحٍ موجود خارجَ نطاق الزمن، صلاحٍ لم يَدرِكهُ الزمنُ بعد.

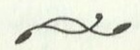
قد يُقابلنا السرمديُّ في ما هو، بمقاييسنا الحاضرة، يومٌ أو (على الأرجح) دقيقةٌ أو ثانية، ولكنَّنا نكون قد لمسنا ما لا يخضع بأيَّة طريقة للقياس بأطوال الوقت، طويلةً كانت أمْ قصيرة. من هنا رجاؤنا أخيرًا

بالخروج من إطار الوقت، إن لم يكن كلِّيًا (ربمّا لا يُلائم ذلك بشريَّتنا) فعلى أيَّة حال من طغيان الوقت وهُزاله اللاطُوليّ، وبأن نمتطيَه بدل أن يمتطيَنا هو، وأن نشفيَ بالتالي ذلك الجُرحَ المُوجِع دائمًا والذي يُصيبُنا به مجرَّد التعاقُب واللاإستقرار، على السواء تقريبًا حين نكون مسرورين وحين نكون مغمومين. فإنَّنا مُتصالِحون مع الوقت قليلًا جدًّا بحيث نُذهَل أيضًا حيالَه. إذ نقول متعجِّبين: "كيف كبر فُلان! كيف يطير الوقت!" كما لو كان الشكلُ الشامل لاختبارنا بِدعًا مرَّةً بعد مرَّة. فالأمر غريبٌ غرابةَ تعجُّبِ سمكةٍ مرارًا وتكرارًا من رطوبة الماء. ومن شأن ذلك أن يكون غريبًا فعلًا؛ إلاّ إذا كان مقدَّرًا لتلك السمكة بالطَّبع أن تصير ذات يومٍ حيوانًا من حيوانات اليابسة.

سي أس لويس، تأمُّلات في المزامير

الشّواهد الكتابيَّة: أيُّوب ٣٦-٣٨؛ المراثي ٢،٥؛ ١ بطرس ١؛ ٢ تيموثاوس ١؛ إشعياء ٧: ١٤؛ رومية ٨.

لِمَ يُعطى... نورٌ وحياة...
لرجُل قد خفيَ عليه طريقُه،
وقد سيَّج الله حوله؟
لأنَّه مثل خبزي يأتي أنيني،
ومثل المياه تنسكب زفرتي.
أيُّوب ٣: ٢٠و٢٣و٢٤



٦

هلِ اللهُ صامتٌ؟

ذهب واحدٌ من أصدقائي مرَّةً كي يسبح في بحيرةٍ كبيرةٍ عند الغَسَق. وبينما هو يخوض مُتمهِّلًا على بُعدِ نحو ثلاثين مترًا من الشاطئ، خيَّم على المياه ضبابٌ مسائيٌّ غير عاديّ. وإذا به لم يعُد يرى شيئًا: لا الأُفق، ولا مَعالم اليابسة، ولا الأشياء أو الأضواء المعهودة على الشاطئ. ولأنَّ الضباب بدَّد كلَّ نور، لم يستطع حتّى تمييزَ اتِّجاه الشمس الغاربة.

وعلى مدى ثلاثين دقيقة ظلَّ صديقي يدور وسط الماء مُحاولًا شقّ طريقه وهو مرتعب. كان يسير في اتِّجاه معيَّن، ثُمَّ يفقد ثقته، فيعود تسعين درجةً إلى اليمين أو إلى اليسار، فلا فرقَ في أيِّ اتِّجاهٍ مضى. وبات في وسعه أن يحسَّ تسارُع دقّات قلبه على نحو تتعذَّر السيطرة عليه. كما كان يتوقَّف ويعوم، محاولًا ضبط طاقته وإرغام نفسه على التنفُّس بإيقاعٍ أبطأ، ثمَّ ينطلق من جديد بنشاطٍ أوفر. أخيرًا سمع صوتًا واهيًا يُنادي مِنَ الشاطئ، فوجَّه جسمه نحو الصوت المُنادي وتبعه إلى برِّ الأمان.

لا بدَّ أنَّ شيئًا من قبيل هذا الشعور بالضياع الكلّيّ استولى على أيُّوب وهو جالسٌ على التُّراب والرماد محاولًا أن يستوعب ما قد جرى. فهو أيضًا ضيَّع جميع المَعالم، جميعَ نقاط التوجيه. أين ينبغي أن يتوجَّه؟ إنَّ الله، مَن كان في وسعه أن يَهديَه وسطَ الضباب، ظلَّ صامتًا.

كان بيت القصيد من الرِّهان أن يبقى أيُّوب في العتمة. فلو أنَّ الله أسرَّ إليه بحديثٍ مُنشِّطٍ مُلهِم- "قُم بهذا لأجلي، يا أيُّوب، كفارسٍ من فُرسان الإيمان أو كشهيد" - لكان أيُّوب تحمَّل معاناته بسرور بعدما شعر بالاعتزاز. ولكنَّ الشيطان كان قد عرض تحدِّيًا مَدارُه: هل يصمد إيمان أيُّوب بغير مساعدة أو تفسير من الخارج؟ وحين قبل الله هذه الشروط، هبط الضباب حول أيُّوب.

طبعًا، "كسب" الله الرِّهان في آخر الأمر. ولئن انفجر أيُّوب بسيلٍ من الشكاوى المُرَّة، ويئس من الحياة وتاق إلى الموت، فمع ذلك أبى بجرأةٍ أن يستسلم من جهة الله: "هوذا يقتلني؛ لا أنتظر شيئًا (سواه)؛ فقط أُزكِّي طريقي قدّامه". لقد آمن أيُّوب حين لم يكن سببٌ يدعو إلى الإيمان، آمن وسط الضَّباب.

لك أن تقرأ قصَّة أيُّوب، وتتحيَّر حيال الرِّهان، ثمَّ تتنفَّس الصُّعداء: ها إنَّ الله سوَّى تلك المسألة! فبعدما برهن وجهة نظره بمنتهى الحسم، سيعود حتمًا إلى أُسلوبه المُفضَّل في التواصُل بوضوح مع أتباعه. كان لك أن تفتكر هكذا... إلاَّ إذا قرأتَ باقيَ الكتاب المقدَّس طبعًا. وأنا أتردَّد في قول هذا، لأنَّه حقيقةٌ قاسية وحقيقةٌ لا أرغب في الإقرار بها، ولكنَّ أيُّوب إنَّما يقوم كما لو كان أقصى مَثَلٍ لِما يبدو أنَّه قانونُ إيمانٍ شامل. إذ إنَّ نوع الإيمان الذي يُثمِّنه الله يبدو أنَّه ينمو أفضل نموٍّ حين يتشوَّش كلُّ شيء، حين يبقى الله صامتًا، حين يهبط الضباب.

الناجونُ من الضباب

ومضةُ نورٍ من منارة على الشاطئ، ثُمَّ فترةُ صمتٍ وظلام مروِّعة: ذلك هو النموذج الذي أجِده، لا في سفر أيُّوب وحده بل في الكتاب المقدَّس كلِّه. أتَذكَّرُ إبراهيم الشَّيخ الرَّعشن[1] وهو يقترب من إشارة القرن، مُتمسِّكًا تمسُّكًا واهنًا بالرؤيا المتألِّقة بأنَّه سيكون

[1] الرعشن هو المتمايل أو من يمشي بطريقة غير متوازنة.

أبًا لأُمَّة عظيمة؟ لقد مضت عشرون سنة و تلك الرؤيا تبدو سرابًا صحراويًّا، حتَّى وُلِد له ابن، ابنٌ واحد فقط. ولمَّا تكلَّم الله ثانيةً، دعا إبراهيم إلى امتحان إيمان قاسٍ قساوة امتحان أيُّوب تمامًا. إذ قال الله بكلمات طعنت قلب إبراهيم في الصميم: "خُذِ ابنك، وحيدك الذي تحبُّه، إسحاق، واذهب إلى أرض المُريّا، وأصعِده هناك مُحرَقة!"

ثُمَّ كان هنالك يوسف الذي تعلَّم من الله في أحلامه، ولكنَّه قبع في قاع بئر، وفي ما بعد في غياهب سجنٍ مصريٍّ، لأنَّه حاول اتِّباع ذلك الإرشاد. وموسى، مُحرِّر العبرانيِّين المُصطفى، الذي توارى في صحراء مدَّةَ أربعين سنةً طريدَ حَرَسِ أمنِ فرعون. وداود الشريد، المَلِك الممسوح بأمرٍ من الله، والذي قضى العقد التالي مُراوِغًا الرِّماح ونائمًا في الكهوف.

وفي سفر أخبار الأيَّام الثاني نقع على مجاهرة صريحة بالإرشادِ الإلَهيِّ المُربك الشبيه بنظام مُورس: رسالةٌ واضحة تتبعها فجوةُ صمتٍ طويلة. فهنالك نقرأ عن ملكٍ تقيٍّ نادر، هو حزقيَّا الذي سُرَّ به الله حتَّى أطال عمره خمس عشرة سنة إضافيَّة على نحوٍ لا سابقةَ له. وماذا حدث تاليًا؟ "تركه الله ليُجرِّبه، ليعلم كلَّ ما في قلبه".

ويظهر معظم أشخاص العهد القديم هؤلاء في لائحة الشرف الواردة في عبرانيِّين ١١، وهو أصحاحٌ سمّاه بعضُهم "قاعة مشاهير الإيمان". أمَّا أنا فأُفضِّل تسمية ذلك الأصحاح "الناجون من الضباب،" لأنَّ كثيرين من الأبطال المذكورين مرُّوا في اختبارٍ مشترك: وقت امتحان رهيب على غرار أيُّوب، وقت يهبط فيه الضباب ويغدو كلُّ شيء قاتمًا ومُربكًا. عذابٌ وهزء وجَلد وسلاسل ورَجمٌ بالحجارة ونشرٌ بالمناشير: هكذا تُسجِّل رسالة العبرانيِّين بتفصيل كئيب التجاربَ التي تُصيب أُولئك الذين قلوبُهم مُفعَمة بالإيمان.

فالقدِّيسون يصيرون قدِّيسين بتشبُّثهم على نحوٍ ما بالاقتناع الراسخ بأنَّ الأُمور ليست كما تبدو، وأنَّ العالَم غير المنظور حقيقيٌّ وجدير بالثقة مثل العالم المنظور حوالَيهم. إنَّ الله يستحقُّ الثقة، حتَّى حين يبدو وكأنَّ العالم ينهار. ويخلص عبرانيِّين ١١ إلى القول عنِ الحشد الرائع الذي يذكره: "وهم لم يكن العالم مستحقًّا لهم،" مُضمِّنًا

هذا التعليق الآسِر "لذلك لا يستحي بهِم الله أن يُدعى إلهَهم". وعندي أنَّ هذه العبارة تُضفي حركة مُعاكِسة على ملاحظة دوروثي سايرز بشأن إذلالات الله الثلاثة الكبيرة. فإنَّ الكنيسة قد جلبت على الله تعييرًا بصورة خاصَّة، ولكنَّها أيضًا آتته لحظاتٍ من الفخر، والقدّيسون المُضنَون المذكورون في عبرانيّين ١١ برهانٌ على هذا.

إنَّ محبوبي الله، خصوصًا محبوبي الله، ليسوا في مَنعةٍ من الأوقات المُحيِّرة المُربكة التي يبدو فيها الله صامتًا. وكما قال پول تورنييه: "حيث لا تبقى بعدُ أيَّة فرصة للشكّ، لا تبقى أيضًا أيَّة فرصة للإيمان". فإنَّ الإيمان يستوجب اللّايقين والتشوُّش. والكتاب المقدَّس حافلٌ بالأدلَّة على اهتمام الله– وبعضُها رائعٌ للغاية– إنَّما لا ضمانات. وبعد أفلا تحول الضمانة دونَ الإيمان؟

نوعان من الإيمان

لقد وجد صديقي رشيدٌ كلمة "الإيمان" عائقًا أساسيًّا في طريق الثقة والتصديق. فالمؤمنون الآخرون نصحوه قائلين: "ليكن لك إيمانٌ فحسب،" حين خامره الشكّ. فماذا كان قصدهم؟ لقد بدا "الإيمان" في نظره منهجًا لتجنُّب الأسئلة، لا للإجابة عنها.

وفي اعتقادي أنَّ جزءًا من الصعوبة ناشئ من الطريقة المطّاطة التي نستعمل بها الكلمة. فأوَّلًا، نستعملها في وصف جرعات من الإيمان صبيانيَّة كبيرة، حيث يبتلع المرء المستحيل. وقد مارس داود هذا النوع المتطرِّف من الإيمان لمَّا تقدم بخُطى واسعة وثابتة لمواجهة جُليات، كما فعل ذلك قائدُ المئة الرومانيُّ الذي امتدحه المسيح (إذ "تعجَّب من ثقة الرجل غير المُتزعزعة). وفي أيامنا، يكتب "مُرسَلو الإيمان" أخبارًا مؤثِّرة عن عجائب قد تنتج من الثقة الطفوليَّة. هذا هو "إيمان بزرة الخردل" الذي يستطيع أن يُطعِم أيتامًا يملأون دارًا كبيرة أو ينقل جبلًا من الجبال، والكتاب المقدَّس يحوي كثيرًا من الحثّ والحفز على إيمانٍ كهذا.

غير أنَّ أيُّوب، ومعه قدّيسو عبرانيّين١١، يدلُّ إلى نوعٍ مختلف من الإيمان، هو

النَّوع الذي حوَّقته في هذا الكتاب الذي يتناول خيبة الأمل بالله. فالإيمان الطفوليُّ ربَّما لا يصمد عندما لا تأتي المعجزة، أو عندما لا تُستجاب الصلاة اللَّجوج، أو عندما تطمس غمامةٌ رماديَّة كثيفة أيَّةَ علامة على اهتمام الله. إذ إنَّ أوقاتًا كهذه تستدعي شيئًا يتعدَّى ذلك، وسأستعمل كلمة "الأمانة" العتيقةَ للتعبير عن الإيمان الذي يبقى صامدًا مهما كان الثمن.

قابلتُ ممرِّضةً شابَّة نشأت خيبة أملها بالله مباشرة من الخلط بين نوعَي الإيمان هذين. فإذ تربَّت في بيتٍ مسيحيٍّ محافظ لم تكد تشكُّ بالله، حتَّى في أثناء سني دراستها الجامعيَّة. وقد علَّقَت على جدار غرفتها صورة يسوع حاملًا على ذراعَيه ولدًا، توضيحًا لكلمات قصيدة "آثار الأقدام". وفي تلك اللوحة تصويرٌ للإيمان بشكله الأكثر طفوليَّةً: ما عليك سوى الوثوق بالله، فلا تشعر بحِملك أدنى شعور! فإذ تلتفتُ إلى أوقات الشدَّة في ماضيك، ترى فقط آثار قدمَي شخصٍ واحد على الرمال، لأنَّ الربَّ يسوع كان يحملك طوال مدَّة المحنة.

عُيِّنت تلك الممرِّضة، وهي ابنةُ أربع وعشرين سنة، للعمل في جناح يخصُّ المصابين بالسرطان. وأخبرتني بوقائع حالات الأشخاص الذين قامت على رعايتهم هناك وقد صلَّى بعضُ مرضاها بإيمانٍ طفوليٍّ، صارخين إلى الله طلبًا للشفاء والعزاء، والإراحة من الألم. ومع ذلك ماتوا ميتات مُريعة شنيعة. وكانت تلك الممرِّضة تعود إلى بيتها كلَّ ليلة، مُثقلةً بمَشاهد المُعانَيات المُتعذِّر حلُّها، لتُواجه لوحة آثار الأقدام بوعدها الغرَّار المتألِّق.

وللحصول على الصورة نابضةً، ما عليك سوى قراءة مزمورَين مُتتاليَين. فابدأ بالمزمور الثالث والعشرين: "الربُّ راعيَّ، فلا يُعوزني شيء... يهديني... لا أخاف شرًّا... إنَّما خير ورحمة يتبعانني كلَّ أيَّام حياتي". ثُمَّ اقلب صفحة واحدة إلى الوراء حيث المزمور الثاني والعشرون: "إلهي إلهي، لماذا تركتَني بعيدًا عن خلاصي؟... في النهار أدعو فلا تستجيب... أُحصي كلَّ عظامي، وهم ينظرون ويتفرَّسون فيَّ؟"

يُمثِّل المزمور ٢٣ الإيمان الطفوليّ؛ ويُمثِّل المزمور ٢٢ الأمانة: نوعًا من الإيمان أعمق

وأعجب. وقد تشتمل الحياة مع الله على كليهما. فربَّما اختبرنا أوقاتًا من القُرب غير المعتاد، حين تُستجاب كلُّ صلاة بطريقة ملموسة ويبدو الله حميمًا وعطوفًا. وربَّما اختبرنا أيضًا "أوقات ضباب"، حين يبقى الله صامتًا، وحين لا يجري أيُّ شيء بموجب الصيغة، وتبدو جميع وعود الكتاب المقدَّس واهية. فالأمانة تتضمَّن تعلُّم الوثوق بأنَّ الله، خارجَ محيطِ الضباب، ما زال مالكًا ولم يتخلَّ عنَّا، كيفما بدت الأُمور.

وعلى نحوٍ ظاهريِّ التناقُض، فإنَّ الأوقات الأكثر تحييرًا وإرباكًا، كالَّتي نجدها لدى أيُّوب، قد تعمل على "تخصيب" الإيمان وتعزيز العلاقة الوثيقة بالله (على ما يشهد المؤمنون الذين يزورون كنائس في أماكن مثل إثيوبيا والصين وغيرهما). فالإيمان الأعمق، ذاك الذي دعوتُه الأمانة، يُفرِخ ويطلع عند نقطةِ تناقُض، كورقة عشبٍ بين الحجارة. والكائنات البشريَّة تنمو بالكفاح والعمل والتمدُّد؛ وبمعنًى ما تحتاج الطبيعة البشريَّة إلى مشاكل أكثر من احتياجها إلى حلول. فلماذا لا تُستجاب جميع الصلوات بطريقة سحريَّة وفوريَّة؟ ولماذا يتعيَّن على كلِّ راجعٍ إلى الله أن يسلك سبيلَ التدرُّب والانضباط الروحيَّين عينَه؟ لأنَّ الصلاة بلجاجة، والصَّوم، ودراسة الكتاب المقدَّس، والتأمُّل، جميعها مصمَّمةٌ بصورة جوهريَّة لأجل خيرنا نحن، وليس لأجل إرضاء الله.

قال كيركيغارد إنَّ المؤمنين ذكَّروه بتلامذة المدارس الذين يطلبون حلول مسائلهم الحسابيَّة في آخر الكتاب بدل أن يحلُّوها بأنفسهم. وأنا أعترف بوجود شيءٍ من قبيل مشاعر هؤلاء التلاميذ لديَّ، ولستُ أعتقد أنَّني وحدي في ذلك. فنحن نتوق إلى اختصار الطُّرق. ولكنَّ الطرق المختصرة عادةً تُبعدنا عنِ النموِّ ولا تُقرِّبنا إليه. فلنُطبِّق المبدأ مباشرةً على أيُّوب: ماذا كانت النتيجة النهائيَّة للامتحان الذي اجتازه؟ وكما قال الحاخام أبراهام هَشِل، فإنَّ "الإيمان الشبيه بإيمان أيُّوب لا يمكن أن يتزعزع لأنَّه نتيجةُ تزعزُعِ صاحبه".

وفي مقالةٍ عن الصلاة، ارتأى سي أس لِويس أنَّ الله يُعامِل المؤمنين الجُدد بنوعٍ خاصٍّ من الرِّقَّة والرِّفق، أشبهَ بأبٍ يُشغف بمولوده الجديد. ويستشهد لِويس بقول مؤمنٍ ذي خبرة: "لقد رأيتُ كثيرًا من استجابات الصلاة المُدهِشة، وأكثر من واحدة

حسبتُها مُعجزيَّة. ولكنَّها تحصل عادةً في أوَّل الطريق، قبل الرجوع إلى الربِّ أو بُعيدَه. وإذ تجري الحياة المسيحيَّة في سبيلها، تميل الاستجابات لأنْ تغدو أندر. ثُمَّ إنَّ حالات الرَّفض كذلك لا تصير أكثر تواتُرًا فحسب، بل أوضحَ وأصرح أيضًا".

تبدو فكرةٌ كهذه، أوَّلَ وهلة، مُحبِطةً مُثبِّطة. أفما ينبغي أن يصير الإيمان أسهل، لا أصعب، مع تقدُّم المرء في الحياة المسيحيَّة؟ ولكنَّ العهد الجديد، كما يُبيِّن لِويس، يضرب مثلَين قويَّين على الصلوات غير المستجابة: أنَّ المسيح صلَّى ثلاث مرَّات إلى الله أنْ "أجِز عنِّي هذه الكأس"، وبولس تضرَّع إلى الله كي ينزع الشَّوكة التي أُعطيَها في جسده.

ثُمَّ يسأل لِويس: "هل يتخلَّى الله إذًا فقط عن أُولئك الذين يخدمونه على أفضل نحو؟ حسنًا، إنَّ ذاك الذي خدم الله الخدمة الفُضلى، قال قبلَ سُويعاتٍ من موته مُعذَّبًا: «لماذا تركتَني؟» فحين صار الله إنسانًا، فإنَّ ذلك الإنسان، من بين الناس أجمعين، لقيَ أقلَّ تعزيةٍ من قِبَل الله في ضيقه الأشدّ. وها هو سرٌّ تُعوزني الجرأةُ لاكتِناهه، حتَّى لو قدرتُ على ذلك. وفي هذه الأثناء، يحسن بالبشر الصِّغار، مثلي ومثلك، ألاَّ يُسارِعوا إلى استخلاص أيَّة استنتجات تُعزِّز مصلحتهم الذاتيَّة إذا وُهِبوا بعضَ الأحيان استجابةً لصلواتهم على خلاف كلِّ رجاءٍ وقدرة. فلو كُنَّا أقوى، لربَّما عومِلنا معاملةً أقلَّ رِفقًا ورِقَّة. ولو كنَّا أشجع، لربَّما أُرسِلنا، بمقدارٍ من المعونة أقلَّ بكثير، للدفاع عن مواقع خطيرةٍ جدًّا تحتاج إلى الاستِبسال في إطار المعركة الكُبرى".

السؤال الذي لا مفرَّ منه

تبدو كلمات سي أس لِويس مؤثِّرةً جدًّا. إلاَّ أنَّني لا أستطيع ببساطةٍ أن أُقلِّص نموذج الأمانة– الإيمان الذي زادته المحنة صلابةَ عودٍ– إلى صيغة مَرِحة. وقد بدأ هذا الكتاب بقصَّة رشيدٍ الذي كان آمِنًا وراسخًا حتَّى تعرَّض إيمانه للامتحان. ثُمَّ شعر آنذاك بأنَّه خُدع وخُذِل. فلماذا يُعرِّضه الله– هو أو أيَّ شخصٍ آخر يحبُّه– لامتحانٍ من هذا القبيل؟ لم يعُد في وسع رشيد أن يثق بإلهٍ كهذا. وقد تكلَّمتُ مع كثيرين آخرين

انهار إيمانُهم الطفوليُّ المُفعَم بالحماسة والبهجة كذلك في وقت المحنة أيضًا.

وتحت سطح سِفر أيُّوب تمامًا يكمن سؤال لا مفرَّ منه. فلو عمد زوجٌ، على سبيل إجراء "امتحان" للحُبّ، إلى تعريض زوجته للصَّدمة التي كان على أيُّوب أن يُكابِدها، لكُنَّا ننسب إليه المرض ونحجزه بعيدًا عن الناس. ولو احتجبت أمٌّ عن أولادها، رافضةً أن تُناديَ لهم بتوجيهات من على الشاطئ في وسط الضباب، لحكمنا عليها بأنَّها أمٌّ غير صالحة. فكيف يمكننا إذًا أن نفهم تصرُّفًا مثل الرِّهان من قِبَل الله نفسه؟

لستُ أعرض صيغةً مُحكَمة، بل ملاحظتين فحسب.

١- لدينا قليلٌ من الإدراك لِما يعنيه إيمانُنا في نظر الله. بطريقةٍ من الطُّرق غامضة، كانت محنة أيُّوب "تستحقُّ عناءها" في نظر الله لأنَّها مضت إلى لبِّ الاختبار البشريِّ بكامله. فأكثرَ من إيمان أيُّوب، كان الدافع من وراء الخليقة كلِّها على المحكّ. ذلك أنَّه منذُ أنْ بادر الله إلى "مغامرة" الإفساح في المجال للكائنات البشريَّة ذات الإرادة الحرَّة بات الإيمان- الإيمان الصادق الحقيقيُّ المبذول طوعًا وغيرُ المُستجدَى- ذا قيمةٍ جوهريَّة في نظر الله لا نكاد نقوى على تصوُّرها. فليس من طريقة لدينا للتعبير عن المحبَّة لله أفضل من ممارسة الأمانة تجاهه.

من الخطإ أن نتحدَّث عن احتياج الله إلى المحبَّة مِن قِبَل خليقته، ولكنْ تذكَّر كيف عبَّر الله نفسه عنِ اشتياقه إلى تلك المحبَّة: مثل أبٍ مُتلهِّفٍ إلى استجابةٍ ما، أيَّة استجابة، من أولاده المتمرِّدين؛ أو مثل مُحِبٍّ منبوذ يُتيح لحبيبته الخائنة فُرصةً أخرى بعدُ على خلاف كلِّ منطق. وهاتان هما الصورتان اللتان استحضرهما الله مرارًا وتكرارًا على مدى زمن الأنبياء. فأعمق الأشواق التي تُخالِجنا، نحنُ الآباءَ والأحبّاء، على الأرض ليست سوى بصيصٍ من الشَّوق الشديد الذي يشعر به الله من نحونا. ويا له من شوقٍ كلَّفه التجسُّدَ والصَّلب!

إنَّ جميع الاستعارات البشريَّة تُخفِق في الإحاطة بهذه الأُمور، ولكنَّها تُخفِق عن

تقصير، لا عن مُبالغة. وكما قال المسيح، فعند نهاية التاريخ (حين ينقشع الضباب إلى الأبد) لن يهمَّ سوى سؤال واحد: "متى جاء ابن الإنسان، ألعلَّه يجد الإيمان على الأرض؟" ثُمَّ إنَّ الرسول بولس، بعدما رسم الخطوط العريضة لِمُخطَّط العالَم من الخَلق حتَّى مجيء المسيح، خلص إلى القول إنَّ الله فعل ذلك لأجل البشر "لكي يطلبوا الله لعلَّهم يتلمَّسونه فيجدوه، مع أنَّه عن كلِّ واحد منّا ليس بعيدًا". وقد كانت "الكلفة" بالنسبة إلى الله إرسال ابنه. أمَّا "المردود" فيتمثَّل في استجابةٍ مُخلِصة من قِبَل شخصٍ مثل أيُّوب، أو مثلك، أو مثلي.

أُقِرُّ بأنَّه يصعب على أيِّ واحدٍ منَّا، ببصرنا المحدود، أن يدرك "المردود" الذي تمَّ ربحُه بواسطة تجارب أيُّوب. ولعلَّ سي أس لِويس داني الحقيقة في تعليقه عن إرسال الله إيانا إلى "مواقع خطيرة جدًّا تحتاج إلى الاستبسال في إطار المعركة الكبرى". فبحسب الكتاب المقدَّس، تؤدِّي الكائنات البشريَّة دور جنود المُشاة الأساسيِّين في الحرب بين قوَّات الخير وقوَّات الشرِّ غير المنظورة جميعًا؛ والإيمان هو سلاحُنا الأقوى والأمضى. وربَّما أرسلَنا الله إلى المواقع الخَطِرة بذاك المزيج عينِه من الفخر والحُبِّ، والكرب والنَّدامة، ذاك الذي يشعر به أيُّ أبٍ عند إرسال ابنٍ أو ابنة إلى الحرب.

هل كانت تجربة أيُّوب "تستحقُّ عناءها" في نظر الله؟ إنَّ الله وحده يستطيع الإجابة عن هذا السؤال. ولطالما كان عليَّ أن أستنتج أنَّ السيادة الإلهيَّة المُطلقة تعني على الأقلّ هذا الأمر: الله وحده يستطيع أن يُحدِّد ما هو مهمٌّ في نظر الله. وقد قال المسيح لتوما الشكَّاك، بشيءٍ من العتاب الرقيق: "طُوبى للذين آمنوا ولم يرَوا!" فإنَّ أيُّوب شهد جانب الحياة الأحلك ظلامًا، وسمع صمتَ الله الأعمقَ، ومع ذلك ظلَّ مؤمنًا.

٢- الله لم يُعفِ نفسه من مَطالِب الإيمان ذاتها. إنَّ تجارب أيُّوب لا يمكن أن تقوم بمعزلٍ عن صداها الأقوى في حياة المسيح. فهو أيضًا قد جُرِّب. وهو أيضًا خسر كلَّ ما له قيمة، بما في ذلك أصدقاؤه وصحَّته. وكما تقول رسالة العبرانيِّين، "قدَّم بصراخ شديد

ودموع طلبات وتضرُّعات للقادر أن يخلِّصه من الموت". وأخيرًا، خسر حياته.

لن نستطيع البتَّة أن نسبر تمامًا أغوارَ سرِّ ما حدث على الصليب، ولكنَّ لنا في ذلك بالفعل التعزيةَ بأنَّ الله لا يشاء أن يُجيز خلائقه في أيَّة محنة لم يتحمَّلها هو نفسُه. ولقد تحدَّثتُ مع كثير من الأشخاص المتألِّمين على مرِّ السنين، ولا أستطيع التشديد كفايةً على مدى الأهميَّة التي يُضفونها على هذه الحقيقة. فمن أشخاصٍ مشهورين مثل جوني إيركسُن تادا، ومن مغمورين في المستشفيات الريفيَّة، ومن نزلاء سجون العالَم الثالث الجهنَّميَّة، سمعتُ أقوالاً من هذا القبيل: "على الأقلّ، بفضلِ يسوع، يفهم الله حقيقة شعوري".

هنا يحضرني مرَّةً أُخرى تعليقُ رشيد بأنَّ أيُّوب دفع ثمنًا باهظًا جدًّا كي يجعل الله يشعر بالرضى فحسب. وقد كان يُفكِّر في أيُّوب جالسًا في الرماد، يحكُّ قروحه. ولكنْ بينما يُعبِّر رشيد عن رأيه، كنتُ أُفكِّر في يسوع، مُعلَّقًا على صليب، غير قادر على مدِّ يده إلى جروحه. وكان عليَّ أن أُوافِق على أنَّ الثمن كان باهظًا جدًّا. فبمعنىً ما، ربط الله يديه في الرهان على أيُّوب. وبالمعنى الأكثر حرفيَّةً، سمح بأن تُربَط يداه هو عشيَّة الصَّلب. فقد قال المسيح متحدِّثًا عن موته: "الآن نفسي قد اضطربت. وماذا أقول: «أيُّها الآب نجِّني من هذه الساعة»؟ ولكن لأجل هذا أتيتُ إلى هذه الساعة. أيُّها الآب، مجِّدِ اسمك!"

في دراستي للكتاب المقدَّس، صعقني تحوُّلٌ جذريٌّ في مواقف كُتَّابه من معاناة الألم، تحوُّلٌ ترجع آثاره مباشرةً إلى الصليب. فحين يتكلَّم كُتَّابُ العهد الجديد عن أوقات العسر والشدَّة، لا يُعبِّرون عن شيءٍ من السخط الذي تميَّز به أيُّوب والأنبياء وكثيرون من ناظمي المزامير. إنَّهم لا يُقدِّمون تعليلاً حقيقيًّا للألم، ولكنَّهم ما ينفكُّون يُشيرون إلى حَدَثين -موت المسيح وقيامته- كما لو كانا يُشكِّلان نوعًا من الجواب المعبَّر عنه بالصُّوَر.

لقد استقرَّ إيمان الرُّسل كلِّيًّا، كما اعترفوا هم مرارًا، على ما جرى يومَ أحد القيامة، حين حوَّل الله أكبر مأساة في التاريخ كلِّه- إعدامَ ابنه- إلى حدثٍ جليل خُلِّدت ذِكراه في يوم الجمعة العظيم. فأولئك التلاميذُ الذين حملقوا إلى الصليب وهم مُتوارون في

الظِّلال، تعلَّموا سريعًا ما كانوا قد أخفقوا في تعلُّمه على مدى ثلاث سنين ويزيد قضَوها بمعيَّة مُعلِّمهم وسيِّدهم: حين يبدو الله غائبًا، قد يكون أقربَ منه في أيِّ وقتٍ آخر. وحين يبدو الله ميتًا، قد يكون على وشك العودة إلى الحياة.

إنَّ نموذج الأيَّام الثلاثة- المأساة فالظُّلمة فالنُّصرة- بات عند كُتَّاب العهد الجديد معيارًا يمكن تطبيقه على جميع أوقات الامتحان التي نمرُّ فيها. ففي وسعنا أن نعود بأنظارنا إلى يسوع، برهانِ محبَّة الله، وإن كنَّا لن نحصل على جوابٍ عن أسئلتنا التي تتصدَّرها "لماذا؟" إذ إنَّ يوم الجمعة العظيم يُبيِّن أنَّ الله لم يتخلَّ عنَّا في خضمِّ ألمنا. فالمصائب والآلام التي تُضني حياتنا حقيقيَّةٌ ومهمَّة في نظر الله للغاية بحيث رغب هو نفسُه أن يشترك فيها ويتحمَّلها. إنَّه هو أيضًا "مُختبِر الحَزَن". وفي ذلك اليوم، اختبر يسوع نفسُه صمت الله... فكان المزمور ٢٢، ليس ٢٣، هو الذي اقتبس منه وهو على الصليب.

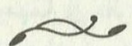
ثُمَّ إنَّ أحد القيامة يُبيِّن أنَّ الألم لن يظفر في آخِر المطاف. لذلك يكتب يعقوب: "احسبوه كلَّ فرح... حينما تقعون في تجارب متنوِّعة؛" ويكتب بطرس: "به (بالخلاص) تبتهجون، مع أنَّكم الآن- إن كان يجب- تُحزَنون يسيرًا بتجارب متنوِّعة؛" ويكتب بولس: "نفتخر (أي نبتهج جدًّا) أيضًا في الضيقات". ويمضي الرُّسل ليشرحوا الخير الذي يمكن أن ينجم عن "مُعاناةٍ مُفتداة" كهذه، من نُضج وحكمة وإيمان أصيل وثبات وخُلق وفضيلة، وكثيرٍ من المكافآت الآتية.

ولماذا الابتهاج؟ ليس لسبب النشوة الماسوشيَّة الناشئة من التجربة بعينها، بل لأنَّ ما فعله الله يومَ أحد القيامة على نطاقٍ واسع يستطيع أن يفعله لكلٍّ منَّا على نطاقٍ ضيِّق. والآلام التي يتطرَّق إليها يعقوب وبطرس وبولس كان يُرجَّح أن تُشعِل أزمة إيمان كبرى في العهد القديم. إلاَّ أنَّ كُتَّاب العهد الجديد باتُوا يؤمنون "أنَّ كلَّ الأشياء تعمل معًا للخير،" كما عبَّر الرسول بولس.

وغالبًا ما تتعرَّض للتحريف تلك الآية الشهيرة، إذ يؤوِّلها بعضهم بحيث تعني "أولئك الذين يحبُّون الله لن يُصيبَهم أيُّ مكروه". ولكنَّ بولس عنى العكس تمامًا،

وفي الفقرة التالية رأسًا يُعرِّف نوع "الأشياء" التي لنا أن نتوقَّعها: شدَّة، ضيق، اضطهاد، جوع، عُري، خطر، سيف. وقد احتمل بولس هذه كلَّها. غير أنَّه يُصِرُّ مع ذلك على أنَّه "في هذه جميعها يعظم انتصارنا بالذي أحبَّنا،" إذ لا يمكن لأيِّ مقدار من المصائب والمصاعب أن يفصلنا عن محبَّة الله لنا في المسيح.

إنَّما المسألةُ مسألةُ وقت، على ما يقوله بولس. فما عليك سوى الانتظار، إذ إنَّ معجزة الله في تحويل يوم جُمعة قاتمٍ صامت إلى أحَدِ قيامة مشهود سوف تُوسَّع ذات يوم لتشمل الكون كلَّه.



لئن نكَّرتَ وجهك بغمامِ الغضب،

فمن خلال ذلك القناع أعرف تينِك العينينِ

اللتين- وإن أشحتَ بهما بعضَ الأحيان-

لن تزدريا أحدًا البتَّة!

جان دُنّ، "ترتيلة للمسيح"

كلُّ أمرٍ صعب يدلُّ على شيءٍ مَا يفوق ما تُحيطُ به نظريَّة الحياة عندنا حتَّى الآن.

جورج مكدونلد

الشواهد الكتابيَّة: أيوب ١٣؛ تكوين ٢٢؛ ٢أخبار الأيَّام ٣٢؛ متَّى ٨؛ مرقس ١٤؛ ٢كورنثوس ١٢؛ لوقا ١٨؛ أعمال ١٧؛ يوحنَّا ٢٠؛ عبرانيِّين ٥؛ يوحنَّا ١٢؛ إشعياء ٥٣؛ يعقوب ١؛ ١بطرس ١؛ فيلبِّي ٣؛ رومية٨.

هَأنذا أذهب شرقًا فليس هو هناك،
وغربًا فلا أشعر به.
شمالًا حيث عملُه، فلا أنظره.
يتعطَّف الجنوبَ، فلا أراه.
أيُّوب ٢٢: ٩٨



٢٧

لماذا يُحجِمُ اللهُ عنِ التدخُّلِ

إنَّني أعرف ما سيقولُه صديقي رشيد بشأن الأفكار الواردة في الفصلين الأخيرين. وبالحقيقة أنَّني أعرف ذلك يقينًا لأنَّني تباحثتُ معه فيها مطوَّلًا. فلعلَّك تذكر أنَّ رشيدًا كان قد كتب كتابًا عن أيُّوب، ولذلك لم تدعُني الحاجة إلى مراجعة القصَّة معه، بل ركَّزتُ بالأحرى على الخاتمة، مُخمِّنًا بصوت عالٍ لماذا أبى الله أن يُجاوِب أيُّوب. وقد راجعتُ أفكاري بشأن عدم التقيُّد بالزمن، وعجز أيُّوب عن استيعاب منظور الله، وقيمة الإيمان الجوهريَّة في نظر الله.

أصغى رشيدٌ إليَّ بانتباه، ولمَّا فرغتُ من التسكُّع بين أفكاري، حنى رأسه موافقةً وقال: "هذا حسن، يا فيليب. لعلّك على حقٍّ إلى أبعد حدّ. وليس لديَّ مشكلة في ما تقوله. ولكنَّ بين قصَّة أيُّوب وقصَّتي فارقًا كبيرًا. فأيُّوب، على الرُّغم من جميع مصاعبه ومصائبه سمع أخيرًا بالفعل كلمةً من الله. والمُفترَض أنَّه سمع صوتًا فعليًّا من وسط العاصفة. أمَّا بالنسبة إليَّ، فقد بقي الله صامتًا. وحزري أنَّ ذلك هو سبب اختيار أيُّوب أن يؤمن واختياري أنا أن لا أفعل".

وإذِ استرسلنا في الحديث، تبيَّن لي أنَّ رشيدًا لم يستطع فعلًا تقبُّل فكرة العالَمين. ففيما هو يعيش في عالم منظور حافل بالشجر والأبنية والسيّارات والبشر، لم يستطع

أن يؤمن بوجود عالَم آخر غير منظور بموازاة ذاك. وقد قال: "أُريد بُرهانًا. فكيف يمكنني أن أتيقّن بوجود الله أصلًا إن كان لا يدخُل عالَمي؟"

أعادت المحادثة أفكاري إلى وقتٍ كنتُ أنا فيه نفسي شُكوكيًا. ومن دواعي السخرية أنَّ رشيدًا فقد إيمانه في كلِّيَّة مسيحيَّة حيث أحاط به مؤمنون اعترفوا بأنَّ لهم معرفةً وثيقة لله. وفي محيطٍ مماثلٍ أيضًا- معهد للكتاب المقدَّس لا أقلّ- وجدتُ أنا أنَّ الإيمان أصعبُ ما يكون.

نظرةُ شكوكيّ

لقدِ اصطدمتُ بصخرة العثرة التي اصطدم بها رشيدٌ تمامًا: أنَّ الأفعال التي عدَّها المؤمنون من الطلاَّب "روحيّة" بدت عاديَّة للغاية في نظري. فإذا كان العالَم غير المنظور يُجري اتّصالًا بالعالم المنظور، فأين العلامات الظاهرة الباهرة الدالَّة على حضرة فائقة خارقة؟

خُذ مسألة الصلاة مثلًا. فقد بدا أنَّ المؤمنين يُحرِّفون الوقائع كي يجعلوا كلَّ شيء يبدو كأنَّه استجابةٌ للصلاة. فإذا بعث عمٌّ أحدهم بخمسين دولارًا إضافيَّة، تعرض ابتساماتهم ويهتفون ويتداعَون إلى إقامة حلقة صلاة لشكر الله. وقد قبلوا "استجابات الصلاة" تلك بمثابة برهانٍ حاسم على وجود الله في السماء مستمعًا إليهم. إنّما كان في وسعي دائمًا أن أجد تفسيرًا آخر. فلعلَّ ذلك العمَّ أرسل إلى كلٍّ من أبناء إخوته خمسين دولارًا ذلك الشَّهر، والصلوات كانت مجرَّد صدفة. ثُمَّ إنَّه كان لي عمٌّ يبعث إليَّ بهدايا بين حين وآخر، مع أنّي لم أكن أُصلّي لأجلها قطّ. وما القول في الطلبات الكثيرة التي بقيت غير مستجابة لأُولئك الطَّلَبة؟ لقد بدا لي أنَّ الصلاة لم تنطوِ على شيءٍ يتعدّى التكلُّم إلى الجدران وتحقُّقَ نُبوَّة مزعومة ذاتيًا بين الفينة والفينة.

وعلى سبيل الاختبار، باشرتُ تقليد السلوك "الروحيّ" في حَرَم الكلّيَّة. فكُنتُ أُصلّي بوَرَعٍ في حلقات الصلاة، وأُقدِّم شهادات زائفة عن رجوعي إلى الله، وملأتُ

قاموسي برطنات التقوى. ونجحتُ في ذلك، فتثبَّتت شكوكي. وإذا بي، أنا الشكوكيّ، قد صرتُ في مدَّة قصيرة أُعتبرَ قدِّيسًا حقيقيًّا، بمجرَّد اتّباعي للصيغة الموصوفة. فهل يُعقل أن يكون الاختبار المسيحيُّ أصيلًا إن كان مُعظَمه قابلًا للاستنساخ على يد شكّاك؟

لقد أجريتُ هذا الاختبار نتيجةً لقراءاتي في سيكولوجيا الدِّين. فإنَّ كُتُبًا مثل "تنوُّع الاختبار الدينيّ"، بقلم وليم جيمس، أقنعتني بأنَّ الدِّين لا يعدو كونه ردَّة فعل سيكولوجيَّة معقَّدة على ضغوط الحياة. وقد فحص جيمس الدعاوى القائلة بأنَّ المسيحيَّ المُخلِص هو مخلوق جديد مُكوَّن من نسيج جديد، إلاّ أنَّه خلص إلى القول: "إنَّ المُهتدين، بوصفهم فئةً من الناس، يتعذَّر تمييزهم عن البشر العاديِّين. حتّى إنَّ بعض الناس الطبيعيِّين يفوقون المهتدين في ثمارهم. وليس في وسع أحدٍ من غير العارفين باللاهوت العقائديّ، بمجرَّد النظر يوميًا في «حوادث» كلتا مجموعتَي الناس المعروضتين أمامه، أن يحزر أنَّ جوهريهما يختلفان اختلاف الجوهر الروحيّ عن الجوهر البشريّ". وأنا أيضًا لم أستطع أن أرى أيَّ بهاء غير معتاد، أو أيَّة علامة فارقة، في المؤمنين من حولي.

لأسبابٍ سأشرحها لاحقًا، لم أبقَ شُكوكيًا. ولكن عليَّ أن أعترف بصدق أنّني حتّى الآن، بعد عقدَين من الإيمان الغنيّ والمُغني، ما زلتُ عرضةً لشكوكٍ من النوع الذي كان لدى رشيد. فالاختبار الروحيُّ لا يحتمل الاستبطان بسهولة: وجِّه عليه ضوءًا كشّافًا، وإذا به يتبخَّر. فإذا أمعنتُ النظر في أوقات شركتي مع الله، يمكنني عادةً أن أكشف تفسيرًا آخر أكثر طَبَعيَّةً لِما جرى. إذ ليس من فرقٍ باهر بين العالَمَين الطبيعيّ والفائق للطبيعيّ، وليس من هُوَّة مُثبتة ذات أسلاك شائكة تفصل بينهما.

إنّني لا أكفُّ عن أن أكون شخصًا "طبيعيًا" حين أُصلّي: فأنا أنعسُ وأفقد التركيز، وأُعاني ما أُعانيه مع الآخرين من خيبات وسوء تواصُل حين أتحدَّث إلى الله. وحين أكتب في موضوعات "روحيَّة" لا ترفعني ربّاتُ الإلهام فجأةً نحو السماء؛ وما

يزال عليَّ أن أبريَ الأقلام، وأشطب بعض الكلمات، وأُراجع القاموس، وأُلغيَ وأرميَ عددًا لا يُحصى من الاستهلالات الخاطئة. ولم تكُن قطُّ حالات "معرفة مشيئة الله في حياتي صحيحة وصريحة كالأمثلة التي أراها في حياة شخصٍ نظير موسى أو جدعون. وما سمعتُ قطُّ الصوتَ المُدوّي من قلب العاصفة. وكان في وسعي، لو أردتُ، أن أفعل ما يفعله رشيد الآن: استبعاد السلوك الروحيّ بتسويغِ قِوامُه خليطٌ من النظريّات السيكولوجيّة.

فلماذا إذًا أُومن بعالَم غير منظور؟ لقد تلقّيت عونًا كبيرًا في هذا الصراع من كتابات سي أس لِويس. فإنَّ موضوع العالَمَين يتخلّل معظم آثاره كخيط: في كتاباته الأُولى، في رسائلَ إلى أصدقائه، وفي جميع رواياته الخياليّة، حتّى اكتمل أخيرًا في نظريّة واضحة المعالم اشتملت عليها مقالةٌ عنوانُها "تبديل الوضع". وقد حدَّد لويس المسألة باعتبارها "تتعلّق بالاستمراريّة البديهيّة بين الأشياء التي نُجمع على كونها طبيعيّة والأشياء التي يُقال إنّها روحيّة، حيث تظهر في ما نعترف بأنّه حياتُنا الفائقة للطبيعة جميعُ العناصر القديمة المكوِّنة لحياتنا الطبيعيّة" ومعظم ما يلي في هذا الفصل لا يعدو كونه توسيعًا لأفكار لِويس.

النظر على طول الأشعّة

بدأ لِويس مقالته بالإشارة إلى ظاهرة التكلُّم بالألسنة على نحوٍ معجزيّ. وعلّق على وجه الغرابة في كون حَدَث "روحيّ" لا يُنكَر، وهو نزول الروح القدس يومَ الخمسين، يُعبِّر عن ذاته بالظاهرة البشريّة الغريبة المُتمثّلة في التكلُّم بلُغةٍ أجنبيّة. فبالنسبة إلى المتفرّجين في يوم الخمسين، ماثلت هذه الظاهرةُ السُّكر. وبالنسبة إلى كثيرين من المراقبين "العِلميّين" اليوم، يُماثِل التكلُّم بألسنةِ الهستيريا أو الاختلال العصبيّ. فكيف يمكن أنَّ أفعالًا طبيعيّة مثل تحريك الأوتار الصوتيّة تُعبِّر عن حقيقة فائقة للطبيعة هي سُكنى روح الله القدُّوس؟

اقترح لِويس تشبيه ذاك بحزمةٍ من أشعّة النُّور تترامى إلى داخل سقيفةٍ عُدّةٍ مُظلِمة. فلمّا دخل سقيفةً أوّلَ مرّة، رأى حزمة أشعّةٍ ونظر إلى دفق الضياء زاخرًا بذرّات الغُبار الطافية. ولكنّه انتقل إلى حزمة الضَّوء ونظر على طولها، فإذا به يحصل على منظور مختلف تمامًا. إذ رأى فجأةً، لا حزمةَ الأشعّة، بل داخلَ إطارِ نافذة السقيفة، أوراقًا خُضرًا تتحرَّك على أغصان شجرة في الخارج، وما وراء ذلك الشمسَ على بُعد ٩٣ مليون ميلٍ. فإنَّ النظر إلى حزمة الأشعّة والنظر على طولها أمران مختلفان تمامًا.

إنَّ عصرنا بارعٌ في تقنيّات النظر إلى حزمة الأشعّة. والكلمة المستخدمة على النحو الأكثر شيوعًا في وصف هذه العمليّة هي "الاختزاليّة". ففي وسعنا أن "نختزل" السلوك البشريّ حتّى المُرسِلات العصبيّة والخمائر، وأن نختزل الفَراشات إلى جُزَيئات الحمض النوويّ، ونختزلَ غروب الشمس إلى موجاتٍ جزئيّة من الضَّوء والطاقة. و"الاختزاليّة" في أشكالها الأكثر تطوّرًا ترى الدِّين كإسقاطٍ سيكولوجيّ، وتاريخ العالَم كصراعٍ تطوُّريّ، والفكر بحدِّ ذاته كمجرَّد انفتاحٍ وانغلاق للميارات المنافذ الحاسوبيّة المرسِلة والمستقبِلة داخل الدِّماغ.

فهذا العالَم الحديث، الخبير جدًّا بالنظر إلى حزمة النُّور من كلِّ زاوية، هو عالَم يُعادي "الإيمان". وعلى مدى مُعظم التاريخ، اعتقدت جميع المجتمعات على نحوٍ بديهيٍّ بوجود عالَمٍ فوطبيعيٍّ غير منظور. وإلاَّ، فكيف يستطيعون أن يُعلّلوا أُمورًا عجيبة مثل شروق الشمس، أو حدوث كسوفٍ أو خسوف، أو هبوب عاصفة رعديّة؟ أمّا الآن، ففي وسعنا تعليل ذلك كلّه، وأكثرَ منه بكثير. وفي وسعنا أنْ نختزل معظم الظواهر الطبيعيّة، بل معظم الظواهر الروحيّة أيضًا، إلى أجزائها المُكوِّنة لها. وكما لاحظ لِويس بشأن التكلُّم بألسنة، فحتّى الأفعالُ الأكثر "فوطبيعيّة" تُعبِّر عن ذاتها على هذه الأرض بطرق "طبيعيّة".

ومن نظريّة "تبديل الوضع"، أستمدُّ الاستنتاجات التالية بشأن العيش في عالم كهذا.

١- أوَّلًا، علينا أن نُقرَّ تمامًا بقوَّة الاختزال الفعّالة. وهذه القوَّة توفِّر لنا بركةً ولعنة في آنٍ واحد. فهي تُباركنا بالقدرة على تحليل الزلازل والعواصف الرعديَّة والأعاصير، وبالتالي على حماية أنفسنا منها. وبالنظر إلى حزمة النور، تعلَّمنا أن نطير- طولَ الطريق إلى القمر والرجوعَ منه- وأن نجول في أنحاء العالم ونحن نُحدِّق إلى صندوق في غُرَف جلوسنا، وأن نأتيَ بأصوات الأُوركسترات إلى آذاننا ونحن نُهرول في أزقَّة قُرانا. وبالنظر إلى أشعَّة السلوك البشريّ، يمكننا أن نميِّز المقوِّمات الكيماويَّة، وبالتالي أن ننقذ الناس، بواسطة الأدوية، من الاكتئاب الشديد وانفصام الشخصيَّة الحادّ.

غير أنَّ الاختزاليَّة جلبت لعنةً أيضًا. فبالنظر إلى حزمة النور بدل النظر على طولها، نُجازِف بتقليص الحياة إلى ما لا يتعدَّى أجزاءها المكوِّنة لها. ولن نُعاين البتَّة أيضًا شروق الشمس أو طلوع القمر بإحساس الرهبة وشبه العبادة الذي شعر به أسلافُنا "البدائيُّون"، أو حتَّى شعراءُ القرن السادس عشر. ثُمَّ إذا قلَّصنا السلوك إلى مُجرَّد هُرمونات وكيمياء، نفقد كلَّ سحر وحرِّيَّة إرادة ورقَّة عواطف. وفجأةً تتقلَّص مُثُل الحبِّ الرومانسيِّ التي ألهمت الفنَّانين والمُحِبِّين على مدى العصور إلى مسألة إفرازاتٍ هرمونيَّة.

وقد يكون للاختزاليَّة تأثيرٌ مُفرط ما لم نُقرَّ بها على حقيقتها، أي بوصفها طريقةَ مُعايَنة. فهي ليست مفهوم "صحيح أم خطأ"، بل وجهة نظر تُحيطُنا علمًا بأجزاء شيءٍ ما، إنَّما ليس بالكلّ.

فالأفعال الروحيَّة مثلًا يمكن النظر إليها على مستوًى أدنى ومستوًى أعلى على السواء. ولا يحلُّ الواحد محلَّ الآخر، بل إنَّ كليهما ينظر إلى السلوك نفسه بمنظار مختلف (كما يختلف النظر إلى دفق النُّور عن النظر على طوله). فمن المنظور "الأدنى"، تبدو الصلاة شخصًا يُكلِّم نفسَه (والتكلُّم بألسنةٍ كذلك بربرةٌ ليس إلّا). أمَّا المنظور "الأعلى" فيفترض أنَّ حقيقةً روحيَّة تنشط في العمل، حيث تؤدِّي الصلاةُ البشريَّة دور نقطة تلامُسٍ بين العالَمين المرئيّ وغير المرئيّ.

قد أَحضرُ حملة تبشير يُقيمها بيلي غراهام كمُشاهِدٍ مُستطلع، ثُمَّ أختار شخصًا

واحدًا من الجمهور الغفير، وأَنظُر بشأن جميع العوامل السوسيولوجيَّة والسيكولوجيَّة التي تحفز هذه المرأة الواحدة على تقبُّل رسالة غراهام. فزواجها ينهار، وهي تبحث عنِ الاستقرار، وتتذكَّر قوَّة جدَّة تقيَّة، والموسيقى تحملها إلى اختبارات طفولتها الكنسيَّة. غير أنَّ هذه العوامل "الطبيعيَّة" لا تُقصي ما هو فائق للطبيعة، بل على العكس قد تكون تلك العوامل الوسيلة التي يختارها الله لحثِّ ذلك الشخص على الرجوع إليه. وربَّما كانت الاستمراريَّة بين الطبيعيِّ والفوطبيعيِّ استمراريَّة تصميم من قبل الخالق عينه. ذلك على الأقلِّ هو منظور الإيمان "الأعلى". فأحد مُستوَيي النظر لا يُقصي الآخر، بل هما طريقتان للنظر إلى الحادثة عينها.

٢- وجهة النظر الدُّنيا، على ما في ذلك من غرابة، قد تبدو أيضًا أسمى من العُليا! تذكَّر سي أس لِويس أنَّه في صغره تعلَّم أوَّلًا أن يُقدِّر الموسيقى الأوركستراليَّة بالاستماع إلى الصوت المنفرد وغير المُميَّز الذي يُصدِره الفونوغراف البدائيّ. فقد كان في وسعه أن يسمع النغم، دون الكثير سواه. وحين ذهب في ما بعد إلى الحفلات الموسيقيَّة الحقيقيَّة، تحرَّر من أوهامه. فإنَّ جمهرةً من الأصوات انطلقت من عدَّة آلات تعزف أنغامًا مختلفة! آنذاك حنَّ إلى "الشيء الحقيقيّ" الذي تمثَّل لأذنه غير المدرَّبة في صوت الفونوغراف الهجين. ففي نظر لِويس، تلك اللحظة، بدا البديل أسمى من الأصيل.

وعلى غرار ذلك، فإنَّ شخصًا تربَّى على نظامٍ ثابت من مشاهدة التلفزيون قد يجد التنزُّه الفعليّ في الجبال، يُكمِّله البعوض وقِصَرُ النَّفَس وتقلُّبات الأحوالِ الجويَّة المزعجة، أدنى من الاختبار البديليِّ الذي يوفِّره البرنامجُ التلفزيونيُّ الخاصّ.

وعلى نحوٍ أوثق صلةً بالموضوع، قد تبدو وجهة النظر الدُّنيا أسمى في الشؤون الخُلقيَّة أيضًا. فإنَّ مثال الحبِّ الرومانسيِّ قد ألهم تأليفَ أروعِ القصائد والروايات والأُوپرات لدينا. ولكنَّ الاختزاليِّين من أمثال هيو هفنر يُحاجُّون الآن، بصراحة ووقاحة، بأنَّ الجنس يكون أسمى حين يُحرَّر من قيود الحُبِّ والعلاقات. (يقينًا أنَّ لمجلَّة

(پلايبوي) جاذبيَّةً غَرَزيَّة تفوق ما لآثار إليزابث باريت براوننغ) ثمَّ إنَّ الدُّنيويِّين الذين يُقصون الدِّين باعتباره عُكّازًا، يُمجِّدون التحدِّيَ "الأكثر بسالة" الذي يشتمل عليه كفاحُ البقاء في هذا العالَم بغير أيِّ انجذاب إلى كائن أسمى.

٣- حقيقة العالَم الأعلى تتضمَّنها قُدرات العالم الأدنى. إنَّ التعبير "تبديل الوضع" ينتمي أصلًا إلى قاموس الموسيقى. فمن الممكن تبديلُ وضع أُغنيةٍ ما من مفتاحٍ موسيقيٍّ إلى آخر، أو تبديلُ وضع قطعةٍ سمفونيَّة مكتوبة لمئة وعشر آلات بحيث تصير نسخة صالحة للبيانو. وبطبيعة الحال، سيضيع شيءٌ في العمليَّة: إذ إنَّ عشر أصابع تضرب مفاتيح البيانو لا تستطيع بأيَّة حال أن تُنتج كلَّ ما تُنتجه الأُوركسترا من ظِلال فروقٍ سمعيَّة. ومع ذلك، فإنَّ مُبدِّل الوضع- وهو مُقيَّد بتشكيلة الأصوات التي تُصدِرها تلك المفاتيح- مُضطرٌّ بطريقة ما إلى نقل جوهر السمفونيَّة بواسطتهنَّ.

وقدِ استشهد سي أس لِويس بمادَّة من مُذكَّرات صمويل پيپس عن حفلة موسيقيَّة مُطرِبة. فقد قال پيپس إنَّ صوت آلات النَّفخ كان عذبًا للغاية بحيث سلب لبَّه، وأضاف: "بكلمة، فقد طوَّق ذلك الصوت نفسي حقًّا حتَّى أمرضني فعلًا، تمامًا كما جرى لي لمَّا كنتُ مُغرَمًا بزوجتي". وقال لويس: حاول تحليل فسيولوجيَّة أيَّة استجابة عاطفيَّة؟ ماذا يحدث في أجسادنا حين نختبر الجمال أو الكبرياء أو الحبّ؟ لقد شعر پيپس حيال ما اختبره بأنَّه فُتِن وأُسر، وإن كان أصابه ما يُشبِه الغثيان. رفسةٌ في المعدة، قُشَعريرة، انقباض عضليّ... لقد عانى ردّات الفعل البدنيَّة عينها التي قد تصيبه في لحظات المرض!

إذا نظرنا إلى استجابتَينا الطبيعيَّتين تجاه الفرح والخوف، من المنظور الأدنى، نجدهما متماثلتَين تقريبًا. ففي كلتا الحالتين تُفرز الغدَّة الكُظْريَّة الهُرمونَ نفسه، وتُطلِق الخلايا العصبيَّة في الجهاز الهضميِّ الموادَّ الكيماويَّة عينها، غير أنَّ الدِّماغ يُفسِّر إحدى الرسالتين فرحًا والأُخرى خوفًا. وللجسم البشريِّ، على مستواه الأدنى، عددٌ محدود

من مفاتيح البيانو للتعبير عن أصوات أُوركسترا كاملة.

ها هنا تنمُّ الاختزاليَّةُ عن نقطة ضعفها الكُبرى: فإن نظرتَ "إلى حزمة الأشعَّة" فقط مُختزِلًا المشاعر البشريَّة إلى مُقوِّماتها الأكثر أساسيَّةً (الخلايا العصبيَّة والهُرمونات)، فقد تستنتج منطقيًّا أنَّ الفرح والخوف هما شيءٌ واحد، والحالُ أنَّهما شِبهُ مُتعارِضَين. فليس في الجسم البشريِّ خلايا عصبيَّة مُصمَّمة خصوصًا لنقل إحساس المتعة... إذ ليست الطبيعةُ مُسرفةً إلى ذلك الحدّ. حتَّى إنَّ جميع اختباراتنا للمتعة تصدر من خلايا عصبيَّة "مُستعارة" تنقل أيضًا إحساسات الألم واللمس والدفء والبرد.

طريقةُ حياة

إنَّ الدِّماغ البشريَّ يُوفِّر نموذجًا لتبديل الوضع يكاد أن يكون كاملًا. فلئن كان الدِّماغ يمثِّل وجهة النظر "العُليا" داخل الجسم، فليس من عضوٍ آخر أكثر منه عُزلةً أو عجزًا. إذ يقبع داخل كُوزٍ من العظم الصفيق، معتمدًا كليًّا على وظائف الجسم الدُّنيا لاكتساب معلوماتٍ عن العالَم. فالدِّماغ لم يرَ قطُّ شيئًا، ولا ذاق شيئًا، ولا أحسَّ شيئًا. إذ تصله جميع الرسائل بالشكل المُشفَّر عينه، حيث تُختزل اختباراتنا الحسِّيَّة الكثيرة إلى مُتتاليات كهربائيَّة، من النُّقَط والشُّرَط (ـــ . ـــ . ـــ ... ـــ). ويعتمد الدِّماغ كليًّا على هذه الرسائل المُرمَّزة حسب نظام مُورس والآتية إليه من الأطراف، ومن ثَمَّ يُركِّبها ليتبيَّن معناها.

وبينما أكتبُ الآن، أستمع إلى سمفونيَّة بيتهوفن التاسعة الرائعة. فليست تلك السَّمفونيَّة إلَّا سلسلة من الرموز تبدَّل وضعُها عبر الزمن والتكنولوجيا. إذ بدأت فكرةً موسيقيَّة "سمعها" بيتهوفن في فكره (وهذه مأثرة عقليَّة فائقة للعادة، لأنَّ المؤلِّف- وقد بات أصمَّ كليًّا آنذاك- كانت له الذاكرةُ فقط يستهدي بها، ولم يكن يستطيع أن يمتحن فكرته على الآلات الموسيقية). ومن ثَمَّ بدَّل بيتهوفن وضع السمفونيَّة إذ دوَّنها على ورق، مستعملًا تشكيلةً من الرموز تُعرَف بكتابة النوتة الموسيقية.

وبعد أكثر من قرن لاحقًا، قرأتْ إحدى الأُوركسترات تلك الرموزَ، وأعادت تركيبها في صوتٍ عظيم يُقارِب ما لا بدَّ أن يكون بيتهوڤن قد "سمعه" في ذهنه. وقد التقط مهندسو التسجيل صوت تلك الأُوركسترا بشكل سلسلة من الانطباعات المغنطيسيَّة على بَكَرة دوّارة، ثمّ بدَّل أحد الاستُديوهات وضْعَ تلك الرموز إلى شكلٍ أكثر آليَّة، وبعد ذلك آلت الأُسطوانة ذات التموُّجات الدقيقة داخل ألبوم الفونوغراف لديَّ.

وقُرصي الدوّار الآن "يقرأ" تلك التموُّجات ويُكبِّر تفاوُتاتها عبر مكبِّرات الصوت. والذبذبات الجُزئيَّة التي تُطلِقها هذه المكبِّرات تطرق أُذنيَّ، دافعةً إلى الحركة سلسلة أُخرى من الأفعال الآليَّة: عُظيماتٌ تقرع طبلتَي أُذنيَّ، ناقلةً الذبذبات عبر سائل لزج إلى داخل "أُرغن كُورتي"، حيث ٢٥,٠٠٠ خليَّة مُستقبِلة للصوت تلبث مُنتظِرةً. وما إن تتلقَّى الخلايا المَعنيَّةُ الحفز، حتَّى تُطلِق رسالتها الكهربائيَّة. أخيرًا تصل هذه الانطباعات– وهي مجرَّد نُقَط وشُرَط مُشفَّرة– إلى دماغي، حيث تُركِّبها شاشةُ القشرة الدماغيَّة في صوتٍ أُميِّزه بوصفه سمفونيَّة بيتهوڤن التاسعة. وأنا أختبر المتعة، بل البهجة أيضًا، إذ أتمهَّل لأستمع إلى تلك الرائعة الموسيقيَّة، حيث يُحمَل إليَّ الفرحُ مجدَّدًا عبر وظائف جسمي "الدُّنيا".

وفي الواقع أنَّ تبديل الوضع طريقةُ حياة. فكلُّ معرفة إنَّما تأتينا من خلال عمليَّة نقل هابطةٍ إلى الرموز ثمَّ صاعدةٍ إلى المعاني. وها قد كتبتُ ثلاث فقرات عن سمفونيَّة بيتهوڤن التاسعة. وكانت هذه أفكارًا نشأت في ذهني، بدَّلتُ وضعها من ثَمَّ إلى كلمات، وطبعتُها داخل كومپيوتر سجَّلها رموزًا على قرص مغنطيسيّ. وفي آخر المطاف، سوف يُبدِّل كومپيوتري وضع الرموز المغنطيسيَّة إلى رموز شَرْطيَّة، ثُمَّ يُبدِّل جهازٌ يُدعى "مودِم" وضع تلك الرموز الشَّرْطيَّة إلى أصواتٍ رقميَّة يرسلها عبر أسلاك الهاتف إلى ناشرِ كُتبي. ولو أصغيتُ فيما مُودِمي يبعث الفقرات الثلاث المتعلِّقة ببيتهوڤن، لَما سمعتُ شيئًا سوى غمامةٍ من الشَّواش. غير أنَّ ذلك الشَّواش سيكون مشتملًا بطريقةٍ ما على أفكاري وكلماتي.

ثُمَّ إنَّ كومپيوتر الناشر، إذ يتلقَّى الأصوات الرقميَّة، سيُرجِعها إلى رموز مغنطيسيَّة

مخزونة على قرص. وسيُحوِّل الناشر تلك الرموز مجدَّدًا إلى كلماتٍ مرئيَّة على شاشة، ويُحرِّرها، ثمَّ يُبدِّل وضع الكلمات إلى علامات حِبر نموذجيَّة على وَرَق هي بعينها علاماتُ الحِبر هذه التي تقرأُها أنت الآن. وبالنسبة إلى عينيك المدرَّبتين، فإنَّ لطخات الحِبر هذه على الصفحة تُشكِّل حروفًا وكلماتٍ تُنقل إلى خلايا عينيك ويُبدَّل وضعُها إلى انطباعات كهربائيَّة يركِّبها دماغك معانيَ من نوع ما.

فإنَّ كلَّ تواصُل، وكلَّ معرفة، وكلَّ اختبار حسّيّ– بل كلَّ حياة على هذا الكوكب– تعتمد على عمليَّة تبديل الوضع، حيث يرحل المعنى "هبوطًا" إلى رموز يُمكِن إعادةُ تركيبها في ما بعد. ونحن نثق غريزيًّا بهذه العمليَّة، معتقدين أنَّ الرموز الأدنى تحمل بالفعل شيئًا ما من المعنى الأصليّ. فإنَّ لي ثقة بأنَّ الكلمات التي أختارها، بل أيضًا ما يبعثه مُودِمي من مُرسَلات شَواشيَّة، سوف تحمل أفكاري الأصليَّة عن سمفونيَّة بيتهوڤن التاسعة. وإذ أنظر مثلًا إلى صورة فوتوغرافيَّة تظهر فيها جبال روكي الخلّابة مُبدَّلةَ الوضع على بطاقة صغيرة مُسطَّحة لمّاعة، فأحيا عقليًّا من جديد نُزهةً قمتُ بها هناك. أو هَبني أحكُّ إعلانًا في مجلَّة لأشتمَّ عيِّنة عطرٍ ما، فإذا بصورة زوجتي التي تتعطَّر بذلك العطر تخطر على بالي حالًا. ففي الواقع أنَّ الأدنى يحمل شيئًا ما من الأعلى.

تبديل الوضع على صعيد الروح

أينبغي إذًا أن نُفاجأ إذا وجدنا المبدأ الشامل بعينه ساريًا في عالَم الروح؟ عُد بفكرك إلى أسئلة رشيدِ الثلاثة المُثبَتة في أوائل هذا الكتاب، والمذكورة مجدَّدًا في بداية هذا الفصل. فلماذا لا يتدخَّل الله ويُعلِن ذاته بوضوح؟ ولماذا لا يتكلَّم بصوتٍ عالٍ فيتسنَّى لنا أن نسمعه؟ إنَّنا نتوق إلى معجزة، إلى الفوطبيعيّ بشكله النقيّ غير المَمذوق؟[1]

[1] المَذوق هو الممزوج أو المغشوش.

وقدِ اخترتُ التعبير "غير المَذوق" عمدًا، لأنَّه ينمُّ عن معنًى لطيفٍ هو جوهريٌّ في هذه المسألة. فنحن المُحدَثين نجهد لفصل الطبيعيِّ عنِ الفوطبيعيّ. والعالم الطبيعيُّ الذي يمكننا أن نلمسه ونشمَّه ونسمعه يبدو واضحًا بذاته. أما العالَم الفوطبيعيُّ فشأنٌ آخر. إذ لا شيءَ يقينيًا يخصُّه، وليس له جِلد؛ وذلك يُضايُقنا. فنحن نريد برهانًا. نريد للعالَم الفوطبيعيّ أن يدخل الطبيعيَّ بطريقةٍ تُبقي على أَلَقه، وتُخلِّف علاماتِ انسِفاعٍ ثابتة، وتقرع طَبلة الأذن قرعًا مُدوِّيًا.

إنّما لا يبدو أنَّ الإله المُعلَن في الكتاب المقدَّس يشاركنا في هذه الرغبة. فبينما نفسخ الطبيعيَّ عن الفوطبيعيّ، والمنظورَ عن غير المنظور، يُعنى الله بأن يُقرِّبهما الواحد من الآخر. ولنا أن نقول إنَّ هدفه هو أن يُنقذ العالَم "الأدنى"، أن يُعيد عالَم الخليقة الساقطة الطبيعيَّ إلى حالته الأصليَّة، حيث كان الروح والمادَّة يُقيمان معًا في وئام.

وحين نصير مسيحيِّين حقًّا، وبذلك نُوطِّد الاتِّصال بالعالَم غير المنظور، لا نُقَلُّ على نحوٍ غامض إلى المَلإِ الأعلى؛ إذ لا نرتدي فورًا أجسادَ بذلاتٍ فضائيَّة تنقلُنا نهائيًّا من العالَم الطبيعيّ (منذ الغنوصيِّين والمانوخيِّين، ما برحت الكنيسة تحكم على أفكارٍ كهذه بأنَّها هرطوقيَّة). إلاَّ أنَّ أجسادنا الطبيعيَّة بالأحرى تعود إلى الاتِّصال بالحقيقة الروحيَّة، ونباشر الإصغاء إلى نظام الرموز الذي يُبدِّل بواسطته العالَم غير المنظور وضعَه ليتداخل بهذا العالَم. ولنا أن نقول إنَّ مهمَّتنا هي نقيضُ الاختزاليَّة تمامًا. فنحن نبحث عن طُرق كي نُعيد السِّحر إلى هذا العالم أو "نُقدِّسه": كأن نرى في الطبيعة آلةَ حمدٍ وتسبيح، أو أن نرى في الخبز والخمر مُمارسةً عجيبة من مُمارسات النِّعمة، أو أن نرى في الحبِّ البشريِّ ظِلاًّ للحُبِّ المثاليّ.

ونحن نُسلِّم جدلًا بأنَّ في حوزتنا قاموسًا محدودًا في ما يتعلَّق بذلك العالَم الأعلى. إذ إنَّنا نتكلَّم إلى الله مثلما نُكلِّم أيَّ شخصٍ آخر. فهل يُعقَل أن يكون أيُّ شيءٍ أكثرَ مألوفيَّةً، أو أكثر "طبعيَّة"، من هذا؟ يُقال لنا إنَّ الصلاة وإذاعة بشارة الإنجيل وتأمُّل الكلمة المقدَّسة والصوم وتقديم كأس ماء بارد وزيارة المحبوسين وممارسة

وسائط النِّعمة- هذه الأفعال اليوميَّة- تحمل كلُّها المعنى "الأسمى". فهي تُعبِّر عن العالم غير المنظور، بطريقةٍ من الطُّرق.

وعند النظر من المنظور الاختزاليِّ الأدنى، تُعطى جميعُ الأفعال الروحيَّة "تفسيرات" طبيعيَّة. فالصلاة غَمغمةٌ في الفراغ؛ والخاطئ التائب عاطفيَّةٌ مُفتعَلة؛ ويومُ الخمسين تدفُّقُ سُكر.

غير أنَّ الإيمان، إذ ينظر على طول حزمة الأشعَّة، يرى في مثل هذه الأفعال الطبيعيَّة ناقلاتٍ للأُمور الفوطبيعيَّة. ومن ذلك المنظور، لا يظهر العالَم الطبيعيُّ مسلوبَ القوَّة من جرّاء المعجزة، بل مُنعَمًا عليه بغنًى بفضلها. ثُمَّ إنَّ معجزة العالَم الطبيعيِّ المُصلَح بلغت نُقطةَ ذُروةٍ في المعجزة الجليلة، حين اتَّخذت حضرةُ الله الفعليَّة مسكنًا لها في جسمٍ "طبيعيّ" كأجسامنا تمامًا، إذ بدَّل الكلمة وضعَه لمَّا صار جسدًا.

وفي جسمٍ واحد، قرَّب المسيح العالَمَين أحدَهما من الآخر تمامًا، رابطًا بينَ الروح والمادَّة بعد طولِ انتظار، مُوحِّدًا الخليقة بطريقة لم تُرَ قطُّ منذ أيَّام عَدْن. ويُعبِّر اللاهوتيُّ يورغن مُلتمَنّ عن ذلك على النحو التالي، في عبارةٍ تستحقُّ كثيرًا من التفكير: "التجسُّد هو غاية أعمال الله كلِّها". وبتعبيرِ الرسول بولس: "وهو رأس الجسد، الكنيسة... لأنَّه فيه سُرَّ أن يحلَّ كلُّ الملء (الإلهيّ)، وأن يُصالح به الكلَّ لنفسه، عاملًا الصُّلحَ بدم صليبه، بواسطته: سواءٌ كان ما على الأرض، أم ما في السماوات".

وعندما صعد ذلك الكلمةُ الذي صار جسدًا، ترك حضوره الفعليَّ في صورة جسده، أي الكنيسة. حتَّى إنَّ لطفنا يصير لطف الله فعلًا ("بما أنَّكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر، فبي فعلتم") ومعاناتنا تصير، بكلماتِ بولس، قسطًا من "شركة آلامه". وأفعالُنا تصير أفعالَه ("مَن يقبلكم يقبلني"). وما يصيبنا يُصيبه ("شاول، شاول، لماذا تضطهدني؟"). فالعالَمان، المنظور وغير المنظور، يندمجان في المسيح؛ ونحن- كما ظلَّ بولس يُصرُّ- موجودون "في المسيح" بصورة حقيقيَّة فعلًا. حقًّا إنَّ التجسُّد هو غاية أعمالِ الله كلِّها، وهدفُ الخليقة بمجملها!

مِن تحت، نميل إلى التفكير بالمعجزة كما لو كانت غزوًا، أي اقتحامًا للعالَم الطبيعيِّ بقوَّة مُذهِلة، ونتوق إلى آياتٍ من هذا النوع. أمَّا من فوق، من وجهة نظر الله، فالمعجزة الحقيقيَّة معجزةُ تبديل وضع: أنَّ الأجساد البشريَّة يمكن أن تصير أوانيَ مملوءة بالروح؛ أنَّ الأفعال البشريَّة المُعتادة في نطاق الإحسان واللُّطف قد تصير تجسُّداتٍ لله على الأرض، لا أقلّ.

وإكمالًا للتشبيه، لا داعيَ لأن أُفتِّش بعيدًا عن كلام الرسول بولس، لأنَّ الصورة التي يرسمها لوصف دور المسيح في العالَم اليوم هي الصورة التي استعملتُها لإيضاح تبديل الوضع. فقد قال بولس إنَّ المسيح يقوم الآن بدور رأسِ الجسد. ونحن نعلم كيف يُتمِّم رأس الإنسان مشيئته: بنقل الأوامر نزولًا في رموزٍ يمكن أن تفهمها اليدان والعينان والفم. والجسد السليم المُعافى هو ذاك الذي يعمل بمشيئة الرأس. فبالطريقة ذاتها، يُتمِّم المسيحُ المُقام مشيئته بواسطتنا، نحن أعضاءَ جسده.

هلِ الله صامت؟ أُجيبُ عن هذا السؤال بسؤالٍ آخر: هلِ الكنيسة صامتة؟ إنَّنا نحن الناطقون بلسانه، أوتارُه الصوتيَّة المُختارة على هذا الكوكب. ومن شأن خُطَّةِ تبديل وضعٍ جليلٍ كهذا أن تضمن أنَّ رسالة الله ستبدو أحيانًا مشوَّشة أو مُفكَّكة، كما تضمن أنَّ الله سيبدو صامتًا أحيانًا. غير أنَّ التجسُّد كان هدفه تعالى، وفي ضوء ذلك يصير يومُ الخمسين استعارةً كاملة: صوت الله على الأرض، مُتكلِّمًا من خلال كائناتٍ بشريَّة بطريقةٍ حتَّى هم لا يستطيعون إدراكها.

الرجاء

لنا صديقة متألِّقة وموهوبة ومَرِحة جدًّا في سِياتل اسمُها كارولين مارتن. ولكنَّ كارولين مُصابة بشلل دماغيّ. والمأساة الخاصَّة في حالتها أنَّ علاماتها الخارجيَّة- من سيلان لُعاب وحركة ذراعين مُتخبِّطة ونُطق مُتلعثِم واهتزاز رأس- تحمل الأشخاص الذين يُقابِلونها على التساؤل عن كونها مُعاقة. وفي الواقع أنَّ عقلها هو مِن جسمها ذلك

الجزءُ الذي يعمل على أكمل وجه؛ غير أنَّها تفتقر إلى السيطرة على عضلاتها.

أقامت كارولين خمس عشرة سنة في دارٍ للمتخلِّفين عقليًّا، لأنَّ الدَّولة لم تستطع تأمين مكان آخر لها. وكان أصدقاءَها الحميمين أشخاصٌ مثل لاري الذي كان يُمزِّق ثيابه كلَّها ويأكل نباتات المؤسَّسة البيتيَّة، وأريلين التي كانت تعرف ثلاث جُمَل فقط وتُنادي كلَّ شخصٍ بلفظة "ماما". وقد عقدت كارولين عزمها على أن تفرَّ من تلك الدار، وتجد لها مكانًا في العالَم الخارجيّ.

وفي النهاية، تيسَّر لها أن تنتقل من الدار وتفتح بيتًا خاصًّا بها. وهُناك، مثَّلت أبسطُ الأعمال المنزليَّة تحدِّيًا قاهرًا. فقد استغرق تعلُّمُها كيف تصنع إبريق شاي وتسكبه في فناجين بغير أن تُحرِق نفسها ثلاثةَ أشهُر. ولكنَّها أتقنت تلك المأثرة، وكثيرًا غيرها. وقد تسجَّلت في المدرسة الثانويَّة، وتخرَّجت، ثُمَّ انتسبت إلى الجامعة الأهليَّة.

عُرِفت كارولين في الجامعة بوصفها "الفتاة المُقعَدة". فقد كان الطلاَّب يَرونها على كرسيِّها المُدولَب، حانية الظهر، تطبع المُلاحظات بواسطة جهازٍ خاصٍّ مصنوع لأمثالها. وكان أقِلاَّءُ يشعرون بالراحة لدى محادثتها، إذ عسر عليهم أن يُتابِعوا أصواتها المُلخبطة. ولكنَّ كارولين ثابرت وكافحت، مُمدِّدةً دراسةً تستغرق سنتين للحصول على شهادة مُساعِدة فَنيَّة إلى سبع سنين. على أثر ذلك تسجَّلَت في كلِّيَّة لوثريَّة لتدرس الكتاب المقدَّس. وبعد سنتين هناك، طُلِب منها أن تتكلَّم إلى زملائها الطلاَّب في اجتماع صلاةٍ عامّ.

قضت كارولين ساعاتٍ طويلة في إعداد خطابها. ثمَّ طبعت المُسوَّدة الأخيرة- بمعدَّلٍ مقدارُه خمسًا وأربعين دقيقة للصفحة الواحدة- وكلَّفت صديقتها جُوزي قراءة الخطاب عنها. وكانت جُوزي ذات صوت قويٍّ وجليّ.

ويومَ اجتماع الصلاة، جلست كارولين مُترهِّلةً في كرسيِّها المُدولَب إلى يسار المنبر. وكان ذراعاها ينتفضان أحيانًا بغير سيطرةٍ منها، وقد تدلَّى رأسها إلى جهةٍ واحدة حتَّى كاد يُلامِس كتفها، ودفقٌ من اللُّعاب يسيل أحيانًا على قميصها. وقد وقفت جُوزي

بقربها، تقرأ النثر الجميل والعميق الذي ألِّفته، وكان يتركَّز حول هذه الآية الكتابيَّة المقدَّسة: "ولكنْ لنا هذا الكنز في أوانٍ خزفيَّة، ليكون فضل القوَّة لله، لا منّا".

آنذاك، أوَّلَ مرَّة، رأى بعض الطلاَّب كارولين كائنًا بشريًّا كاملًا، شأنُها شأنُهم. قبلئذٍ كان عقلُها، وهو عقلٌ صالح وراجح، أسيرَ الكبح من قِبَل جسمٍ "غير مُطيع"، كما أنَّ صعوبات النُّطق قنَّعت ذكاءها. ولكنَّ الطَّلَبة، إذ سمعوا خطابها يُتلى عليهم جهرًا فيما هم شاخصون إليها على المسرح، استطاعوا أن يتخطَّوا بأبصارهم جسمَها الذي يأسره الكرسيُّ المُدولَب فيتصوَّروا شخصًا كاملًا.

لقد أخبرتني كارولين عن ذلك اليوم بنُطقها المُتعثِّر، ولم أستطع أن أفهم إلاَّ نصف كلماتها تقريبًا. ولكنَّ المشهد الذي وصفته صار عندي مَثَلًا في تبديل الوضع: عقلٌ كامل محبوسٌ داخل جسم مُصابٍ بالشَّلل التشنُّجيّ، تتعذَّر السيطرة عليه، وأوتارٌ صوتيَّة تُخفِق عند كلِّ مقطعٍ تالٍ. وقدِ اكتسبَتْ صورةُ المسيح في العهد الجديد بوصفه رأس الجسد معنًى جديدًا، إذ كسبتُ وعيًا في آنٍ واحدٍ للاتِّضاع الذي يتحمَّله المسيح بدوره رأسًا للجسد وأيضًا للارتفاع الذي يسمح لنا به، نحن أعضاءَ جسده.

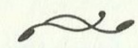
فنحن، وأعني الكنيسةَ، مَثَلٌ على تبديل الوضع بالغًا أقصاه. والمؤسِف أنَّنا لا نُقدِّم بُرهانًا لا يقبل الجدل على محبَّة الله ومجده. فأحيانًا، على شاكلة جسم كارولين، نجعل الرسالة غامضة بدل أن ننقلها بوضوح. غير أنَّ الكنيسة هي السبب الكامن وراء الاختبار البشريّ بمُجمله، بل سبب وجود كائناتٍ بشريَّة في المقام الأوَّل: أن يُتاح لخلائقَ آخرين غير الله حَملُ صورة الله. وهو تعالى استحسن أن يعدَّ الأمر مستحقًّا للمغامرة، وللاتِّضاع.

الذي نزل هو الذي صعد أيضا فوق جميع السماوات، لكي يملأ

الكلّ. وهو أعطى البعض ... رُسلًا، والبعض أنبياء، والبعض مبشّرين، والبعض رعاةً ومعلّمين، لأجل تكميل القدّيسين لعمل الخدمة، لبنيان جسد المسيح، إلى أن ننتهي جميعًا إلى وحدانيَّة الإيمان ومعرفة ابن الله، إلى إنسان كامل، إلى قياس قامة ملء المسيح. كي لا نكون في ما بعد أطفالًا... بل صادقين في المحبّة، ننمو في كلّ شيء إلى ذاك الذي هو الرأس: المسيحُ الذي منه كلُّ الجسد مركّبًا معًا، ومقترنًا بمؤازرة كلّ مَفصِل، حسب عملٍ على قياس كلّ جزء، يُحصّل نموَّ الجسد لبنيانه في المحبّة.

الشواهد الكتابيَّة: كولوسّي ١؛ متّى ٢٥؛ فيلبّي ٣؛ متّى ١٠؛ أعمال ٩؛ ٢كورنثوس ٤؛ أفسس ٤.

لماذا تحجب وجهك، وتحسبني عدوًّا لك؟
أترعب ورقة مندفعة، وتُطارد قشًّا يابسًا؟
أيُّوب ١٢:٢٤ و٢٥



٢٨

هلِ اللهُ مُختبئٌ؟

للحصول على كامل التأثير العاطفيّ لبليَّة أيُّوب، غربلتُ خُطَب السِّفر طلبًا لكلمات أيُّوب الخاصَّة. وتوقَّعتُ أن أراه يتشكَّى من انهيار صحَّته ويرثي فقدان أولاده وثروته؛ ولكنَّ ما فاجأني أنَّه كان لديه القليل نسبيًّا يقولُه في هذه الأُمور. إلاَّ أنَّه بالأحرى ركَّز على الموضوع الفرد المتمثِّل في غياب الله. فما آلمه أشدَّ الإيلام كان شعوره بأنَّه يصرخ يائسًا فلا يتلقَّى أيَّة استجابة. وقد سمعتُ ذلك الشعور عينه موصوفًا بأقلام كثيرٍ من المتألِّمين، وربَّما كان الوصف الأفضل هو ذاك الذي خطَّه سي أس لِويس، إذ كتب الكلمات التالية في خضمّ غمِّه الشديد بعد وفاة زوجته بالسرطان:

> أين الله في هذه الأثناء؟ هذا واحدٌ من الأعراض الأشدِّ إقلاقًا. عندما تكون مسرورًا، بل مسرورًا جدًّا بحيث لا يُخالجك شعورٌ بالاحتياج إلى الله، فعندئذٍ يُرحِّب بك بذراعين مفتوحتين... أو هكذا يُخيَّل إليك. ولكنِ اذهب إليه حين تكون حاجتك ماسَّة جدًّا، حين يكون كلُّ عونٍ آخر باطلًا، فماذا تَلقى؟ بابًا يُسفَق في وجهك، وحسَّ إقفالٍ للسان المزلاج، بل اقفالٍ مضاعَف، من الداخل. وبعد ذلك، يسود الصمت. ولعلَّه خيرٌ لك أن تدور وتمضي. فكلَّما

طال انتظارك، صار الصمت أشدَّ وأدهى.

وفوق كلِّ شيءٍ آخر، طالب أيُّوب بفرصة لعرض قضيَّته أمام الله. فإنَّ تُقَويَّات أصدقائه تناثرت كما تتناثر البراغيث من حيوان أليفٍ ينتفض. وقد أراد الأمر الحقيقيَّ: موعد مُقابلة شخصيَّة مع الله القدير. فعلى الرُّغم ممَّا جرى، لم يستطع أيُّوب أن يحمل نفسه على الإيمان بإلهٍ قاسٍ جائر. وإذا تقابلا، فلعلَّه على الأقلِّ يسمع رأي الله في الأُمور. غير أنَّه لم يعثر على الله في أيِّ مكان. ولم يسمع سوى كلام أصدقائه الشبيه بإنشاد الشحّاذين المُنتحِبين، ثُمَّ ساد صمتٌ خاوٍ رهيب. لقدِ انسفق الباب في وجهه!

حقيقةُ إيمان

أيُّها الربُّ الحبيب،
أُريد حقًّا أن أراك
أُريد حقًّا أن أكون معك...

(منظومة جورج هاريسون)

أعلم أنَّ الله حيّ: لقد تحدَّثتُ معه هذا الصباح!

(مُلصَق على مصدِّ سيّارة)

الله يحبُّك ولديه خطَّة عجيبة لحياتك.

(كُرّاسة تبشيريَّة)

يمشي معي ويحكي معي، ويقول لي إنِّي له.

(ترنيمة روحيَّة)

إنَّ الشوق البشريَّ إلى حضور الله الفعليِّ قد يخطر في البال في أيِّ مكان تقريبًا. ولكنَّنا لا نجرأ أن نُصرِّح تصريحاتٍ شاملة بشأن وعد الله بحضوره الحميم بغير أن نأخذ في

الحسبان تلك الأوقاتَ التي يبدو فيها الله غائبًا. ذلك ما واجهه سي أس لِويس، وواجه أيُّوب، وواجهه رشيد، ولا بدَّ أن يواجهه كلُّ امرىءٍ تقريبًا في وقتٍ من الأوقات، ألا وهو حقيقة احتجاب الله.

قد تهبط غمامةُ اللامعرفة دون إنذار، وأحيانًا في ذات اللحظة التي نتوق فيها بأكثر إلحاح إلى الشعور بحضور الله. فإنَّ خادمًا للربِّ من جنوب أفريقيا، هو المُحترَم آلان بُويْسَك، طُرح في السجن بتهمة التعرُّض للحكومة، حيثُ قضى ثلاثة أسابيع في زنزانة انفراديَّة، جاثيًا على ركبتيه بصورة شبه دائمة، طالبًا أن يُحرِّره الله. وقد حكى لجمهور المؤمنين في ما بعد قائلًا: "لا حَرَج عليَّ إن قلتُ لكم إنَّ ذلك كان أصعب وقت في حياتي. فبينما أنا جاثٍ هناك، خانتني الكلمات وجفَّ دمع عينيَّ." وقد كان اختباره اختبارًا مشتركًا بين السُّود في جنوب أفريقيا: إذ يُصلُّون، ويبكون، وينتظرون، ومع ذلك لا يستدرُّون استجابةً من لَدُنِ الله.

قد يُحاجُّ بعضٌ بأنَّ الله لا يختبئ. وعلى أحد مُلصقات المِصدّات قرأتُ هذه الكلمات: "إذا شعرتَ بأنَّك بعيدٌ عنِ الله، فخمِّن مَنِ ابتعد!" إلاَّ أنَّ الشعور بالذنبِ المُضمَّنَ في هذا الشعار قد يكون شعورًا زائفًا: فسِفر أيُّوب يتناول بالتفصيل وقتًا بدا فيه أنَّ الله هو مَن ابتعد. فمع أنَّ أيوب لم يرتكب أيَّ خطأ وتوسَّل يائسًا لأجل المعونة، آثر الله أن يبقى مختبئًا. (إن شككتَ في أنَّ مواجهةً ما لاحتجاب الله هي جزءٌ عاديٌّ من مسيرة الإيمان، فما عليك إلاَّ أن تتصفَّح في مكتبةٍ لاهوتيَّة آثار الصوفيِّين المسيحيِّين، وهم رجالٌ ونساء طوَوا أعمارهم في شركة شخصيَّة مع الله، وأن تبحث عن شخصٍ واحد فقط من بينهم لا يصف وقت محنةٍ قاسية، "ليلَ نفسٍ مُظلِمًا").

ولأولئك الذين يُعانون الآلام، كما للذين يقفون بجانبهم، يُقدِّم أيُّوب درسًا مهمًّا: أنَّ الشكوك والشكاوى الصادرة من أمثال مغ وُدسُن وآلان بُويْسَك وأيُّوب هي ردود فعل جليَّة، لا أعراضٌ تنمُّ عن إيمانٍ ضعيف، وهي جليَّةٌ جدًّا بالحقيقة حتَّى إنَّ الله حرص على أن يشتمل الكتاب المقدَّس عليها كلِّها. فالمرء لا يتوقَّع أن يجد بين دفَّتي

الكتاب المقدَّس مُجادَلات خصوم الله، مثل مؤلِّف مارك تُوين "رسائل من الأرض" أو مؤلَّف برتراند رَسِل "لماذا لستُ مسيحيًا"، ولكنَّ جميع تلك المجادلات تقريبًا تظهر فعلًا، إن لم يكن في أيُّوب ففي المزامير أو الأنبياء. ويبدو أنَّ الكتاب المقدَّس استبق خيباتنا، كما لو كان الله يُزوِّدنا مقدَّمًا بالأسلحة التي سنستخدمها ضدَّه، باعتباره تعالى يعي كلفة تعزيز الإيمان.

ثُمَّ إنَّ الله، بسبب المسيح، يتفهَّمنا حقَّ التفهُّم. ففي جَتسيماني وجُلجثة، وبطريقةٍ من الطُرق لا يُعبَّر عنها، اضطرَّ الله نفسُه إلى مواجهة احتجاب الله. "الله يُجاهِد مع الله": على هذا النحو عبَّر مارتن لوثر بإيجازٍ شديد عن الصراع الكونيِّ الذي جرت وقائعه على خشبتين مُتصالبتَين. ففي ذلك الليل الحالك، اختبر الله بنفسه إلى أقصى مدًى ما يعنيه شعور المرء بأنَّ الله تخلَّى عنه.

أصرَّ أصحاب أيُّوب على أنَّ الله لم يكن مُختبئًا. وقد أتَوا بمُذكِّرات شتَّى- من أحلامٍ ورؤى وبركاتِ الماضي وعجائب الطبيعة- ليُبيِّنوا كيف أثبت الله ذاتَه لأيُّوب في ما مضى. وقد كانت فحوى تقريعهم له: "لا تنسَ في الظلام ما تعلَّمتَه في النُّور!"

ونحن الذين نعيش بعد أيُّوب لدينا أيضًا مزيدٌ من النُّور: سجلُّ النبوَّات المُتمَّمة وسيرة يسوع المسيح. ولكنْ أحيانًا تُخفِق جميع التبصُّرات أو "البراهين" كلَّ الإخفاق. فمُجرَّد الذكرى، مهما كانت بهيجة، لَن يقتل الألَم ولن يُبدِّد الوحدة. وربَّما، إلى حين، أخفقَت كذلك أيضًا جميعُ آيات الكلمة المقدَّسة وجميع الشعارات المُلهِمة.

ثلاثُ استجابات

إنَّني أعرف جيِّدًا استجابتي الغريزيَّة الخاصَّة حيال احتجاب الله: فأنا أردُّ بتجاهُله. وكطفلٍ يظنُّ أنَّه يستطيع الاختباء عن الكبار بوضع يدٍ لحيمة على عينيه، أُحاولُ إقصاء الله عن حياتي. فإن كان لا يُظهِر ذاته لي، فلماذا أعترف به؟

هذا، ويُورِد سفرُ أيُّوب استجابتَين أُخرَيين لخيبة أملٍ بالله من هذا النَّوع. الأُولى

أبداها أصدقاء أيُّوب الذين روَّعتهم هجماته على معتقدات إيمانهم الأكثر جوهريَّةً. فإنَّ خيبة أمل أيُّوب الشديدة بالله لم تُضاهِ لاهوتيَّاته. وقد رأوا خِيارًا محدَّدًا بين إنسان يدَّعي أنَّه بارٌّ وإلهٍ يعلمون أنَّه بارّ. إنَّنا نعلم حقًّا أنَّ الله ليس ظالمًا أو جائرًا. لذا كُفَّ عن تفكيرك هذا! عيبٌ عليك أن تقول ما تقوله من أُمورٍ شائنة!

أمَّا الاستجابة الثانية، وهي استجابةُ أيُّوب، فكانت خليطًا استطراديًّا، طِباقًا تصادُميًّا لمنطق أصدقائه الذي لا يرحم. "لماذا أخرجتَني من الرَّحم؟ كنتُ قد أسلمتُ الروح ولم ترَني عين؟" هكذا خاطب أيُّوب الله متسائلًا. وقدِ اندفع أيُّوب مُقدِّمًا احتجاجًا كان يعلم أنَّه عقيم، كعصفور يصطدم مرارًا بزجاج نافذة. وكان بيده قليلٌ من الحجج القويَّة، حتَّى إنَّه اعترف بأنَّ منطق أصدقائه بدا سليمًا. فترنَّح، وناقض ذاتَه، ونهج نهجًا مُعاكسًا، كما انهار أحيانًا في يأسٍ مُطبِق. وإذا بهذا الرجل الشهير ببرِّه يتوجَّه إلى الله بلوم جارح: "كُفَّ عنِّي فأتبلَّج قليلًا، قبل أن أذهب ولا أعود، إلى أرضِ ظلمةٍ وظلِّ الموت".

والآن، أيُّ الاستجابتين يُصادِق عليها السِّفر؟ كِلا الفريقين احتاج إلى شيءٍ من التوبيخ والتقويم، ولكنْ بعد التفوُّه بجميع الكلمات العاصفة، أمرَ الله أصدقاء أيُّوب الأتقياء بأن يزحفوا إلى أيُّوب تائبين، ويطلبوا منه أن يُصلِّي لأجلهم.

فإحدى الرسائل الجريئة في سفر أيُّوب أنَّ في وسعك أن تقول لله أيَّ شيء. اطرح عليه غمَّك وغضبك وشكَّك ومرارتك وخُذلانك وخيبتك... إنَّه يستطيع أن يستوعب ذلك كلَّه. وفي أحيانٍ غير نادرة، يُصوِّر عمالقة الكتاب المقدَّس الروحيُّون وهم يُجادِلون الله فعلًا. فهُم يؤثِرون أن يمضوا وهم يعرجون، مثل يعقوب، على أن يَصدُّوا الله ويُبعِدوه.

وفي هذا المجال، يُصوِّر الكتاب المقدَّس مُقدَّمًا أحد معتقدات علم النفس الحديث: ليس في وسعك حقًّا أن تنكر مشاعرك أو تُلاشِيَها، ولذلك يحسن بك أن تُعبِّر عنها. فإنَّ الله قادرٌ على التعامُل مع جميع الاستجابات البشريَّة، ما عدا واحدة. ذلك أنَّه لا يستطيع أن يتحمَّل الاستجابة التي ألجأ إليها على نحوٍ غريزيّ: محاولةُ تجاهُلِه أو مُعاملته كما لو كان غير موجود. وهذه الاستجابة لم تخطر قطُّ على بال أيُّوب ولو مرَّةً واحدة!

الصورة الكبيرة

غير أنَّ حريَّة التعبير عن المشاعر ليست الدرسَ الوحيد الذي نتعلَّمه من أيُّوب. فإنَّ مشهد المجريات في العالَم غير المنظور "خلف الستارة" يُبيِّن أنَّ مواجهةً لاحتجاب الله قد تكون مُضلِّلة على نحوٍ سيِّءٍ. إذ إنَّها قد تُجرِّبنا بأن نرى الله كما لو كان هو العدوَّ وأن نُفسِّر احتجابه كما لو كان قلَّة اهتمام.

ذلك هو ما استنتجه أيُّوب تمامًا عن الله: "غضبُه افترسني واضطهدني". ونحن الجالسين بين المُشاهدين نعلم أنَّ أيُّوب كان على خطأ، لسببٍ بسيطٍ هو أنَّ مقدِّمة السِّفر التمهيديَّة تُشير إلى فارق دقيق- لكنْ مهمّ- مُتمثِّلٍ في كون الله لم يُسبِّب شخصيًّا مُعانَيات أيُّوب. صحيحٌ أنَّه سمح بها، ولكنَّ خبر الرِّهان يُقدِّم الشيطان، لا الله، بوصفه المُحرِّضَ عليها. ومهما كان، فإنَّ الله يقينًا لم يكُن عدوَّ أيُّوب. حاشا أن يكون الله قد تخلَّى عن أيُّوب، ولكنَّه كان يُخضِعه لفحصٍ دقيق مُباشر يكاد أن يكون ميكروسكوبيًّا. ولحظةَ كان أيُّوب يلتمس إجراء محاكمة قضائيَّة لعرض دعواه، لحظتئذٍ كان بالفعل مُشارِكًا في محاكمةٍ ذات أهميَّة كونيَّة- لا كمُدَّعٍ عامٍّ يُوجِّه سبَّابته إلى الله، بل بوصفه الشاهدَ الرئيس في امتحانِ إيمان.

لا يمكن أن نستنتج إطلاقًا أن تجاربنا، على غرار تجارب أيُّوب، قد رتَّبها الله خصوصًا للبتِّ في شأنٍ حاسم من شؤون الكون. ولكنْ لنا أن نفترض بغير محاذير أنَّ مدى رؤيتنا المحدود سيُشوِّه الحقيقة بطريقة مماثلة. فالألم يُضيِّق الرؤية. إذ يَضطرُّنا إلى التفكير بأنفسنا، وبالقليلِ سواها، لكونه أكثر الأحاسيس خصُوصيَّةً وحِدَّة.

ومِن أيُّوب، يمكننا أن نتعلَّم أنَّ أكثر بكثير ممَّا نظنُّ جارٍ في المَلإ الأعلى. فقد شعر أيُّوب بوطأة غياب الله؛ ولكنَّ نظرةً إلى ما وراء الستارة تُبيِّن أنَّ الله، بمعنًى ما، لم يكن قطُّ في أيِّ وقت آخر أكثرَ حضورًا منه في ذلك الوقت. وفي العالَم الطبيعيِّ، تتلقَّى البشريَّة فقط نحو ٣٠ بالمئة من طيف النور. (في وسع نحل العسل والحمام الزاجل مثلًا التقاطُ موجات الضوء فوق البنفسجيَّة غير المرئيَّة لدَينا). أمَّا في العالَم الفوطبيعيِّ،

فرؤيتنا محدودةٌ أكثر جدًّا، ونحن لا نحصل إلاَّ على لمحاتٍ حينيَّة لذلك العالَم غير المنظور.

هذه النقطة بعينها تُوضِحها بطريقة مختلفة تمامًا حادثةٌ في حياة شخصٍ شهير آخر من شخصيّات الكتاب المقدَّس. إذ كانت للنبيِّ دانيال مواجهةٌ لطيفة- لطيفةٌ مُقارَنةً بمواجهة أيُّوب- لاحتجاب الله. فقد تحيَّر دانيال بشأن مشكلة يوميَّة مُتمثِّلة في عدم استجابة الصلاة: لماذا كان الله يتجاهل طلباته المتكرِّرة؟ وكان دانيال قد عكف على الصلاة طيلة واحد وعشرين يومًا، وهو نائحٌ ومُنقطع عنِ الطعام الفاخر، وعائفُ اللحمِ والخمر والتعطُّر. ومع أنَّه ابتهل إلى الله طوال تلك المدَّة، لم يتلقَّ أيَّة استجابة.

ثُمَّ نال دانيال ذات يوم أكثر جدًّا ممَّا توقَّع. فإنَّ كائنًا فوطبيعيًّا، ذا عينين كأنَّهما مِشعَلان مُشتعِلان، ووجهٍ كالبرق، ظهر فجأةً على ضفَّة نهرٍ بجانبه. وهرب رفقاء دانيال كلُّهم مرتعدين. أمَّا دانيال، فهاكَ ما يقوله: "لم تبقَ فيَّ قوَّتي، ونضارتي تحوَّلت فيَّ إلى فساد، ولم أضبط قوَّة". وإذ حاول التكلُّم إلى الكائن الباهر، لم يكد يقوى على التنفُّس.

ثمَّ مضى الزائر يشرح سبب تأخُّره طويلًا. فإنَّه أُرسِل استجابةً لصلاة دانيال الأُولى تمامًا، ولكنَّه لقي مقاومة شديدة من قِبَل "رئيس مملكة فارس". وأخيرًا، بعد تعويق دام ثلاثة أسابيع، وصلت التعزيزات، إذ إنَّ ميخائيل- أحدَ رؤساء الملائكة- أعانه على اختراق المعارضة.

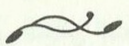
لن أُحاوِل تفسير هذا المشهد المذهل الذي يُصوِّر الكون في حالة حرب، بل يهمُّني فقط أن أُبيِّن موازاةً لأيُّوب. فعلى غرار أيُّوب، قام دانيال بدورٍ حاسم في الحرب بين القوى الكونيَّة الخيِّرة والشرِّيرة، وإن كانَ كثير من النشاط قد جرى خارج مدى رؤيته. وربَّما خُيِّل إليه أنَّ الصلاة عقيمة والله لامُبالٍ؛ إلاَّ أنَّ لمحةً على "ما وراء الستارة" تُبيِّن العكس تمامًا. وهكذا، فإنَّ منظور دانيال المحدودَ، مثلَ منظور أيُّوب، شوَّه الحقيقة.

وماذا ينبغي لنا أن نستنتج من احتياج الكائن الملائكيِّ الذي رآه دانيال إلى تعزيزات، فضلًا عن الرِّهان الكونيِّ في سفر أيُّوب؟ هذا فحسب: أنَّ الصورة الكبيرة،

حيث الكون كلُّه يُشبِه الستارة الخلفيَّة، تشتمل على كثير من النشاط الذي لا نراه أبدًا. فعندما نتشبَّث بالله بعناد في وقتِ شدَّة، أو عندما نُصلِّي فحسب، يمكن أن يكون الأمر منطويًا على أكثر بكثير جدًّا ممّا نحلم به أصلًا. وتصديق ذلك يستوجب الإيمان، كما يستوجبه الثقةُ بأنَّنا غير مخذولين البتَّة، مهما بدا الله بعيدًا.

وفي النهاية، عندما سمع أيُّوب الصوت من وسط العاصفة، أحرز الإيمانَ آخِرَ الأمر. وقدِ استعرض الله بسرعة ما لم يستطع أيُّوب أن يُباشِر تفسيره من ظواهرَ طبيعيَّة: النظام الشمسيّ، الأبراج (المجموعات النجمية)، العواصف الرعديَّة، الحيوانات البرِّيَّة. إن كنتَ لا تُدرِك العالَم المنظور الذي تعيش فيه، فكيف تجرؤ على توقُّع إدراك عالَمٍ لا يمكنك أن تراه مجرَّد رؤية؟!

وإذ وعى أيُّوب الصورة الكبيرة في نهاية المطاف، تاب في التراب والرماد.



يُشبه الله شخصًا يُجلي حنجرته وهو مختبئ، وبذلك يُفشي نفسه.

مايستر إكهاردت

الشواهد الكتابيَّة: أيُّوب ١٠، ١٦؛ دانيال ١٠.

أمّا أنا فقد علمتُ أنَّ وليّي حيّ،

والآخِرَ على الأرض يقوم،

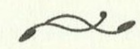
وبعد أن يُفنى جلدي هذا،

وبدون جسدي، أرى الله،

الذي أراه أنا لنفسي، وعيناي تنظران،

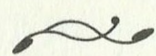
وليس آخر. إلى ذلك تتوق كليتاي في جوفي!

أيّوب ١٩: ٢٥- ٢٧



٢٩

لماذا ماتَ أيُّوبُ سعيدًا؟



بعدَ وصفِ قصَّة أيُّوب للمأساة والبليَّة، وقرعِ الصَّدر والنقاش الحامي، ورهانٍ كونيٍّ يُخسَر ويُكسَب، بعدَ ذلك كلِّه، تنتهي القصَّة بجوٍّ عائليٍّ حميم للغاية، حيث يُسلِّي أيُّوب حَفَدَةَ أحفاده في صفاءٍ تامّ. ويُورِد السِّفر تعدادًا دقيقًا لثروة أيُّوب المُستعادة: ١٤,٠٠٠ خروف، ٦٠٠٠ جَمَل، ١٠٠٠ فَدّان بَقر، ١٠٠٠ أتان، فضلًا عن عشرة أولاد.

وقد ثبَّطت تلك النهاية بعض القُرّاء، مثل إيلي فايزِل (الكاتب الحائز جائزة نوبل). ففي نظره، كان أيُّوب بطلًا، مُجلّيًا في التصدّي لمظالم الله. إلاّ أنَّ أيُّوب، كما يقول فايزِل، استسلم أخيرًا. وما كان ينبغي له أن يُطلِق الله من الشَّرك. فما من مقدار ازدهار جديد كان يمكن أن يُعوِّض عن المعاناة التي اجتازها أيُّوب. ماذا بشأن الأولاد العشرة الذين ماتوا؟ ما من أبٍ يمكن أن يُصدِّق لحظةً أن طردةً جديدة صاخبة من الأولاد ستمحو الحزن على أولئك الذين فقدهم أيُّوب!

ولكنْ لندع أيُّوب يتكلّم بلسان نفسه. فهاك ما قاله بعد خُطبة الله الجليلة من قلب العاصفة:

قد نطقتُ بما لم أفهم،

بعجائب فوقي لم أعرفها...

بسمْعِ الأذن قد سمعتُ عنك،

والآن قد رأتك عيني.

لذلك أرفض نفسي،

وأندم (أتوب) في التراب والرماد.

فواضحٌ جليًّا أنّ ما دعوته "لاجوابَ" الله قد أرضى أيّوب كاملَ الإرضاء.

إنّما في المُقابِل، يُشير بعضُ القُرّاء إلى الختامات السعيدة بوصفها الجواب النهائيَّ عن خيبة الأمل بالله. فيقولون: انظروا! إنّ الله يُخلّص شعبه من الشدّة. فقد ردّ لأيّوب صحّته وثَروته، وهو سيفعل لنا الأمر عينه إن تعلّمنا أن نثق به على غرار أيّوب. غير أنّ هؤلاء القُرّاء يغضّون النظر عن نقطة تفصيليّة مهمّة: أنّ أيّوب نطق بكلماته الدالّة على التوبة والندم قبل استرداد خسائره. وكان ما يزال جالسًا وسط كومة تُراب، عاريًا، تُغطّيه القروح... وفي تلك الظروف تعلّم أن يحمد الله ويُسبّحه. لكنّ شيئًا واحدًا فقط كان قد تغيّر: لقد أتى الله أيّوب لمحةً على الصّورة الكبيرة.

لديّ إحساسٌ باطنيٌّ أنّه كان يمكن أن يقول الله أيَّ شيء- كان يمكن في الواقع أن يقرأ من الصّفحات الصّفراء- فيُحدِثَ لدى أيّوب التأثير العجيب عينَه. فإنّ ما قاله لم يكن على التقريب مهمًّا أهميّةَ حقيقيةِ ظهوره المجرّدة. إذ إنّ الله أجاب عن سؤال أيّوب الأكبر: هل مِن أحد هناك خارجًا؟ وما إن التقط بصر أيّوب لمحةً على العالم غير المنظور، حتّى تلاشت جميع أسئلته المُلِحّة.

فمن وجهة نظر الله، لم يكن فَرَج أيّوب- مهما بدا الأمر قاسيًا- ذا أهمّيّة مقارنةً بالقضايا الكونيّة الموضوعة على المحكّ. وقد انتهت المعركة الحقيقيّة لمّا أبى أيّوب أن ييأس من رؤية الله، جاعلًا بذلك الشيطانَ يخسر الرّهان. وبعد ذلك الانتصار المُبين، بادر الله إلى إغداق عطاياه على أيّوب. الألم؟ يمكنني أن أتولّى أمره بيُسر. مزيدًا من

الأولاد؟ جِمالًا وثيرانًا؟ لا مشكلة. طبعًا، أُريد لك أن تكون سعيدًا وميسورًا ومُفعمًا بالحياة! ولكنْ، يا أيّوب، عليك أن تفهم أنّ شيئًا أهمَّ بكثير من السعادة كان على المحكّ هنا.

عالمَان

لدى صديقي رشيد- وهو ما زال ينظر إلى سفر أيّوب بوصفه أصدقَ جزءٍ في الكتاب المقدّس- ردّةُ فعل أُخرى بعدُ على خاتمته. فهو يجدها غير وثيقة الصّلة بالموضوع إلى حدٍّ بعيد: "لقد حظي أيّوب بظهور شخصيٍّ من قِبَل الله، وأنا أغبطه. وذلك ما برحتُ أطلبُه طوالَ هذه السنين. ولكنْ بما أنَّ الله لم يزرني، فكيف يُساعِدني أيّوب في صراعاتي؟"

أعتقد أنّ صديقي رشيدًا وضع إصبعه على خطٍّ فاصل مهمٍّ في الإيمان. فبمعنًى ما، تُشبه أيّامنا على الأرض أيّامَ أيّوب قبل أن وافاه الله في عاصفة. إذ أنّنا نحن أيضًا نعيش في خضمّ معلومات وشائعات، يُحاجُّ بعضُها ضدَّ إلهٍ قويٍّ مُحِبّ. وعلينا نحن أيضًا أن نمارس الإيمان، إنّما بغير يقين.

انبطح رشيد على الأرضيّة الخشبيّة في شقّته، مُتضرّعًا إلى الله أن "يُعلِن" ذاته، راهنًا كلَّ إيمانه باستعداد الله لوُلوج الله العالَم المنظور كما فعل بالنسبة إلى أيّوب. وقد خسر رشيد ذلك الرهان. وبصراحة، أشكُّ في أنّ الله يشعر بأيّ "التزام" لإثبات ذاته بطريقةٍ كهذه. لقد فعل ذلك مرارًا كثيرة في العهد القديم، ثمّ فعله بصورة نهائيّة حاسمة في شخص يسوع المسيح. فأيّةَ تجسّدات أُخرى نطلب منه؟

إنّي أقول ما أقوله بعناية بالغة، إذ أتساءل بشأن الرغبة المُلِحّة الشديدة في حصول معجزة- حتى لو كانت شفاءً للجسد- ألا تنمّ أحيانًا عن الافتقار إلى الإيمان وليس عن توافُره؟ فإنّ صلوات من هذا النوع، كصلوات رشيد، قد تضع شروطًا أمام الله. وحين نتوق إلى حلٍّ معجزيٍّ لمشكلةٍ ما، هل نجعل ولاءنا لله متوقّفًا على كونه يعلن ذاته مرّة

أُخرى بعدُ في العالَم المنظور؟*

وإن أصررنا على براهين منظورة من لدُنِ الله، فلعلَّنا نُمهِّد السبيل فعلًا لحالة خيبةٍ دائمة. فالإيمان الحقيقيُّ لا يحاول أن يستميل الله كي يفعل مشيئتنا بقدر ما يسعى إلى وضعنا في موضعٍ يحملنا نحن على فعل مشيئته. وإذ فتَّشتُ في الكتاب المقدَّس كلِّه عن نماذج للإيمان العظيم، صعقني العددُ القليل من القدِّيسين الذين اختبروا مثلَ مواجهة أيُّوب الدراماتيكيَّة مع الله. فالباقون تجاوبوا مع احتجابيَّة الله، لا بمطالبته بأن يُظهِر ذاته، بل بالمُضيِّ قدمًا والإيمان به رغم بقائه مُحتجبًا. ويشير الأصحاح الحادي عشر من رسالة العبرانيِّين بوضوح إلى أنَّ عمالقة الإيمان "لم ينالوا المواعيد؛ بل من بعيد نظروها وصدَّقوها وحيَّوها".

فنحن الكائناتِ البشريَّة، بطريقة غريزيَّة، نعدُّ العالَم المنظور "حقيقيًّا" والعالَم غير المنظور "غير حقيقيّ". ولكنَّ الكتاب المقدَّس يدعونا إلى العكس تمامًا. فبالإيمان، يتَّخذ العالم غير المنظور، على نحوٍ تصاعُديّ، شكله بوصفه العالم الحقيقيَّ ويبسط أمامنا السبيل لكيفيَّة العيش في العالَم المنظور. أمَا عنى الربُّ يسوع: "عيشوا لله الذي يُرى، وليس للآخرين!" في كلامه عن العالم غير المنظور، أو "ملكوت السماوات"؟

وقد تطرَّق الرسول بولس مرَّةً على نحوٍ مباشر إلى مسألة خيبة الأمل بالله. فقد قال لمؤمني كورنثوس إنَّه لم ييأس على الرَّغم من المصاعب والمصائب التي لا تُصدَّق: "وإن كان إنساننا الخارج يفنى، فالداخل يتجدَّد يومًا فيومًا؛ لأنَّ خفَّة ضيقتنا الوقتيَّة (!) تُنشئ لنا أكثر فأكثر ثِقَل مجد أبديًّا. ونحن غير ناظرين إلى الأشياء التي تُرى، بل التي لا تُرى؛ لأنَّ التي تُرى وقتيَّة؛ وأمَّا التي لا تُرى فأبديَّة."

* قد يستجيب الله بمراحمه صلاةً مختلطة الدوافع. أمَا تشهد كلُّ أحاديث حفرة المنُاوَشة: "يا ربّ، ليتك فقط تُخرِجني من هنا...؟" ولكنَّ القرار بيده، لا بأيدينا.

بُلغَةٌ[1] من المستقبل

احتمل بولس التجارب ومات شهيدًا، وهو ما زال ينتظر مكافأته. واحتمل أيُّوب التجارب، إلاَّ أنَّه نال مكافأة حسنة في أثناء حياته. فماذا يمكننا إذًا أن ننتظر من عند الله تحديدًا؟ ربَّما كانت أفضل طريقة للنظر إلى الخاتمة في سفر أيُّوب أن نراها لا كمُخطَّطٍ لِما سيحدث لنا في هذه الحياة، بل بالحريِّ كعلامة لِما سيأتي. فهي تقوم رمزًا وافيًا وعذبًا: حلاًّ لخيبة رجُل واحد يُذيقنا بُلغةً سبقيَّة من المستقبل.

ومن ناحية، فإنَّ إيلي فايزل على حقّ: أنَّ مسرَّات أيُّوب في شيخوخته لم تُعوِّضه عن الخسائر التي تكبَّدها سابقًا. حتَّى إنَّه هو نفسه مات أخيرًا وهو شيخٌ سعيد وشبعان أيَّامًا، مُمرِّرًا دورة الحزن إلى أهله الباقين على قيد الحياة بعدَه. وأسوأُ غلطة على الإطلاق أن نستنتج أنَّ الله يقنع، على نحوٍ ما، بأن يُجريَ بعض الإصلاحات الثانويَّة القليلة لهذا العالم المأساويِّ الجائر.

يرهن بعض الناس إيمانهم كلَّه بحصول معجزة، كما لو أنَّ من شأن المعجزة أن تُقصيَ كلَّ خيبة أمل بالله. غير أنَّها لن تفعل ذلك. ولو ملأتُ هذا الكتاب بملفَّات الشفاءات الجسديَّة، بدلًا من قِصَص رشيد ومغ وُدسُن ودوغلاس وأيُّوب، ما كان ذلك يحلُّ مشكلة خيبة الأمل بالله. فما زال هذا الكوكب مُبتلًى بخطبٍ جلل. ذلك أنَّنا جميعًا نموت؛ ومُعدَّل الوَفَيات الجوهريُّ هو هو للمُلحِدين وللقدِّيسين على السواء.

إنَّ المعجزات تقوم مقام اللافتات التي تُشير إلى المستقبل. أو هي مُشهِّيات تبعث توقًا إلى المزيد، إلى ما هو ثابتٌ ودائم. ولم تكن سعادة أيُّوب في شيخوخته إلاَّ عيِّنةً ممَّا سيتمتَّع به بعد الموت. فالأخبار الطيِّبة في ختام سفر أيُّوب وبشائر القيامة في أواخر الأناجيل هي عروض مُسبَّقة للأخبار الرائعة الموصوفة في آخِر سفر الرؤيا. ولا نجرأ أن نُشيح أبصارنا عنِ العالَم الذي يريده الله.

[1] بلغة تعني كفاف، مقدار قليل أو ضئيل يُذاق

فالوعد الذي يتضمَّنه أيُّوب ٤٢ إذًا هو أنَّ الله سيرفع أخيرًا كلَّ جور تتَّسم به أيَّامنا. ومِن الأحزان ما لن يُشفى أبدًا في هذه الحياة، كموت أولاد أيُّوب مثلًا، أو موت وَلَدي مغ وُدسُن. فليس من كلماتِ عزاء يمكن أن تُلطِّف الغمَّ في قلب مغ وُدسُن، لأنَّ لذلك الغمَّ شكلًا محدَّدًا، هو شكل ابنتها بِغي وابنها جُوِي. ولكنْ في نهاية الزمان، سيتلاشى ذلك الحزن أيضًا. فإنَّ مغ سوف تسترجع ابنيها مخلوقَين خلقًا جديدًا. ولو كنتُ لا أُومِن، بأن بِغي وجُوي وُدسُن في هذه اللحظة بعينها يتنفَّسان بجرعاتٍ كبيرة ويرقصان فرحًا، ويستكشفان عوالمَ جديدة، لَما كنتُ أُومِن بأيِّ شيء، ولكنتُ قد تخلَّيتُ عن الإيمان المسيحيِّ من زمنٍ بعيد. "إن كان لنا في هذه الحياة فقط رجاءٌ في المسيح، فإنَّنا أشقى جميع الناس".

إنَّ الكتاب المقدَّس يرهن سمعة الله بقدرته على دحر الشرِّ وردِّ السماء والأرض إلى حالتهما الأصليَّة الكاملة. فبمعزلٍ عن تلك الحالة المستقبليَّة، قد يُحكم على الله بأنَّه أقلُّ من أن يكون قديرًا، أو أقلُّ من أن يكون مُحِبًّا*. وحتَّى الآن لم تتحقَّق رؤى الأنبياء بشأن السلام والعدالة. والموت، مع طفرات السيدا (الإيدز) وسرطانات البيئة، تلك الطفرات الجديدة الشنيعة، ما زال يبتلع الناس، بدل أن يُبتلَع هو. ويبدو أنَّ الشرَّ لا الخير، هو الفائز. غير أنَّ الكتاب المقدَّس يدعونا لأنْ نتخطَّى بأبصارنا واقعَ التاريخ الكئيبَ لنرى منظر الأبديَّة كلِّها، حين يملأُ مُلكُ الله الأرض نورًا وحقًّا.

ففي أيِّ بحثٍ بشأن الخيبة بالله، تُشكِّل السماء الكلمة النهائيَّة، بل أهمَّ كلمة على الإطلاق. ذلك أنَّ السماء وحدها سوف تحلُّ أخيرًا مشكلة احتجاب الله. فأوَّلَ مرَّة منذ البدء، سوف يُتاح للكائنات البشريَّة النظرُ إلى الله وجهًا لوجه. وقد أُوتيَ أيُّوب، في خضمِّ معاناته، وبطريقةٍ ما، إيمانًا جعله يؤمن بهذا: "بدون جسدي أرى الله، الذي

* كان المتصوِّف الاسبانيُّ أُنامونو يتحدَّث إلى فلاَّح مرَّة، فارتأى أنَّ الله ربَّما كان موجودًا، أمَّا السماء فلا. ففكَّر الفلاَّح دقيقةً ثمَّ أجاب: "ولماذا هذا الله إذًا؟"

أراه أنا لنفسي، وعيناي تنظران، وليس آخر". وسوف تتمُّ هذه النبوءة ليس بالنسبة إلى أيُّوب وحده، بل أيضًا بالنسبة إلينا جميعًا.

الحنين إلى الوطن

يواجه كثيرون صعوبةً في مجرَّد تصوُّر حالة مستقبليَّة كهذه. وكما قال شارلز وليمز، فإنَّ "خبرتنا على الأرض تُصعِّب علينا أن نُدرك وجود خير بلا شَرَكٍ مخبوء في مكانٍ ما". فبدلًا من محاولة إسقاط أنفُسِنا على مستقبلٍ لا يُمكِننا أن نُحيط به تمامًا البتَّة، ربَّما كان خيرًا لنا أن ننظر إلى أحلامنا غير المُحقَّقة- إلى خيبات آمالنا- في الزمن الحاضر.

في نظر لاجئٍ أو فلاَّح، تُمثِّل السماء حُلمًا ببلدٍ جديد سعيد، ببلادِ أمان، بعائلةٍ التأمَ شملُها، ببيتٍ ملآن خيراتٍ بسيطة من قبيل الطعام وماء الشفة العذب. (لقد تكلَّم كثيرٌ من الأنبياء إلى لاجئين، ممَّا قد يُفسِّر سبب استخدامهم صُوَرًا أرضيَّة من هذا النوع).

وعلى مستوًى ما، نتشارك جميعًا في أشواقٍ من هذا النَّوع. فلئن كان هذا العالَم حافلًا بالتلوُّث والحرب والإجرام والجشع، ففي داخل كلِّ واحدٍ منَّا ما تزال بقايا تُذكِّرنا بما يمكن أن يكون العالم عليه، وبما يمكن أن نكون نحن عليه. ويمكنك تلمُّس أشواقٍ كهذه في حركة الحفاظ على البيئة، تلك التي يتوق قادتُها إلى عالَمٍ يُحفَظ في حالته الأصليَّة النقيَّة؛ وفي حركة السلام التي تحلم بعالم خالٍ من الحرب؛ وفي مجموعات العلاج النفسيِّ التي تحاول أن تُعيد وصل ما انقطع من روابط المحبَّة والصداقة. فجميع ما نلقاه على الأرض من جمال وفرح يُمثِّل "فقط عبير زهرة لم نعثر عليها، وصدى نغم لم نسمعه، وخبرًا من بلد لم نزُره قطّ" (سي أس لِويس).

لقد صرَّح الأنبياء بأنَّ أحاسيس كهذه ليست بأوهام ولا مجرَّد أحلام، بل أصداءُ مُسبَّقة لِما سوف يتحقَّق فعلًا. وقد أُعطينا تفاصيل قليلة عنِ العالَم المُستقبليِّ،

وعدًا فحسبُ بأنَّ الله سوف يُثبت أنّه جديرٌ بالثقة. فحين نستيقظ في السماء الجديدة والأرض الجديدة، سنمتلك أخيرًا كلَّ ما تُقنا إليه. فبطريقةٍ أو بأُخرى، من بين جميع الأخبار السيّئة، يبرز خبرٌ طيّب لا يُصدَّق - خبرٌ ليس فيه شَرَكٌ مخبوءٌ في مكانٍ ما. إنَّ السماء والأرض سوف تُعْمَلان من جديد بالطريقة التي قصدها لهما الله. إنَّ هنالك خاتمةً سعيدة في نهاية المطاف.

وقد قال الكاتب الخياليُّ جي آرآر تولكين أنَّ تلك الحالة السعيدة ستكون "جائحة سعادة". ويُعبِّر عن الفكرة جيِّدًا مشهدٌ تضمَّنته ثُلاثيَّتُه سيِّدُ الخواتم:

سأل سام: "أكلُّ أمرٍ مُحزنٍ سيصير غير صحيح؟ ماذا جرى للعالَم؟"

فقال غاندالف: "إنَّ ظلًّا عظيمًا قد رحل!" ثُمَّ ضحك، وكان الصَّوت كالموسيقى، أو كالمطر في أرضٍ ظمأى. وإذ أصغى، خطرت له فكرة بأنّه لم يسمع ضحكًا، صوتَ المرح الصافي، أيّامًا على أيّام لا تحصى. فقد وقع ذلك في أذنيه كصدًى لجميع الأفراح التي عرفها في حياته. ولكنّه هو نفسه اندفع يذرف الدمع مدرارًا. بعد ذلك، كما يهطل مطرٌ منعش عبر ريح ربيعيّة فتغدو أشعَّة الشمس أكثر ضياءً، كفَّت دموعه، وانبجس ضحكه، فنهض من سريره منتفضًا وهو يضحك.

وصاح: "كيف شعوري؟ حسنًا، لا أعرف ماذا أقول. شعوري، شعوري، - مُلوِّحًا بذراعيه في الهواء- "شعوري كالربيع بعد الشتاء، وكالشمس على ورق الشجر، وكالأبواق والقيثارات وكلِّ الأغاني التي سمعتُها في حياتي!"

فلجميع العالقين في فخّ الألم، أو في بيتٍ مُنهار، أو في عسر ماديّ، أو في قبضة الخوف، لجميع هؤلاء- لجميعنا- تَعِد السماء بزمان، أطول بكثير جدًّا وأكثر غنًى من الزمن الذي قضيناه على الأرض، ملؤه الصحّة والكمال والسرور والسلام. وإن لم نؤمن بهذا، فإنَّ الداعيَ إلى الإيمان أصلًا يكون ضئيلًا جدًّا، كما أفاد بولس بصراحة ووضوح. فبغير ذلك الرجاء، لا يكون أيُّ رجاء.

لا يستخفُّ الكتاب المقدَّس أبدًا بخيبة البشر (تذكَّرِ النسبة في سفر أيّوب: أصحاح واحد للردِّ والشفاء يلي واحدًا وأربعين أصحاحًا من الكرب والشقاء)، ولكنَّ الكتاب يُضيف بالفعل كلمةً مفتاحيَّة واحدة: وقتيّة. فإنَّ ما نشعر به الآن لن نشعر به دائمًا أبدًا. وخيبتنا بحدِّ ذاتها علامة، تلهُّفٌ موجِع، جوعٌ إلى ما هو أفضل. ثمَّ إنَّ الإيمان، آخِرَ الأمر، هو نوعٌ من الحنين إلى الوطن: إلى وطنٍ لم نزُره قطّ، ولكنّنا لم نكفَّ مرَّةً عن الاشتياق إليه!

ثُمَّ إنَّ غاية كلِّ ترحالنا بداعي الاستكشاف
ستكونُ أن نصلَ إلى حيث انطلقنا
ونعرفَ المكان أوَّل مرَّة.

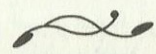
تي أس إليوت

ثمَّ رأيت سماءً جديدة وأرضًا جديدة، لأنَّ السماء الأولى والأرض الأولى مضتا، والبحر لا يوجد في ما بعد. وأنا يوحنّا رأيت المدينة المقدَّسة، أورشليم الجديدة، نازلة من السماء من عند الله، مهيّأةً كعروس مزيّنة لرجُلها. وسمعتُ صوتًا عظيمًا من السماء قائلًا: "هوذا مسكن الله مع الناس، وهو سيسكن معهم؛ وهم يكونون له شعبًا، والله نفسه يكون معهم إلهًا لهم. وسيمسح الله كلَّ دمعةٍ من عيونهم. والموت لا يكون في ما بعد، ولا يكون حزن ولا صراخ ولا وجع في ما بعد، لأنَّ الأمور الأولى قد مضت.

الشواهد الكتابيَّة: أيوب ٤٢؛ عبرانيِّين ١٠؛ ٢كورنثوس ٤؛ ١كورنثوس ١٥؛ أيوب ١٩؛ رؤيا ٢١.

٣٠

رِهانانِ ومَثَلان



أهُنالك إذًا أيُّ فِردَوس أرضيٍّ، حيث يُتاح للناس
وسط أوراق الزيتون ذات الحفيف أن يتواجدوا مع
مَن يحبُّون ويستريحوا في الظِّلال والبرودة المُنعشة،
أم حياةُ البشر أجمعين، تلك الحياة المنهارة المضطربة
المعذَّبة، الخالية من اللُّطف، أوقاتٌ تتخلَّلها
وقائع الصُّراخ والبلاهة والموت والمُعاناة؟
فورد مادوكس فورد، الجنديُّ الصالح

يحكي الأديب الإيطالي أُمبرتو إكُو عن يومٍ اصطحبه فيه أبوه، إذ كان في الثالثة عشرة من عمره، إلى مباراة كرة قدم. ولم يكن أُمبرتو يستمتع بالألعاب الرياضيَّة حقًّا. فبينما هو جالس على مدرَّج الملعب يُشاهِد اللعب، شرع فكره يسرح ويسوح. وقد قال: "فيما كنتُ أُشاهِد ساهيًا الحركاتِ العديمة المعنى على أرض الملعب في الأسفل، شعرتُ كيف بدت شمسُ الظهيرة مُكتنِفةً الناسَ والأشياء بنورها الفاتر، وكيف كان يجري أمام عينيَّ أداءٌ عالميٌّ عديمُ المعنى... آنذاك شككتُ أوّلَ مرَّة في وجود الله، واستقرَّ رأيي على أنَّ العالم وهمٌ تافه".

فإذ كان إكو المراهق جالسًا على المدرّج عاليًا، تصوَّر منظورًا من فوق، مثلَ منظور الله. ولكنْ من نقطةِ الإشراف تلك، بدا التدافعُ المسعور من قِبَل الجنس البشريّ عديمَ المعنى مثل التدافعِ المسعور من قِبَل شُبَّانٍ راشدين يُطارِدون كرةً جلديَّة على العشب جيئةً وذهابًا. وخطر في بال إكو أنَّه لا بدَّ ألاَّ يوجد أحدٌ "هناك في العُلى" يراقب ما يجري على هذا الكوكب. وبَعد، فإن وُجد أحدٌ ما هنالك، فلا بدَّ أن يكون اهتمامه بالحياة على الأرض يسيرًا كاهتمام أُمبرتو بمباراة كرة القدم.

إنَّ صورة إكو للملعب المدرَّج تُثير السؤال الأكثر جوهريَّة في الإيمان، السؤال الذي يتعلَّق به كلُّ أمرٍ آخر: أهنالك أحدٌ يُراقِب؟ أنحن هائمون على وجوهنا في فوضى تافهة، تكتنفنا "لامبالاةُ الكون الخبيثة،" أم نحن نؤدِّي أدوارنا أمام شخص يهتمُّ فعلًا؟ لقد تلقَّى أيُّوب جوابه في إعلانٍ باهر، ولكنْ ماذا بشأننا نحن الباقين؟ ليس من سؤالٍ أهمَّ، وبعد خمس سنين من الحديث الذي أنتج هذا الكتاب وجدت نفسي أُناقش هذا السؤال مُطوَّلًا مع صديقي الشكَّاك رشيد.

لمَّا قابلتُ رشيدًا أوَّلَ مرَّة، كان أشبه بحبيبٍ مخذول في أوائل مراحل الهجر أو الطلاق... من الله. وقد نمَّت عيناه عن غضبٍ دفين. ولكنْ لمَّا رأيتُه بعد خمس سنين، اتَّضح لي أنَّ مرور الزمن قد ألان عريكته. كان غيظُه ما يزال ينفجر ونحن نتحدَّث، لكنْ ممزوجًا بالحنين إلى الماضي على شيءٍ من الكآبة. لم يستطع أن يُخرجَ الله كليًّا من ذهنه؛ وإذا بغياب الله يجعل ذاته محسوسًا بصورةٍ مُنتابة، كألم وهميٍّ من طَرَف مبتور. حتَّى إنَّ رشيدًا، على الرُّغم من عدم تطرُّقي إلى شؤون الإيمان، كان يعود إليها مُداورةً على نحوٍ ينمُّ عن ملازمة الألم المُمِضّ له.

ومرَّةً التفت إليَّ بنظرةِ ارتباك، قائلًا: "لست أستوعب الأمر، يا فيليب. إنَّنا نقرأ الكُتب عينها، ونتشارك في كثير من القِيَم ذاتها. وأنت كما يبدو تفهم شكِّي وخيبتي، ومع ذلك، فأنت تجد الإيمان ميسورًا لك بطريقة أو بأُخرى. أمَّا أنا فلا. فما الفرق؟ من أين حصلت على إيمانك؟"

سارع فكري يستعرض الأجوبة المُحتمَلة. كان في وسعي أن أُشير إلى جميع البيِّنات الدالَّة على الله: تصميم الخليقة، سيرة المسيح، براهين القيامة، نماذج القدِّيسين المسيحيِّين. غير أنَّ رشيدًا كان يعرف هذه الأجوبة أيضًا، ومع ذلك لم يؤمن. ثمَّ لم أستمدَّ إيماني منها، بل نلتُه في غرفة بهجع الطَّلَبة في كليَّةٍ لدرس الكتاب المقدَّس، في ليلة مخصوصة من شهر شباط (فبراير). وهكذا، مضيتُ أُخبِر رشيدًا بما جرى تلك الليلة.

ليلةُ إيمان

سبق أن ذكرتُ أنَّ معهد الكتاب المقدَّس كان بالنسبة إليَّ، أوَّلَ الأمر، تُربةً خصبة للارتياب والشكّ. وقد صممتُ بتعلُّمي مُحاكاة السلوك "الروحيّ"... وما كان على الطالب بالحقيقة إلاَّ إحراز العلامات الجيِّدة. وكان هنالك أمر "الخدمة المسيحيَّة" البغيضُ مثلًا. فقد طلبتِ الكلِّيَّة من كلِّ طالب أن يشارك في نشاط خدمةٍ دوريّ، كالتبشير في الشوارع مثلًا، أو خدمة السجون، أو زيارة دُور المُسنِّين. وهكذا تسجَّلتُ لتأدية "الخدمة الجامعيَّة".

كنتُ مساءَ كلِّ سبت أزور مركز طَلَبة بجامعة ساوث كارولينا وأشاهِد التلفزيون. وكان مفترضًا بالطبع أنَّني "أشهد" للمسيح هناك. وكنتُ في الأُسبوع التالي أُقدِّم تقريرًا كمن يتحسَّس واجبه، ذاكرًا جميع الأشخاص الذين اتَّصلتُ بهم بشأن الإيمان الشخصيّ. ولا بدَّ أنَّ أخباري المزخرفة بدت أصيلة، لأنَّ أحدًا لم يشكّ فيها قطّ.

كذلك طُلب منِّي أيضًا أن أحضر حلقة صلاة أُسبوعيَّة مع أربعة طلاَّب آخرين منهمكين في العمل الجامعيّ. وقد نهجت تلك الحلقات نهجًا ثابتًا، حيث يُصلِّي جو أوَّلًا، ثُمَّ كريغ، وبعده كرِسّ، وبعده جو الآخر، ثمَّ ينتظر الجميع بصمت مُهذَّب نحو عشر ثوانٍ. وأنا ما كنتُ أُصلِّي. ثمَّ بعد الصمت الوجيز، نفتحُ أعيُنَنا ونعودُ إلى غُرَفنا.

ولكنْ ذاتَ ليلة من شهر شباط (فبراير)، لدهشة الجميع بمن فيهم أنا نفسي، صلَّيتُ فعلًا. لستُ أدري لماذا، ولا خطَّطتُ للأمر. إنَّما بعد انتهاء جو وكريغ وكرِسّ وجو

الآخر، وجدت نفسي أُصلّي بصوتٍ عالٍ. وإذ قلتُ: "اللّهمّ!" استطعتُ أن أُحسّ مستوى التوتُّر في الغرفة مرتفعًا.

وعلى ما أذكر، قلتُ شيئًا من هذا القبيل: "اللّهمّ! ها نحن هنا، حيث يُفترَض أن نكون مهتمّين لأمر أولئك الطَّلبة الذين يُناهز عددهم عشرة آلاف في جامعة ساوث كارولَينا والذين سوف يذهبون إلى جهنّم. حسنًا، أنت تعرف أنّه لا يهمُّني إن ذهبوا كلُّهم إلى جهنّم، إذا كانت موجودةً أصلًا. ولا يهمُّني أيضًا لو ذهبتُ أنا إلى هناك!"

سيكون عليك أن تحضر كلّيّةً لدرس الكتاب المقدَّس كي تُخمّن كيف كان وقعُ هذه الكلمات على الأرجح في آذان الآخرين الذين كانوا معي في الغرفة. فكأنّني كنتُ أستحضِرُ سحرًا أو أُقدّم طفلًا ذبيحةً لإله وثنيّ! ولكنْ لم يتحرَّك أحد أو يُحاوِل وقفي، فاستمررتُ في الصلاة.

ولسببٍ ما، شرعتُ أتكلّم عن مَثَل السامريّ الصالح. فنحن الذين نؤمُّ معهدًا لدراسة الكتاب المقدَّس يُنتظَر منّا أن نشعر تجاه طَلَبة الجامعة بمثل ذلك الشعور الذي خالج السامريَّ نحو المُسافِر المُدَمّى المطروح في الخندق. ولكنّني لم أشعر بمثل ذلك الاهتمام، كما قُلت. لم أشعر بأيّ شيء من نحوهم.

ثُمّ حدث الأمرُ العجيب. ففي منتصف صلاتي، وأنا أصف قلّة اهتمامي بأهداف الحنان المحدَّدة، رأيت القصّة في ضوءٍ جديد تمامًا. كنتُ أتصوّر المشهد، وأنا أتكلَّم، هكذا: سامريٌّ ذو هيئة عتيقة الطِّراز، يرتدي عباءةً وعِمامة، مُنحنيًا فوق شكلٍ مُتّسِخ مُضرَّج بدمٍ غشّى جسمَه، مُنطرِحٍ في خندق. ولكنْ فجأةً، على شاشة دماغي الداخليّة، تغيَّرت كلتا الصُّورتين. فالسامريُّ الصالح اتَّخذ وجهًا آخر هو وجه يسوع. واتّخذ اليهودي، الذي كان ضحيةَ السَّطو من قاطعي الطرق، وجهًا أجفلتُ إذ عرفتُ أنّه وجهي بالذات.

وبلمح البصر، رأيتُ يسوع يمدُّ يده بخرقة مُبلّلة ليُنظّف جراحي ويُوقِف نزف الدم. وإذِ انحنى فوقي، رأيتُ نفسي- أنا ضحيَّةَ السرقة الجريح- أفتح عينيّ وأزمُّ شفتيّ. ثُمّ، كمن يشاهد عرضًا بالحركة البطيئة، رأيتُ نفسي أبصق عليه، بصقة كبيرة في وجهه تمامًا.

رأيتُ ذلك كلّه- أنا الذي لم أُومِن بالرؤى ولا بأمثال الكتاب المقدَّس، ولا حتّى بيسوع. وقد أذهلني ذلك أيَّ إذهال. ثمّ توقّفتُ فجأةً عن الصلاة، ونهضت، وغادرتُ الغرفة.

ظللتُ ذلك المساء كلّه أُفكّر في ما جرى. لم يكُن رؤيا بالضبط، بل أشبه بمَثَلٍ في حلم يقظة ينطوي على عبرة خُلقيّة. ومع ذلك لم أتمكّن من طرحه وراء ظهري. ماذا كان يعني؟ أكان أصيلًا؟ لم أكن مُتيقّنًا، ولكنّي علمتُ أنّ غروري قد تزعزع. ففي حَرَم تلك الكلّيّة، كنت دائمًا قد وجدتُ الأمان في لاأدْريَّتي. ولكنّ ذلك انتهى الآن. فقد أُوتيتُ لمحةً جديدة على نفسي. وربّما، في شكوكيّتي الواثقة والهازئة، كنتُ أحوجَ الناس جميعًا.

تلك الليلة، كتبتُ إلى خطيبتي رسالةً موجزة، قلتُ فيها بتحفُّظ: "أُريد أن أتريَّث بضعة أيّام للتكلُّم عن الموضوع، ولكنْ ربّما أكون قد حصلتُ على أوّل اختبار دينيّ أصيل في حياتي".

رهانان

أخبرتُ رشيدًا بتلك الواقعة، وهو مُصغٍ إليّ باهتمام صادق. وقلتُ له إنّ كلّ شيءٍ قد تغيّر في حياتي من ذلك الحين فصاعدًا. ولو أنّ أحدًا قبل ذلك ارتأى بأنّني سأقضي حياتي كاتبًا عن الإيمان المسيحيّ، لعددتُه فاقدَ الصواب. ولكن من تلك الليلة في شباط (فبراير)، وضعتُ قدميّ على طريق رحلةٍ ثابتة الخطو وبطيئة للدفاع عمّا سبق أن رفضتُه في الماضي باعتباره تفاهةً دينيّة. لقد وُهِبتُ عينَي إيمان فتحتا بصيرتي على العالم غير المنظور.

كان رشيد لطيفًا، لكنْ غيرَ مُقتنع. فأشار بلطف أنّ هنالك، رغمَ كلّ شيء، تفسيراتٍ بديلةً لِما حدث. ذلك أنّني قضيتُ عدّة سنين مُقاوِمًا تنشئةً مُحافظة مُتشدِّدة، ولا شكّ أنّ ذلك الكبت قد سبَّب "لاانسجامًا إدراكيًّا" في داخلي. وبما أنّه مضى زمن طويل بغير أن أُصلّي، فهل ينبغي أن أُدهَش إذا كانت صلاتي الأُولى، مهما حفلَت بالتردُّد، قد أطلقت فيضًا من المشاعر التي ربّما وجدَت مُتنفَّسًا في شكل "إعلانِ" مَثَلِ السامريّ الصالح؟

وكان لا بدَّ أن أبتسم فيما رشيدٌ يتكلَّم، لأنَّني وجدتُ نفسي في كلماته. فأنا استعملتُ قديمًا اللغة عينَها لكي أُعلِّل منطقيًّا عدم صحَّة الشهادات الشخصيَّة التي كان عشراتٌ من زملائي الطلَّاب يُقدِّمونها. ولكن منذ تلك الليلة في شهر شباط (فبراير) فصاعدًا، بتُّ أرى الأُمور بمنظور مختلف تمامًا.

لقد كُنَّا، أنا ورشيد، نَصِفُ الظاهرة نفسها بطريقتين مختلفتين: فهو كان ينظر "إلى حزمة الأشعَّة"، فيما كنتُ أنا أنظر "على طولها". وكانت له بعض البيِّنات لمصلحته، كما كان لي أنا بعض البيِّنات لمصلحتي- وفي طليعتها التغيُّر الجذريُّ وغير المتوقَّع في نظرتي إلى الحياة. ولكنَّ وقائع التحوُّل إلى الله لا تكتسب معناها إلاَّ من الداخل فخارجًا، عند الشخص الذي يختبر التحوُّل. وهكذا عُدنا إلى حيث بدأنا حديثنا قبل خمس سنين: إذ وصلنا مجدَّدًا إلى سرِّ الإيمان، هذه الكلمة التي مقتها رشيد.

وشعرتُ بأنِّي أتمنَّى لو أستطيعُ أن أجعل الإيمان واضحًا بكلِّ جلاء أمام عينَي رشيد، ولكنَّني أحسستُ أنَّني عاجزٌ عن ذلك. فقد لمستُ لدى رشيد ما سبق أن عايشتُه مِن اضطراب ونفور شفاني الله منهما تدريجيًّا. غير أنَّني لم أستطع أن أزرع الإيمان داخل رشيد، إذ عليه هو أن يمارسه بنفسه.

في أثناء تلك المحادثة، أدركتُ أنَّ ثمَّة بالفعل رهانَين كونيَّين يجريان معًا. وقد سبق أن ركَّزتُ على الرِّهان من وجهة نظر الله: الرِّهان كما يُصوِّره سفرُ أيُّوب، والذي يُعلِّق فيه الله مستقبل الاختبار البشريِّ على استجابة شخصٍ واحد. وأشكُّ في أنَّ أيَّ إنسان يفهم ذلك الرِّهان تمامًا، ولكنَّ المسيح علَّم بأنَّ نهاية التاريخ البشريِّ سوف تُختصَر بمسألة واحدة: "متى جاء ابن الإنسان، ألعلَّه يجد الإيمان على الأرض؟"

أمَّا الرِّهان الثاني، الذي يعكس وجهة النظر البشريَّة، فهو ذاك الذي خاضه أيُّوب نفسُه: أيختار الوقوف بجانب الله أم ضدَّه؟ وقد راز أيُّوب البيِّنات، ومعظمها لم ينمَّ عن إلهٍ جدير بالثقة. غير أنَّه عقد العزم على وضع إيمانه في الله... رُغم لجوئه إلى الرَّفس والرَّكل والصُّراخ طوالَ الطريق.

وعلى كلِّ واحدٍ منَّا أن يختار إمَّا العيشَ على أساس كون الله موجودًا وإمَّا العيشَ كما لو كان غير موجود. فلما جلس أُمبرتو إكو عاليًا على مُدرَّج تحت شمس الظهيرة ونظر من علٍ إلى ملعب يتحرَّك فيه لاعِبو كرة القدم، قبض على أهمِّ سؤال في حياته- وفي أيَّة حياة: أهنالك شخصٌ يُراقِب؟ والجواب عن ذلك السؤال يستقرُّ تمامًا على الإيمان، هذا الذي به- بل به وحده دون سواه- يحيا البارّ.

مَثَلان

أختم كتابي هذا بقصَّتَين، كلتاهما واقعيَّتان، تقومان عندي مقام مَثَلين يُبيِّنان البديلَين: طريق الإيمان وطريق اللاإيمان.

أمَّا القصَّة الأُولى فقد تضمَّنتها عظةٌ قدَّمها فردريك بوخنر:

هنا بداية الاقتباس إنَّها قصَّةٌ من القرن العشرين تخصيصًا، وتكاد تكون أشدَّ هولًا من أن تُحكى: ولدٌ في الثانية عشرة أو الثالثة عشر، في نوبة غضب واكتئابٍ مسعورة، نالت يده بُندقيَّةً موضوعة في مكانٍ مَا، وأطلق النار على والده الذي لم يَمُت في الحال بل بُعيدَ ذلك. ولمَّا سألت السُّلطات الولد عن سبب قيامه بذلك، قال إنَّه فعل ما فعله لأنَّه لم يستطع تحمُّل أبيه، ولأنَّ أباه أفرط في مطالبه منه، ولأنَّه كان يتعقَّبه دائمًا، ولأنَّه كان يكره أباه. ثُمَّ بعد ذلك بمدَّة، بعد حبس الولد في إصلاحيَّةٍ للأحداث، كان أحد الحرَس يعبر الرواق في وقتٍ مُتأخِّر من إحدى الليالي إذ سمع أصواتًا من غرفة الولد، فتوقَّف ليستمع. وكانت الكلمات التي سمعها الحارس يُردِّدها الولد في الظُّلمة وهو ينشج: "أُريد أبي... أُريدُ أبي!"

ويقول بوخنر إنَّ هذه القصَّة تُشبِه مَثَلًا على حياتنا جميعًا. فالمجتمع العصريُّ يُشبه ذلك الولد في إصلاحيَّة الأحداث. ونحن قد قتلنا أبانا لنتخلَّص منه. وأقِلاَّءُ من المفكِّرين أو

الأُدباء أو السينمائيِّين أو مُنتِجي التلفزة ما برحوا ينظرون إلى الله بعين الجِدّ. فهو مُفارقةٌ تاريخيَّة: شيءٌ صرنا أكبر من أن يُناسِبنا. والعالم الحديث قَبِل الرهان، وراهن ضدَّ الله. فثمَّة كثيرٌ من الأسئلة غير المُجابة. وهو قد خيَّب آمالنا مرارًا وتكرارًا*.

إنّه لأمرٌ صعب أن نعيش ونحن غيرُ مُتيقّنين من جهة أيِّ شيء. ثمَّ إنَّه ما زال ممكنًا سماعُ التنهُّدات والتأوُّهات، وصرخات الخسارة المكبوتة، كتلك المعبَّر عنها في الأدب والأفلام ومُجمَل الفنِّ الحديث تقريبًا. فإنَّ بديل خيبة الأمل بالله يبدو أنَّه خيبة الأمل بغير الله. (قال برتراند رَسل: "إنَّ مركز ذاتي هو دائمًا وأبدًا ألمٌ رهيب- ألمٌ هائل غريب- بحثٌ عن شيءٍ خارجَ نطاق ما يحتويه العالم").

وأنا أرى إحساس الخسارة ذاك في عينَي صديقي رشيد، حتَّى فهو يقول الآن إنّه لا يؤمن بالله، ولكنّه يظلُّ يتطرّق إلى الموضوع، مُحتجًّا بصوتٍ أعلى ممّا ينبغي. ومن أين يأتي هذا الشعور الجريح بالخيانة إن لم يكن موجودًا مَن يُعتبَر قائمًا بالخيانة؟

كان مَثَل فردريك بوخنر متعلّقًا بفقدان أب. أمّا المَثَل الثاني فيتعلّق بوجدان أب. وهو قصّةٌ واقعيَّة: قصَّتي الشخصيَّة.

كنتُ ذات عُطلة أزور والدتي، وهي تُقيم على بُعدٍ يُجاوز ١١٠٠ كلم. واستغرقنا في ذكريات الماضي البعيد، على عادة الأُمهّات والأبناء. وكان لا بدَّ أن تُنزَل العلبة الكبيرة التي تحوي الصُّوَر القديمة من على رفِّ الخزانة، وتُكبَّ منها كومة مختلطة

* "ألم تسمعوا بالرجل الذي أوقد مصباحًا في صباح نيِّر وذهب إلى السوق مُناديًا بلا انقطاع: «أُفتّشُ عنِ الله، أُفتّش عن الله...» وراحوا يضحكون، فاندفع الرجل إلى وسطهم ونظر إليهم نظراتٍ ملؤها المرارة والغضب، صائحًا: «أين هو الله؟ سأقول لكم. لقد قتلناه، أنتم وأنا». نحن جميعًا قَتَلتُه. ولكن كيف أمكننا أن نفعل ذلك؟ كيف تمكّنّا من ابتلاع البحر؟ مَن أعطانا الإسفنجة كي نمسح الأُفق ونُزيله؟ ماذا سنفعل وقد حُلَّ رباط الأرض من شمسها؟»- فريدرِك نيتشِه، العِلمُ الزاهي

من المستطيلات الرقيقة التي تشهد لتدرُّجي عبر الطفولة والمراهقة: زيُّ رعاة البقر وزيُّ الهنود الحُمر، بدلة پيتر كُتنتايل في مسرحيَّة الصفِّ الأوَّل، حيواناتي الأليفة في صِغَري، حفلات الپيانو التي لا تنتهي، وقائع التخرُّج من المرحلتين الابتدائيَّة والثانويَّة ثُمَّ من الجامعة أخيرًا.

بين تلك الصُّوَر، وجدتُ صورة طفل مكتوبًا اسمي على قفاها. لم يكن في الصورة بحدِّ ذاتها شيءٌ غير مألوف، إذ بدوتُ مثل أيِّ طفل آخر: لحيمَ الخدَّين، شبهَ أصلع، ذا عينين لا تُركّزان النظر. ولكنَّ بطاقة الصورة كانت مُغضَّنة ومُفسَدة، كأنَّما عبث بها أحدُ حيواناتي الأليفة في صِغَري. وسألتُ والدتي عن سبب تشبُّثها بهذه الصورة المُهانة، مع أنَّ لديها كثيرًا غيرها من الصُّوَر السليمة.

ثمَّة أمرٌ ينبغي أن تعرفه عن أُسرتي: لمَّا كنتُ ابن عشرة أشهر، أُصيب والدي بالشلل القَطَنيِّ الشوكيّ. وبعد ثلاثة أشهر تُوفّي، بُعَيدَ ذكرى ميلادي الأوَّل. وقد شُلَّ والدي كلّيًّا وهو في الرابعة والعشرين من عمره، ووهنت عضلاته جدًّا حتّى اضطُرَّ لأن يعيش داخل برميل فولاذيٍّ كبير يقوم بالتنفُّس عوضًا عنه. وكان زوّاره قليلين- إذ إنَّ الناس عام ١٩٥٠ كانوا ذوي وساوس من جهة الشلل مثلما هم اليوم من جهة السيدا (الإيدز). والزائرة الوحيدة التي كانت تعودُه بأمانة، والدتي، كانت تجلس في مكان معيَّن بحيث يُتاح له أن يراها في مرآة مُثبَّتة بجانب الرِّئة الفولاذيَّة.

وشرحت لي أُمّي أنَّها احتفظت بتلك الصورة كتذكار، لأنَّها في أثناء مرض والدي عُلقت برئته المعدنيَّة. وكان قد طلب صُوَرًا لها ولابنَيه الاثنين، فاضطُرَّت لأن تحشر الصُّور ما بين بعض المَقابض المعدنيَّة. من هنا تغضُّنُ صورتي طفلًا.

نادرًا ما رأيتُ أبي بعد إدخاله المستشفى، إذ لم يكُن مسموحًا بإحضار الأطفال إلى جناح المشلولين. ثُمَّ إنَّني كنتُ صغيرًا جدًّا، بحيثُ لو سُمح لي بالدخول ما كنتُ لأحفظ تلك الذكريات.

وحين أخبرتني والدتي قصَّة الصورة المُغضَّنة، حصلت لديَّ ردَّة فعل غريبة

وقويَّة. فقد بدا أمرًا غريبًا أن أتصوَّر شخصًا يعنيه أمري، رغم أنّي لم ألتقه قطُّ، بمعنًى ما. ذلك أنَّ أبي، في أثناء أشهُر عُمره الأخيرة، قضى ساعات يقظته محدِّقًا إلى تلك الصُّوَر الثلاث لعائلته، عائلتي. ولم يكن في نطاق رؤيته أيُّ شيء آخر. فماذا كان يفعل طول النهار؟ أكان يُصلّي لأجلنا؟ نعم، بكلِّ يقين؟ أكان يحبُّنا؟ نعم! ولكنْ كيف لمشلولٍ أن يُعبِّر عن حبِّه، ولا سيَّما حين يكون حضور ولدَيه إلى الغُرفة محظورًا؟

غالبًا ما فكَّرت في تلك الصورة المُغضَّنة، لأنَّها واحدةٌ من الحلقات القليلة التي تربطني بالغريب الذي كان أبي، ذاك الغريب الذي مات أصغرَ منِّي الآن بعقدٍ من الزمن. فإنَّ شخصًا لا ذِكرى لديَّ عنه، ولا معرفة حسِّيَّةً لي به، قضى طول اليوم كلَّ يوم مُفكِّرًا فيَّ، مكرِّسًا ذاته لي، مُحِبًّا إيّاي كأفضلِ ما يستطيع. وربَّما، بطريقةٍ من الطُّرق غامضةٍ وعجيبة، يقوم بذلك الآن أيضًا في بُعدٍ آخر. ولعلّي أحظى يومًا بوقتٍ، وقتٍ كافٍ وافٍ، لتجديد علاقةٍ أُنهيت نهايةً قاسية حالما ابتدأت.

وقد ذكرتُ هذه القصَّة لأنَّ المشاعر التي خالجتني عندما أرتني أُمّي الصُّورة المُغضَّنة كانت هي بعينها المشاعر التي خالجتني تلك الليلةَ من شباط (فبراير) في غرفةٍ بمهجعٍ كلِّيَّة إذ آمنتُ أوَّلَ مرَّة بإلهٍ محبَّة. إذ ذاك أدركتُ أنَّ هنالك شخصًا عظيمًا... شخصًا يراقب الحياة وهي تتكشَّف على هذا الكوكب. ثُمَّ إنَّ هنالك شخصًا يحبُّني. وكان ذلك شعورًا مذهلًا عامرًا بالرجاء العجيب، شعورًا بالغَ الجِدَّة والحدَّة بحيثُ بدا جديرًا تمامًا بأن أُخاطِر بحياتي في سبيله.

الشاهد الكتابيّ: لوقا ١٨.

المراجع

الفصل السادس

The Star Thrower, 64-65. ,Eiseley Loren

William I. Thompson, The Time Falling Bodies Take To Light, 24-25.

الفصل الثامن

Douglas John Hall, *God and Human Suffering*, 156.

الفصل الثاني عشر

Greville MacDonald, *George MacDonald and His Wife*, 172.

R. R. Tolkien, The Tolkien Reader, 68- 69.

الفصل الثالث عشر

Paraphrase of Soren Kierkegaard, *Philosopher Fragments*, 31- 43.

Frederick Buechner, *The Hungering Dark*, 13- 14.

الفصل الرابع عشر

Colin Brown, *Miracle and the Critical Mind*, 10.

الفصل الخامس عشر

Fyodor Dostoyevsky, *The Brothers Karamazov*, 235.

الفصل السادس عشر

Charles Williams, *He Came Down from Heaven*, 115.

الفصل التاسع عشر

C. S. Lewis, *The World's Last Night*, 9.

Frederick Buechner, *A Room Called Remember*, 142.

الفصل الخامس والعشرون

Frederick Buechner, *Wishful Thinking*, 46.

Saint Augustine, *The Confessions of Saint Augustine*, 286- 287.

الفصل السادس والعشرون

C. S. Lewis, *The World's Last Night*, 10.

الفصل السابع والعشرون

William James, *The Varieties of Religious Experience*, 233

C. S. Lewis, *The Weight of Glory*, 18, 19.

C. S. Lewis, *God in the Dock*, 212.

C. S. Lewis, *Christian Reflections*, 37.

Jurgen Moltmann, *God in Creation*, 244.

الفصل الثامن والعشرون

C. S. Lewis, *A Grief Observed*, 9.

Allan Boesak, "*If You Believe*", Reformed Journal, (November 1985), 11.

الفصل التاسع والعشرون

Elie Wiesel, *Messengers of God*, 233.

Charles Williams, *The Image of the City*, 136.

C. S. Lewis, *The weight of Glory*, 5.

J. R. R. Tolkien, *The Return of the King*, 283.

الفصل الثلاثون

Umberto Eco, *Travels in Hyper Reality*, 167- 168.

Frederick Buechner, *The Magnificent Defeat*, 65.

عندما لا تمطر السماء

"أكثر من ٤٠٠,٠٠٠ نسخة مباعة، ومترجم إلى ١٧ لغة"

لفيليپ يانسي موهبةٌ في تفصيل مسائل الإيمان العويصة. وفي هذا الكتاب "عندما لا تمطر السماء" يطرح ثلاثة أسئلة يتساءل المؤمنون بشأنها إلاَّ أنَّهم نادرًا ما يتفوَّهون بها جهرًا:

هلِ الله ظالم؟ أهو صامت؟ أهو مُختبئ؟

هذا الكتاب الحافل بالتبصُّرات والشخصيّ جدًّا يُشير إلى التفاوت الغريب بين مفهومنا لله ووقائع الحياة. إذا كان الله مشتاقًا جدًّا إلى علاقة وثيقة بنا، فلماذا يبدو بعيدًا بعيدًا؟ وإذا كان يَعنيه أمرنا حقًّا، فلماذا تحدث لنا أُمور رديئة؟ وبعد، فماذا يمكننا أن نتوقَّع من الله؟

يُجيب يانسي عن هذه الأسئلة بوضوح وصدق ويقينٍ مُستمَدٍّ من الكتاب المقدَّس. وهو يأخذ بأيدينا لتَخطّي خيبات الحياة، وما يمكن أن تُنتِجه من شكوك ولامبالاة وسخرية، إلى إيمانٍ بالله أقوى وأحكم، إلى ثقة بمحبة الله الفائقة لنا، وعطشٍ إلى الإحاطةِ لا بما يُعطيه الله فحسب، بل بمَن هو الله في ذاته وصِفاته وأفعاله.


ISBN 90-5950-071-6
9 789059 500716

